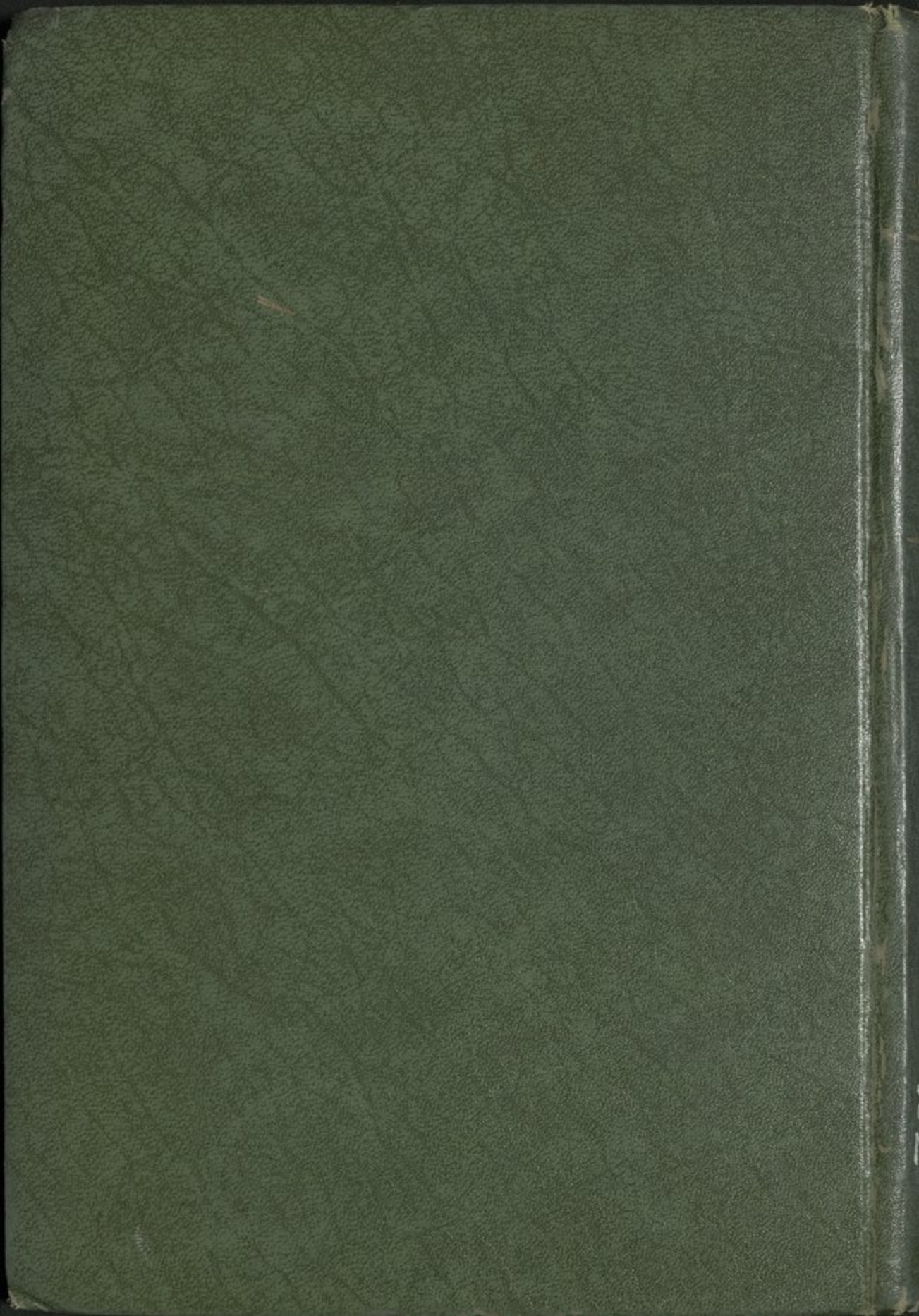
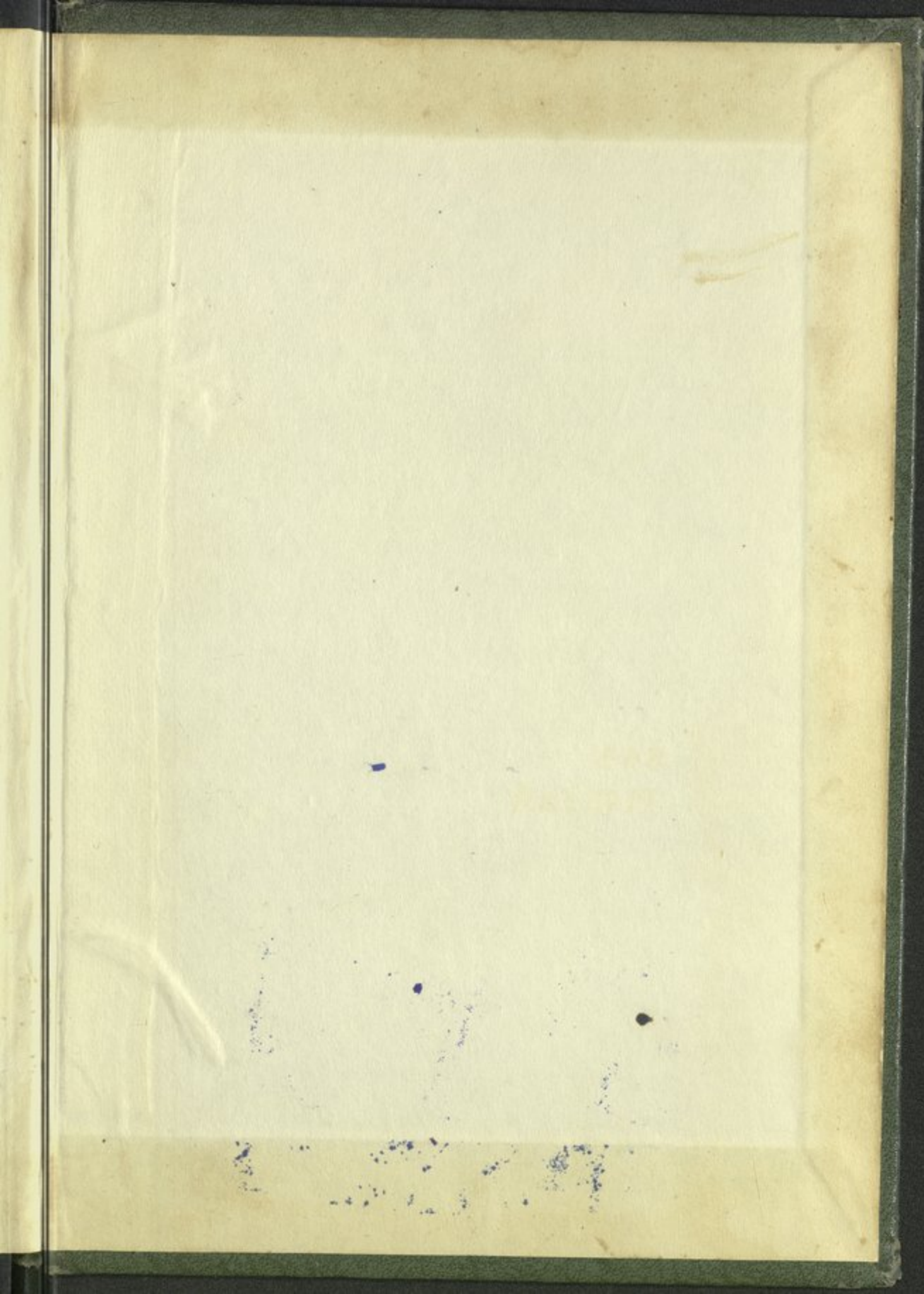






843:M452aA

موباسان ۶ غي دو

843

M452aA

JAN 21 1969

FEB 1969

JUN 7 1969

JUN 21 1969

FEB 1969

FEB 1969

FEB 1969

FEB 1969

FEB 1969

FEB 1969

8 FEB 1969

8 FEB 1969

8 FEB 1969

8 FEB 1969

8 FEB 1969

8 FEB 1969

SEP 1969

51 FEB 69

51 FEB 69

51 FEB 69

51 FEB 69

51 FEB 69

51 FEB 69

51 FEB 69

51 FEB 69

51 FEB 69

J. Lib.

J. Lib.

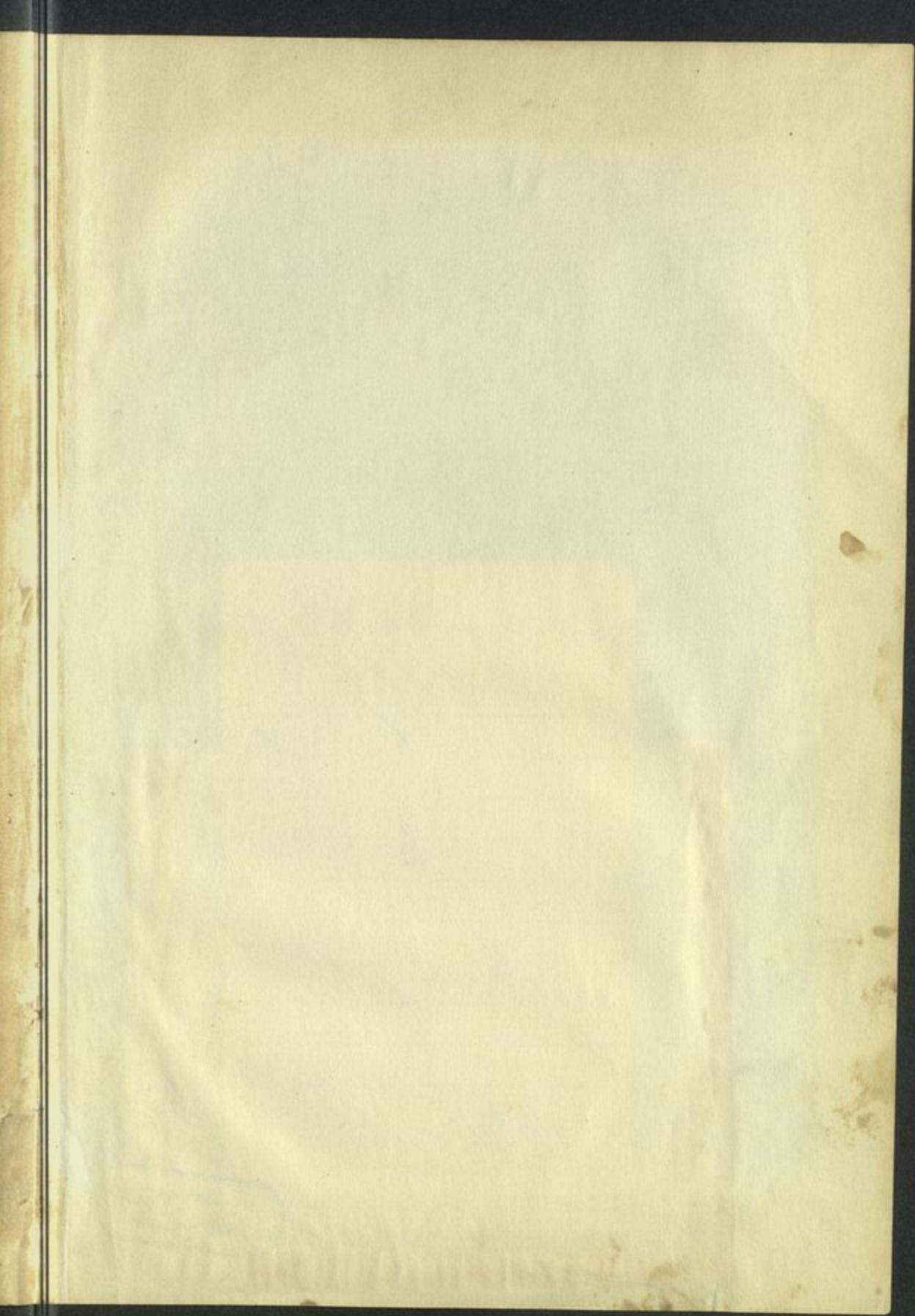
J. Lib.

J. Lib.

J. Lib.

J. Lib.

J. Lib.



دار البقعة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

843
M452aA
C.1

چي ده مويان

قوي كالموت

ابراهيم الحلو

سلسله عيون الادب العالمي

٦

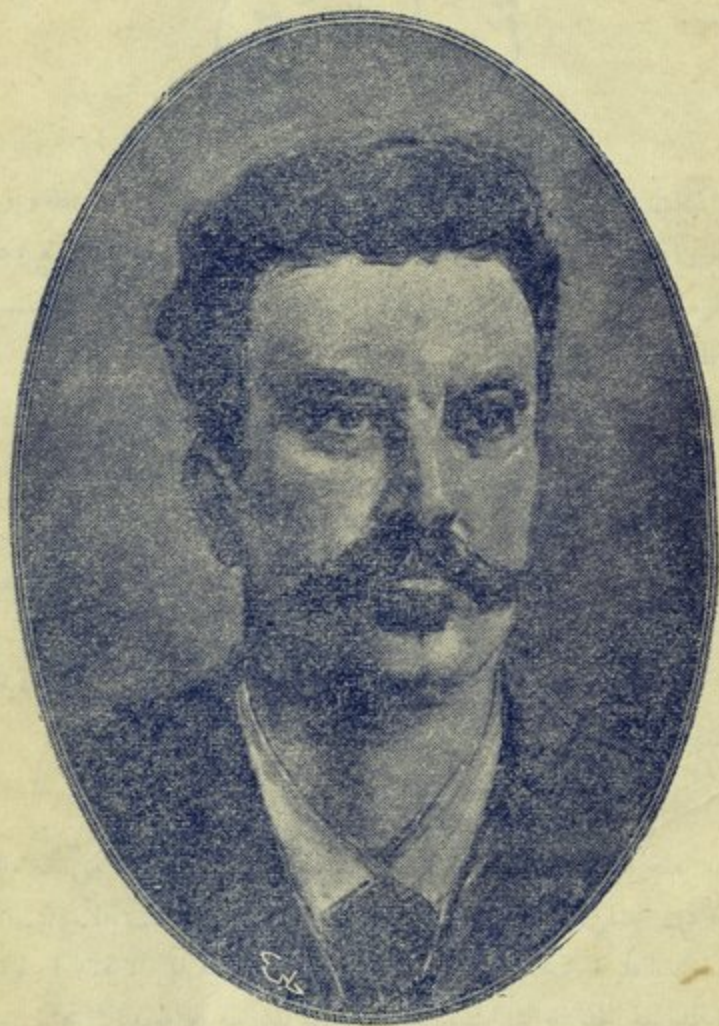
ed. Apr. 16:54





جميع موقوف الطبع والفن

والاقتباس محفوظة





توطئة

كانت الغاية من الرواية والقصة - قبل جي دي موباسان - الموعظة وإزجاء النصح واغداق الدروس الاخلاقية ، لذا نجدها قليلة الجدوى عديمة النفع ، ذلك ان المرء بطبعه يكره الامر والنهي ان ينصبا عليه كما ينفر من يتشج بمسحوح الواغظ ويعلو المنابر ليضع في مسمعيه قوله : لا تفعل هذا وافعل ذاك !

أما « موباسان » فقد اتجه الى الغاية نفسها منتجعاً مبدئياً أقصر وأكثر استقامة إذ جعل شاغله تصوير جمال الحياة وقبحها جميعاً ، فخرج الخير والشر متعانقين ، في كتاباته ، غير مفترقين ؛ لأنها في حياة الناس كما خطبها بقلمه البليغ . واكتفى بان يريك القبح بامسح أشكاله دون ان يقول لك : لا تفعله ! واكتفى بتركك تعيش الجمال الخالد بابدع الوانه دون ان يدفعك السية قائلاً : دونك إياه ! هذا هو العبقرى الروائي موباسان الذي فهم الحياة كما لم يفهمها كاتب من قبل .

* * *

يعتبر الكاتب الروائي الفرنسي « جي دي موباسان » علماً من أعلام القصة في الأدب العالمي الحديث ، فهو صاحب مدرسة مجددة طوحت بالأساليب القديمة وعصفت بالطريقة الكلاسيكية وأرغمت الرومنطيكية على الانحناء ! ولم تكن هذه المدرسة الجديدة التي ابتدعها موباسان إلا المدرسة الواقعية التي تجنح الى تصوير الانسان كما هو - لا كما يجب ان يكون ! فكان الكاتب الواقعي ذاك الرسام الصانع الذي ينقل عن الطبيعة مظاهرها وخلقاتها على علانها ، فلا يمسح

بيد الرفق على جراحاتنا ليلثمها ، ولا يشوه حقائنها بأصبغة زائفة دخيلة وانما عليه ان يعطيك صورة صادقة عن الحياة فتراها جميلة في قلبها وقوية في ضعفها ومرة في حقيقتها ، فليس من طبعه ولا في خلقه ان يهول لك المعاييب ولا ان يعظم لك الفضائل ولا ان يجعل لك من الابطال أنصاف آلهة ، وجل قصده انه يمر بالقلم على القرطاس فيقول لك ما تراه تحت ناظريك بقلم حي وفكير خالد !

« أحب السماء كحُب الطائر لها ... وأحب الغابة كحُب الذئب لها . .
وأحب الصخرة كحُب الوعل الذي اتخذها له ملعباً ... » (١)

ومعني الحب عند موباسان هو الرغبة العارمة في الامتزاج ، والفناء فيما هو محبوب . ومن ثم استرسل موباسان يمتزج بتلك الامواج الذائخة التي تضطرب في محيط الحياة ، يعلو متونها تارة ، ويهبط الى اعماقها تارة ، لا يضيق بشيء مما يكون ، ولا ينشد الاستقرار فيما يجري ، فقد فني في هذه الحركة الدؤوب كل فناء ! ولكن ... غفر الله للحياة ! فلشد ما تشبث بها فنبذته عنها بعيداً ! !

* * *

ولد موباسان سنة ١٨٥٠ من عائلة تمت الى العرافة بسبب قسوي وبدأ حياته المدرسية في كلية مدينته « روان » فكان تلميذاً غير مرغوب فيه ، فهو لا يأبه الا لنزعات نفسه الطليقة فلا يملك عن الاسترسال معها بعيداً ، فضاقت المدرسة بقصوره وما هي الا فترة حتى الفى نفسه يخرج الى الحياة الصاخبة شبه طريد ... وانتقل الى الريف يرتع فيه ويمرح ، يحيا مع الزراع ، ويختلط بهم في حياتهم الحشنة الطليقة فيجد في ذلك انساً وسلوى .. ولكن الريف ضاق به ، فهو يأخذ منه ولا يعطيه ، فما لبث ان الفى نفسه طريد الريف ...

وقضى حقبة اخرى من حياته موظفاً في وزارة البحرية ، وكان من فضائل وظيفته القليلة ما تركته له من فراغ .. فانصرف الى الأدب ، واتصل بفوستاف فلوبيير الذي كانت تربطه بعائلة موباسان او اصرميتينة ، فتلقاه بذراعين ممدوتين ، واخذ عنه اول اساليب التأليف الروائي ، وبغفلة عرف موباسان

(١) من « رسالة الى موباسان » لمحمود قميور .

كبار الروائيين اتباع المدرسة الواقعية . ولم ينقطع موباسان بين عامي ١٨٨٠ و ١٨٩١ عن نشر القصص والروايات التي امتازت بقوة أسلوبها وصدق تصويرها والمقسمة بسمة الواقعية المفارقة التي كادت ان تنقلب سبة عليه !

أحب موباسان في الحياة متعها اشكالا والوانا ، فأغرق نفسه في جلة الحسن :
فهصر القدود جهد طاقته ، واعتصر الكؤوس اعتصار ظامي . لا يروى له غليل . . .
وكان يصور كل ما أحب الصورة الصادقة التي علفت في ذهنه منه ساعة أحبه . .
لذا ترى في كتابة موباسان كل لون يخطر لك في بال ، ونجد بين اباطاله
كل نموذج يمكنك ان تلتقي به في اي مجتمع وفي اي زمان . . ومن هنا تأتي
القيمة الانسانية لأدبه ، بيد أنه آتس من الحياة إباء عليه وتخلصاً من بين يديه .
ولم تكذب الايام ظنه فما بلغ الاربعين من عمره حتى انفصم ما بينه وبين عالم
الاحياء من صلات واتخذ لنفسه سكناً بين القلم والقرطاس . . يعمل ليل نهار
دون ان يدركه تعب او يحس مللاً . . يالها من غرائب ، فإن حبه للحياة هو
الذي حرره دوام وصالحها ، وكلها هم بها صدت وكلها مال اليها بعدت . . فلا بدع
ان يحقد عليها حقداً مريراً ، حقداً يخالط ذاك الحب المكين كما يخالط السم النافع
رطب الشراب !

ورأى المجتمع تتحكم به عادات ومعتقدات عليها غلائل فاخرة من نسج
المخادعة والرياء ، فجرى يحطم القيود ويمزق الاغلال لا يصدده عائق عن هدفه
المرموق ، فنضا الاستار عن تلك الغرائز البشرية التي تعمل في السرائر وتجعل
من الناس دمي تبعث السخريّة والاشمئزاز .

وربع المجتمع بما جابه به من مساوئه ونزعاته الدنيئة ، واذله ما صفعه
به من حقيقة علمية الطعم ، فظيعة في بشاعتها ولكنها متناهية في صدقها واخلاص
اهدافها . . . فصاح به المجتمع بنفس واحد : مكانك ايها الفاجر السليط ! الا
ان ذلك المجتمع كان في قرارة نفسه مقراً بصدق ما ذهب اليه ، معترفاً ان الحق
ما قاله . . فسكأنه يستزيده ولا يحاول خنق انفاسه كما تظاهر .

ولم تمهل الحياة موباسان حتى يحقق كل غاياته واهدافه ، فما لبثت متسع

الحياة ، واستهتار الشباب أن سرت في دمه سماً زعافاً ، وحل يوم شعر فيه أن عقله ينزف ، وأنه مرشك أن ينضب .

واصيب موباسان بالجنون ، فأقام سنوات ثلاثاً في مصح للأمراض العقلية وقضى نحبه في نهايتها سنة ١٨٩٣ بعد أن كان قد وهب المكتبة الفرنسية ثروة طائلة خليق بها أن تزهو وتفخر بهذه الهدية الكريمة . كما كان قد اهدى للادب الحديث طريقته الجديدة الواقعية إذ أنه ابدع فناً يكاد أن يكون جديداً في الادب الفرنسي آنذاك هو فن القصة القصيرة التي أحدثت ثورة فعلية في الادب العالمي فيما تلا ذلك من اعوام .

وإذا كانت المكتبة الفرنسية قد انحفت بهذه الروائع التي قدمها لها القصاص الكبير موسابان فإن المكتبة العربية ما زالت ظامئة الى هذا الادب الرفيع تضيفه الى ذخيرتها الخالدة ، وها هي ذي دار البقعة العربية تسهم - على عادتها - في بناء المكتبة العربية فتقدم للقارئ العربي هذا الاثر النفيس من آثار موباسان الذي يغلو بعض النقاد فيرى فيه خير ما انتجته قريحة موباسان وافضل - ل ما خطه براعه !

دمشق - حزيران ١٩٥٣

المعرب

الكتاب الأول

١

كان النور يتسرب الى المرسوم الفسيح عبر فتحة تتوسط السقف فتبدو مربعا ازرق متألقا يفسح للنظر رؤية زرقة السماء اللامتناهية تقطعها طيور منطلقة كأنها سهام مراشدة .

واذا ما ولجت القاعة العالية الجهمة الاثاث ، خيل اليك ان ألقى السماء البهيج آخذ بالشحوب والاضمحلال ، حتى ليستحيل ضئيلاً ناعساً كأنه يغفو فوق قطع الاناث القديمة ثم يخنق في الزوايا فلا يبلغ اعماقها الاً بكمية ضئيلة الاً انها كافية لتجمل الاطر المذهبة تلتهم التماع جذوة توشك ان تنخبو .

كان هدوء ناعس يسود جو المرسوم الفسيح ، هدوء ألف مسكن هذا الفنان حتى غدا جزءاً آمنه لا يكاد يفارقه الاً ساعة ينشط الى العمل فتنتطق الروح الانسانية بكل مجالي قوتها وحيويتها ، فاذا انهدك الفكر واضناه مجهود العمل الخلاق بين تلك الجدران ، عاد الى استكانته وهدوئه

فتعود تلك "السكنينة الغافية تجلب كل شيء" فكان الموت قد نزل تلك
الساحة بعد انتفاضات الحياة المبدعة . فيجنح كل شيء الى الراحة بجنوح
الفكر اليها : الاناث والسجوف واللوحات الكبيرة التي لم يُفرع
من رسمها . فكان المسكن بكل ما فيه قد شارك صاحبه جهده المبذول
ونشاطه المستهلك ، فيدركه ما يدرك الرسام من عناء يتجدد في
كل يوم ...

كانت رائحة تبعث الخدر في الاعصاب ، تثقل الجو فكانها ،
لكتافها ، قد علقت بالسجوف والطنافس والمقاعد . انها مزيج من
روائح الاصباغ والمركبات الكيماوية والتبغ المحروق .
لم يكن ثمة ما يعكر الهدوء الخيم سوى صرخات قصيرة
عنيفة صادرة عن طيور السنونو العابرة من امام النوافذ المقفولة .
اضف الى ذلك صخب باريس العميق المبهم الذي لا يكاد يصل الى
الاذان الا بمشقة .

كان كل شيء هادئا في محراب الفن . لم يكن ثمة ما ينبض
او يتحرك ما خلا تلك الضبابية من الدخان الازرق المتصاعدة بشكل
متواصل نحو السقف ، كلما نفث اوليفيه برتان نفسا من لفافته وهو
مستلق فوق ديوان وثير يعج الدخان ببطء من خلال شفتيه .
كانت نظراته ضائعة في زرقة الافق البعيد . فهو يبحث عن

موضوع جديد للوحة يتمخض عنها ذهنه . ما تراه فاعلاماً ؟ لم تكن
اية فكرة قد تبلورت في ذهنه حتى الساعة . فهو ليس ذلك الفنان
السريع التصميم ، الواقق من صواب تخيلاته الاولى ، فهو قلق ، برم
يتردد الالهام دون انقطاع في مظاهر فنه .

واوليفيه برتان رسام ذائع الصيت ، اغتصب المجد والثروة
اغتصاباً ، غير انه لم يكن ، حتى آخر حياته ، ليعرف له مثلاً اعلى اليه
يسير . لقد نال من روما اعلى شهادات الرسم . فكان اول أمره ذائداً
عن التقاليد ، ميالاً الى بحث جمال القدم وروعة الماضي ، ثم غير نهجة
الفني قال الى التجديد ، وهو على علم قدمه في عالم الفن يذكرك بكبار
الفنانين الذين سجلوا فصولاً مجيدة في التاريخ الفني . وعاد في نكسة
جديدة الى الاسلوب الكلاسيكي فاخرج صوراً لاشخاص احياء
بلغت حد الروعة الفنية .

كان ذكياً ، متحمساً ، يعمل دون هوادة ، وقد اكتسب مرونة
عالية تولدت من ترده القديم وعديد محاولاته يساعده ذوق سليم
وذكاء درهف . وربما كان لانصراف المجتمع الى تذوق فنه والاقبال
على انتاجه يد في وثبة تلك التي رفعت الى مصاف كبار عباقرة الفن .
ايكون قد تمكن من السيطرة على مواهبه وتوجيهها الى مآصار اليه لا
الى ما كان يجب ان يكون ؟ فنذ نجاح لوحته الاولى ، دفعته رغبته في

ان يصبح محط اعجاب الجميع ، الى المباشرة والتقدم . حدث ذلك دون
ان يحسب له حسابا . فمهد امامه الطريق سراً . ان الرغبة في ان
يجد نفسه ذلك الفنان المرموق ، ذلك الرسام الحامل لواء مدرسة فنية ،
ان تلك الرغبة قد ضربت بسهم وافر في ارتفاع نجمه وذبوع اسمه .
كان دمث الخلق ، لطيف الطباع ، شديد العناية بنفسه ، بالغ
التائق بلبسه ، متزن التصرف ، ذا فروسية ورجولة .

وقد اجتمعت فيه هذه الصفات النادرة لتعطي الشهره التي اغتصبتها
اغتناباً فبعد لوحته . كيلو بآره ، اللوحة الاولى التي حملته الى قمة الشهرة ،
فتذت به باريس فجأة ، فقبضته ، واحتفلت به ، ففجأة احدث فنانها اللامعين
الذين لا تصادفهم في كل حين والذين تتزاحم الصالونات لاستقبالهم كما
تتلقاهم الندوة بفخر منذ فجر شبابهم . لقد دخل محراب الفن دخول
الفاتحين واعجاب المدينة كلها يحف به . كما ان الثروة قد قادته الى
حدود الشيخوخة تمهد له السبل وتحقق له الرغبات .

انه ، تحت تأثير النهار المانع في الخارج ، يبحث عن موضوع
شعري للوحة جديدة . كان مستغرقاً بلفافته ، يحلم ونظرانه تطوف
في الفضاء متخيلاً في الافق وجوهاً سريعة التقاطيع ونساء حسنات
في مفاوز الغابات او فوق ارضة الشوارع ، وعشاقاً على ضفاف المياه

وكل ما في الحياة من ممتع جذاب يثير الخيال . كانت الصور المتحولة
ترسم على صفحة السماء غامضة ، متحركة في استغراق ملونة ، امام
ناظريه بينما تقطع السنونو الفضاء بطيرانها المتواصل كأنها الاسهم
المارقة ، او كأنها تحاول نحو الزرقة كما يفعل القلم عندما ضربه الصفحات .
لم يجد شيئاً . فكل الوجوه التي ترتفع امام خياله تبدو كأنها معروفة
منه قبل ذلك ، وكل النساء كأنهن بنات او اخوات اللواتي خلقهن خياله
من قبل . ها هو الخوف يعاوده . فمذ سنة خيل اليه ان جعبته فرغت ،
انه انتهى من كل ما في رأسه من مواضع ، انه استهلك كل الهامه ،
وشاء ان يستوثق من هذا التخيل ، من هذا العجز خيال كل جديد
يخلقه من العدم .

ونهض بارتخاء ليبحث في محفظته عله يجد شيئاً يمكن ان
يشير فيه فكرة . وراح بفتش في اوراقه ، مدخناً لفاقته ، عن التعاميم
والرسوم التي يحفظها في خزانة كبيرة قديمة . وشعر بالاشمئزاز فجأة
من هذا التنقيب فالقى بفاقته وروحه تشعر بالغنى وراح بصفر لحناً
شعبياً ثم انحنى والنقط من تحت مقعد ثقلاً للرياضة راح يحركه .
ثم رفع يده الثانية سحفاً يكشف عن مرآة تساعد على
معرفة الاوضاع الصالحة للتأكد من الرؤية ولاختبار حقيقة الرسوم ،
ووضعها امامه وراح ينظر فيها ويتمتم .

كان يذهو بقوته الجسدية وبجماله في المجتمعات ، اما الآن
فان السن يرهق كاهله وبثقله فقد تكرر كصارع قديم بالرغم من
انه يتريض بالسلاح والفروسية كل يوم غير أن رأسه بقي ملفناً
للانظار ، جميلاً كما كان قبلاً انما بشكل آخر . فالشعر الابيض الكث
القصير يغطي اذنيه السوداوين لمعاناً قويا تحت اهدابه الرمادية وكان
شارباً الاغبران كشاربي جندي قديم يضيفان على وجهه سمة الحيوية
والاعتزاز . كان يقف امام المرأة وقد ضم عقيبها واستقام بجسده وراح
يرسم بالكراه المعدنية كل الحركات الموزونة بطرف ذراعه القوية
متابعاً بنظرة رضى مجهوده الوئيد الجبار . غير انه فجأة شاهد في اعماق
المرأة التي تعكس كل الرسم باباً يتحرك ثم ظهر رأس امرأه ، لا شيء
سوى رأس ينظر . وارتفع صوت يسأل :

— انت هنا ؟ فاجاب : وهو يستدير : اني هنا .

ثم التقى بالة الرياضة وانطلق الى الباب برشاقة شبه مفقعة .
ودخلت امرأة انيقة المظهر . وبعد ان تصافحا سألته : أنت

تتريض ؟

— أجل اني اقلد الطاووس وقد ضبطت . فضحكت واجابت :

— ان البوابة ليست في غرفتها ولما كنت اعرفك دائماً وحيداً في
مثل هذه الساعة فقد دخلت دون ان اعلن عن نفسي . فراح ينظر اليها :

— يا الله ! كم انت جميلة ! يا للأناقة !

— اجل انه ثوب جديد . اتجده جميلاً ؟

— رائعا ، بديع التناسق . انت للناس اليوم ذوق التناسق
والانسجام . وراح يدور حولها متامساً القماش معدلاً بطرف اصابعه
وضع الطيات كرجل يتقن التجميل كأنه خياط قضى كل حياته
مستعملاً ذوقه كفنان وعضلاته كرياضي لتصميم الازياء المتغيرة
الانيقة التي تنم عن جمال الأنوثة الاسيرة بين جدران من الحرير والمخمل
او تحت ثلوج من الدتلا . وانتهى بان اعلن :

— انه ثوب ناجح جداً . وهو ينسجم مع جسمك كل الانسجام
وتركته يتمتع انظاره بها وهي شديدة السرور بان تكون
جميلة فترضيه .

لم تكن حديثة السن انما كانت جميلة ، ربة الجسم ، مليئة ،
غير انها ريانة العود بمثل هذه اللدونة التي تعطي للجسم في الاربعين
طعم الثمر الناضج . كانت كاحدى هذه الورود التي لا تفقأ مژدهرة
متفتحة ، رباً ، حتى انها لتسقط وهي اشد ما تكون نفحاً وشذى .
انها تحتفظ تحت شعرها الاشقر بجمال الباريسيات اللواتي لا يدر كهن
هرم فهن يحلمن دائماً تلك الرغبة الوثابة في ان يبقين فتيات ، تلك
القوة التي لا تستهلكها الايام والتي تبقى خلال عشرين سنة لا تتغير

ولا تفنى بل تنتصر دائماً : أنها العناية بأجسامهن والاقتصاد بصحتهن
ورفعت خمارها وتمتعت : - حسناً . الا تقبلي ؟

- كنت ادخن -

- آه ... وقدمت له شفتيها قائلة : لسوء الحظ ...

والنقث شفاهها . وتناول مظلمتها وخلصها من سترتها الربيعة
بحركات ثابتة واثقة فقد اعتاد هذه الاشياء العائلية . وسألها بعد ان
استوت فوق الديوان : - كيف حال زوجك ؟

- حسناً جداً . انه يخطب في المجالس النيابية هذه الساعة بالذات .

- آه . وما هو موضوعه ؟

- لا ريب في انه يدور حول الشوندر او الزيت ... كما هو دائماً .

ان زوجها الكونت دي غيروا ، نائب الاور ، جعل من نفسه
اختصاصياً في كل الموضوعات الزراعية .

وسألته وهي تقطع الرسم الى لوحة لم تكن قد رأتها قبلاً :

- ما هذه ؟

- صورة طباشيرية بدأتها . انها صورة الاميرة دي بوتاف

قالت بلهجة جدية : - اسمع . اذا كنت ستثابر على رسم

النساء فلن أردد في اغلاق مرسمك . انا اعلم الى اين يؤدي مثل هذا

المعمل -

— آه . لن يتاح للمرء ان يرسم الاميرة مرتين !

— اعتقد ذلك جيداً .

وراحت تفحص اللوحة كما امرأة تعرف الفن . فكانت تدنو وتنقهر متخذة من يدها مظلاً باحثة عن المكان الذي تكون فيه اللوحة اكثر تعرضاً للنور . ثم اعانت اعجابها :

— انها جيدة جداً . انك تنجح جيداً في الرسم الطباشيري .

فاجاب منقشاً :

— اتجدين ذلك حقاً ؟

— نعم . إنه فن لطيف جداً يستدعي الكثير من الدقة انه لم يخلق المصورين (البنائين) الذين لا يجيدون الا استعمال المسطرة والبيكارا منذ اثني عشر عاماً وهي توجه ميوله نحو الفن المرموق وتحارب نكساته نحو الواقعية المجردة وبكثير من التقدير الاجتماعي الانيق كانت تدفعه بلطف نحو مثل اعلى من الجمال المنوع المصنوع . سألته :

— كيف هي الاميرة ؟

فكان عليه ان يقدم لها الاف التفصيلات من كل ضرب ، هذه التفصيلات التي تشبع التطفل النسوي والغيرة الحادة عندما ينتقلن من ملاحظة اناقة غيرهن الى تقدير نفسيتهن . وسألت فجأة : — اتحبب اليك فقهقه واقسم ان لا .

عندئذ القت يديها الى كتففي الرسام ونظرت اليه بثبات .
ان شدة السؤال ارجفت البؤبؤ المستدير الذي يتوسط الحدقة
الزرقاء ذات النقاط السود كأنها المداد وتمت من جديد : — صحيح
انها ليست مغرية ؟ — اوه . صحيح تماماً .

فتابعت : — اني مطمئنة فانت تحبني الآن اكثر من اي وقت
آخر . لم يمد اخريات القدفات الاوان ، يا صديقي المسكين .
لقد حركته فارتجف هذه الارتجافة العسيرة التي تهز قلب
الرجل الناضج عندما يحدثونه عن سنه . وتمم : — اليوم وغداً كأمس
لم يكن ولن يكون سواك في حياتي يا آني .
فاخذت ذراعيه واستدارت الى الديوان واجلسته الى قربها .

— بم تفكر ؟

— اني ابحث عن موضوع للوحة .

— اية لوحة ؟

— لا اعلم فانا ابحث .

— وما ذا فعلت هذا اليوم ؟

وكان عليه ان يروي لها كل الزيارات التي قام بها ، الولاثم
والسهرات ، المحاورات والاحاديث . وكان الواحد والاخر يهتمان
بهذه الاشياء العائلية النافذة من الحياة الاجتماعية : العداوات الصغيرة

والعلاقات المعروفة او المظنون بها ، والاحكام المبرمة والمعادة والمسموعة
الفاخرة على نفس الاشخاص وعين الاحداث وذات الآراء . كانت
تحمل نفسها وتفرقها في هذا النهر المضطرب العكر الذي يسمونه
الحياة الباريسية . كانا يعرفان كل الناس . فهو كفتان تفتح امامه كل
الابواب وهي كسيدة مترفة زوجة نائب محافظ . وكانا قد اعتادا
رياضة الحديث الفرنسي الناعم السخيف الذي يستغيب الناس متحجباً ،
ويشفكه دون جدوى ، ويحلي وهو يسف . انه يعطي الشهرة الخاصة
المرغوب فيها الذين اعتادت السنتهم على هذه الثروة الفارغة .

— متى تأتي فتعدي عندنا ؟

— ساعة تشائين . حدددي اليوم .

الجمعة . فستكون عندي الدوقة مورثمان وآل كوريل
وموزاديو وذلك للاحتفال بعودة ابنتي التي ستصل هذا المساء . ولكن
لا تقل لأحد فهذا سر .

— آه . صحيح . اني اقبل . اني ساكون في غاية السرور بان

ارى آنت . فلم ارها منذ ثلاث سنوات . صحيح منذ ثلاث سنوات .

لقد ريت آنت في باريس الا انها اصبحت في السنوات

الاخيرة الشغل الشاغل لخدمتها ، السيدة بارادان التي كانت عمياء

تقريباً وكانت تقيم معظم السنة في املاك صهرها بقصر الرونسيير

في مقاطعة الاور، ومن ثم بدأت المرأة المعجوز تحفظ بالطفلة. ولما كان آل غيروا يقضون نصف حياتهم في هذه الناحية حيث تستدعيهم مصالح زراعية وانتخابية فلم تكن الفتاة ترسل الى باريس الا غراراً فقد كانت هي تفضل الحياة الطليقة الحرة في الريف على حياة المدينة المقيدة. ومنذ ثلاث سنوات لم تكن قد جاءت باريس مرة واحدة وكانت الكوندس تفضل أن تتركها بعيدة لئلا توظف في نفسها النزعات الخطرة قبل اليوم المحدد لدخولها المجتمع. وكانت مدام غيروا قد هيأت لها في الريف معلمتين رفيعتي الثقافة كما كانت تكثر من زيارة امها وابنتها. فضلاً عن ان اقامة الفتاة في القصر كانت ضرورية نظراً لوجود المرأة الشينخة هناك.

وكان اوليفيه برثنان في الايام الخالية يقصد قصر الرونسيير فيقضي فيه ستة اسابيع او شهرين كل سنة الا انه منذ ثلاث سنوات جره الرومانزم الى مدن المياه البعيدة الامر الذي كان يذكي حنينه الى باريس فكان لا يقوى على مغادرتها اذا ما عاد اليها.

لم يكن للفتاة ان تعود قبل الخريف الا ان اباهما كان قد اعد لها فجأة مشروع زواج وقد استدعاهاا للتعرف بالشخص الذي اعد ليكون زوجها لها: المريكيز دي فاراندال. وقد وضع المشروع في مربة

تامة حتى ان احداً غير اوليفيه برثان لم يطلع عليه فقد اسرته له مدام
غيروا . — سالها : — اذن ففكرة زوجك مدروسة جيداً ؟

— اجل . واعتقد انها موفقة جداً .

ثم انصرف الى الحديث باشياء اخر . وعادت الى موضوع
التصوير وحاولت حملة على رسم صورة للمسيح . فكان يقاوم معترضاً
ان ثمة كثيراً من هذه الصور في العالم غير انها كانت تدافع بحرارة
حتى فقدت صبرها :

— آه لو كنت اتقن الرسم لكنت اريتك فكريتي . انها غاية
في الجدة والجرأة : تمثله وهم ينزلونه عن الصليب وقد افلتوا بديه وتركوا
جسمه يسقط فوق الجمهور الذي يدفع ذراعيه ليتلقاه ويسنده . اتفهم ؟
اجل لقد فهم . بل لقد وجد الفكرة مبتكرة . غير انه لم يجدها
من ذوق العصر . ولما كانت صديقه متعمدة فوق الدبوان كانت
احدى قدميها متدليه وقد غلفها حذاء دقيق يثير في العين الشهية من
خلال جوربها الشفاف . هتف قائلاً :

— هو ذا ! هو ذا ما يجب ان ارسم ! هو ذا الحياة ! قدم امرأة
تطل من تحت ثوبها ! يمكن للمرء ان يضع كل شيء فيها . الواقع !
والرغاب والشعر ! لا شيء ابداع واجمل من قدم امرأة ابوية اسرار بعد
ذلك : الساق المختبئة الضائعة تحت هذا القماش ! كان جالسا فوق

الارض فتناول الحداء ونزعه فخرجت القدم من غلافها الجلدي
فتحركت كأنها حيوان وقد فوجيء بالحربة . وتابع برثنان :
انه دقيق ناعم . أنه مادي . بل أكثر مادية من اليد . ارني يدك يا آني .
كانت ترتدي قفا زين طويلين يبلغان مرفقيها ، وكى تتخلص من احدهما
كان عليها ان تأخذه من طرفه الاعلى ثم تسحبه كما يسحب جلد افعى
يراد نزعه عن جسمها . ثم بدا ذراعها السمين الشاحب المستدير فكان
في ظهوره المفاجيء ما يطير بالفكر الى عري كامل جري . ثم تركت
يديها تسقطان تلتمع الخواتم في اصابعهما البيضاء الوردية الاظافر فكانت
تظهر في دقتها كأنها مخالب ينسبها الحب في القلوب . وراح او ليفيه
برثنان يداعبها بحنو معجبا . فكان يحرك اصابعها فعلة بلعبة حية . قال :
— يا لها اشياء عجيبة ! عجيبة ! هذه الاعضاء اللطاف ، الذكية ،
الدقيقة ، التي تنفذ كل ما يراد منها ، كالكتابة واشغال الابرة او تدبير
البيوت او صنع الاهرامات والقاطرات . . . او المداعبة . . . وان هذا
هو عملها المفضل المحبب . وراح ينزع الخواتم الواحد تلو الآخر .
حتى حان دور محبس الزواج ، هذا الخيط الذهبي ، فانزعه وضحك
قائلاً : — انه الوحيد الذي يفرضه الشرع . وانه ليستحق التحية .

فقالت باضطراب قليل : — يا للخبث !

انه دائماً هازي . فيه هذا الميل الفرنسي الى السخرية من أكثر

الاشياء جداً وكان كثيراً ما يلجأ الى ذلك دون ان يقمده او دون ان يحاط لما قد يؤدي من رد فعل لدى النساء المحصنات فكانت به بذلك يتجاوز الحدود المقدسة على حد تعبيره . اما هي فكانت كثيراً ما تغضب اذ يروح يهزأ هزء المعتاد من علاقاتها التي استمرت طويلاً حتى لكأنها النموذج الحي للحب في القرن التاسع عشر . . . سألته بعد فترة صمت :

— انك ستصحبنا آنت وانا ، الى معرض الرسم ؟

— اظن ذلك .

ثم راحت تساله عن اجمل لوحة في المعرض المرتقب الذي سيفتح خلال خمسة عشر يوماً . غير انها استدركت فجأة كأنها تذكر شيئاً منسياً .

— هيا اعطني حذائي . ساهب .

كان يلعب بالحذاء الصغير حالماً ، فيديره بين يديه المضطربتين . ثم انحنى وقبل القدم التي بدت طافية بين الثوب والبساط والتي كانت قد مسكنت بعد ان بردت قليلاً بتأثير الهواء ثم البسها الحذاء ، ونهضت مدام غيروا نحو منضدة تحمل اوراقاً ورسائل قديمة وحديثة . ومجرة رسام قد جف مدادها ، كانت تحقق بعين متطفلة فترفع الاوراق لتتظر تحتها . قال وهو يقترب منها :

— اراك تشوشين هذه الفوضى التي انا فيها . ودون ان

يجيب سألته :

— من هو هذا السيد الذي يريد شراء لوحك (المستحجات) ؟

— انه اميركي لا اعرف اسمه .

— وهل اتفقما على (مغنية الشارع) ؟

— اجل . عشرة آلاف .

— حسنا فعلت . سعر طيب ولكنه . . . عادي . وداعا

يا عزيزي .

واقتربت منه عارضة خدوها فراح يكسوه قبلاً هادئة واختفت

وراء الباب قائلة بصوت خافت : —

— يوم الجمعة الساعة الثامنة . لا اريد ان توصلني . أنت تعرف

ذلك . وداعا . وبعد ذهابها اشعل لفافة ثم راح يزرع مرسمه جيئة وذهابا

بخطي وثيدة . وراح يستعرض تاريخ علاقته بها منذ كراً الدقائق

البعيدة المتوارية يبحث عنها ويربط بعضها ببعض الآخر مهماً بفردته

بترجيع هذه الذكريات .

كان ذلك عندما بدأ يتمتع شهابا في سماء باريس الفنية ، في الوقت

الذي شرع الفنانون يستحوذون على اعجاب الرأي العام ويتربعون

في القمة السامقة نتيجة لبضع ضربات بريشة الرسم

لقد بقي برثان بعد عودته من روما سنة ١٨٦٤ عدة سنوات دون شهرة ودون ذبوع ضيت ومن ثم فجأة عرض لوحته كليبو بآرة سنة ١٨٦٨ فرفعه النقد الفني والجمهور الى الالوج .

وبعد موت رينيو سنة ١٨٧٢ بعد الحرب ، هذا الحدث الذي وسع الطريق امام زملائه للسير قدماً ، قدم برثان (جو كاست) فكانت قبيلة الموسم بما انطوت عليه من جرأة في التعبير حتى عده بعضهم من الفنانين الواقعيين الا ان المدرسين انفسهم لم يستطيعوا الا الاعجاب بها . وسنة ١٨٧٣ نال قصب السبق ورصع صدره وسام رفيع عندما قدم لوحته (يهودية الجزائر) التي اوحى اليه احدى رحلاته في افريقيا ثم جاءت لوحة للاميرة ساليا فرفعته الى صف رسامي الهيئات المبرزين ومنذ هذا الوقت غدا الفنان المحبب الى كل باريسية والمسجل الامين لكل ما يزخرن به من فتنة وجمال . وفي بضعة اشهر غدا محط امل كل باريسية وما زالت شهرته تطير في افق مدينة النور حتى عرفه القاصي والداني وتزاحمت سيدات الطبقات الراقية عليهن يظفرن بصورة يرسمها لهن ، وكان من الطبيعي ان تندفق الثروة والمجد اليه فيصبح طوع بنانه كل ما في باريس من روعة ورفاهية وجمال .

في هذه الفترة عرف آني . جاته ككثيرات غيرها كن يقصده كي يرسمهن . جاته برفقة زوجها النائب . وادرك للنظرة الاولى

ان هذه المرأة الشابة تحمل دعوة سافرة في عينيها وفي حركات جسدها
البض المتعطر الى متع الحب الحقيقي الاله. كما ادرك ان ما
ينطوي عليه جفناها من رغبات حاره ونزعات وثابه قلما يندسل عليها
جفنا امرأة.

واتفق معها على عمل اللوحة ومواعيد الزيارات وراح زوجها،
استجابة لعادة التكلم في الجماهير يستفيض بامتداح الفنان معرباً له عن
شديد اعجابه بكل ما تنتج ريشته من روائع اللوحات. وتلقى او ليفيه
ثناء بشيء كثير من التواضع المعزج بالبرود. ثم راح الزوج النائب
يشكر الفنان بسيل جارف من الجمل التي تنبي عن خطيب زلق اللسان.
فهو منذ مدة طويلة يود ان يعمل لزوجته صورة وطبعاً لم يكن له ان
يختار سوى السيد او ليفيه رتان وهو لم يخش الرفض بالرغم من انه
يعرف كم تتراكم عليه الطلبات.

وهكذا تم الاتفاق على ان يصحب زوجته الكونتس منذ
الغد الى المرسى ثم عقب معرباً عن خشيته فيما اذا كان ثوب الحداد
الذي ترتديه لا يحول دون تحقيق رغبته تلك فاجابه او ليفيه انه بالعكس
يود ان يخرج التعبير القوي الذي يوحى اليه التناقض بين وجه الكونتس
الزاهر بالحياة والدقة والامعان تحت شعرها الاشقر مع سواد الثوب
الفياح.

وهكذا جاءت في الغد برفقة زوجها وفي الايام التالية مع ابنتها
التي كانا يجلسانها امام طاولة مثقلة بالمجلات المصورة .

كان او ليفيه برنان كعادته يظهر كل تحفظ . ان نساء المجتمع
لا يستدعين كل الاطعشان ذلك انه لم يكن قد عرفهن قبل ذلك .
فهو يفترضهن مثيرات للألم وحقاوات في آن . لثيمات وخطرات ،
سخيفات ومزعجات . وكان قد حدث له مع نساء من الطبقات المتوسطة
مغامرات سريعة مردها شهرته وطبعه المرح وقوامه الرياضي الانيق
ووجهه الاسمر القسيم . وهو يفضل هذا النوع من النساء لانه يشعر
معهن بشيء من الحرية في القول والعمل هو المعتاد الاشياء غير المعقدة
التي يقوم بها سواء في مرسمه او في مبادله . وكان قد انطلق في الحياة
سعيًا وراء المجد لا وراء الحب لذا كان يشعر بنوع من التفككه عندما
يتلقى ثناءً او اعجاباً من السيدات المتحبيات . انما دون ان يعتمد الى
مغازلة واحدة منهن قط . ولم يكن يسمح لنفسه بالمزاح غير المؤدب
معهن او القاء الكلمات ذات المغذى ، لذا حمل عنهن فكرة السماجة
والجمود . فكلما جاءته احدهن ليرضمها شعر حياها بهذا الفارق الذي
يميز الجنسيتين بالرغم من انه لم يكن يعدم وسيلة للتجيب اليها . فورا
الابتسامات وكلمات الاعجاب المفتعلة كان يشعر دائماً شعور الكائن
الاسمى . وقد تولد لديه نوع من الكبرياء والمعجب حتى ليظن به كبر

وخيلاء . ومما زاد هذا الشعور في نفسه انه كان يعامل من الامراء والاميرات معاملة الند للند ، فهو قوي الادراك لما اسبغه عليه ذكاؤه من مركز ناله سواء وراثته دون ان يكون لهم يد في ذلك . كانوا يقولون عنه بشيء من الاستغراب : انه رجل عظيم التهذيب . ان مثل هذه الملاحظة كانت تهزه وتذكره بالحدود التي التزمها . ان هذا الوقار وهذا التحفظ كانا يضايقان مدام غيروا التي لم تكن لتجد ما تقوله لهذا الرجل ذي البرود والاعتداد .

بعد ان اجلست ابنتها جاءت وجلست فوق مقعد بالقرب من اللوحة التي بدأها بمجتهدة ان تعطي هيئتها بعض التعبير كما كان يوعز اليها الفنان .

وحوالي الجلسة الرابعة توقف برثنان عن الرسم فجأة وسالها :

— ما الذي يعجبك في الحياة فوق كل شيء ؟

فاجابته وقد شعرت بارتباك امام سؤاله : -

— لست ادري ! ولكن لم هذا السؤال ؟

— اني ابحت عن فكرة سعيدة اضعها في هاتين العينين .

ولما اجدها حتى الآن

— حسناً حاول ان تجعلني انكلم فانا احب الثثرة كثيراً .

— انك مرحة .

— مرحلة جداً

— فلنثرثرياسيدتي .

قالها بلهجة كثيرة الجد ، ثم عاود الرسم وهو يجاذبها اطراف
بعض الاحاديث باحثاً عن نقطة يلتقي فيها فكرهما . بدءاً بتبادل الرأي
بعض الاشخاص الذين يعرفانها ثم راحا يتحدثان عن نفسيهما وهذا
الحديث المستحب بين كل الاحاديث .

وفي اليوم الثاني شعرا انهما اكثر انسجاما وقد وجد برتان
نفسه مرحاً مسروراً فراح يتطرق الى دقائق كثيرة من حياته كفنان
وقد اطلق العنان لذكرياته اذ وجد استجابة من جليسته .

وقد صدمتها هذه اللهجة الصادقة التي تسمي الاشياء باسمائها
هي التي اعتادت لهجة الصالونات المهذبة الملتوية غير انها لم تشعر بنفسها
الاتمساق مع هذا السيل الجذاب الجري .

لم تمض ثمانية ايام الا وقد قهرته ، استحوزت عليه واغرته بروحها
المرحة وصدقها وبساطتها . وكانت قد انسته حكمه على نساء المجتمع وقد
اخذ يؤكّد ان لمن وحدهن سحرًا وجاذبا لا يقاومان . وبينما كان
يرسم امام لوحته يتقدم ويتقهقر بحركات رجل يناضل ، كان يترك
لافكاره الخاصة العنان كما لو كان قد عرف منذ زمن طويل هذه
السيدة الشقراء ذات الثوب الاسود ، كأنها مصنوعة من عسل وحزن ،

الجالسة امامه نضحك وهي تصفى اليه وتجيبة مرحة بشي كثير
من الحيوية حتى لتفقد في كل لحظة الوضع المفروض للرسم .
كان يقترب منها تارة ويبتعد اخرى ، بغض عينا ويفتح الثانية
ليستكشف كل خلجات وجهها وتعايره العابرة ، ليلتقط كل ما في
وجه المرأة الجميلة عدا الظواهر الخلابية ، هذه المعاني المثالية للجمال ،
هذا اللألأ الباهر الذي لا يحيط به علم ، هذا السحر الخاص بكل امرأة
لا تبشركها فيه سواها ، السحر الذي يجعل المرء يهيم بها دون غيرها .
في احد الاصائل جاءت البنية واستوت امام اللوحة يكسو
وجهها جدما اكثر ما ينم عنه وجه الطفل وسالت :

— قل اهذه هي امي ؟

فاخذها بين ذراعيه ليقبلها وقد هزه ادراكها للوحة كدليل
على اتقانه عمله . وفي يوم آخر وكانت تبدو شديدة الهدوء صاحت
فجأة بصوت ضعيف حزين :
= امي . اني ضجرة .

وقد تأثر الرسام بهذه الشكوى حتى انه في اليوم الثاني جاءها
بمعد هائل من اللعب كاد الرسم يغص بها . فكانت دهشة آتت
الصغيرة عظيمة وسرورها اعظم وراحت تنظم الالعاب بعناية كبرى
لتعاود اخذها الواحدة تلو الاخرى حسب رغبتها الموقنة . منذ هذه

اللحظة احبت الرسام كما يحب الاطفال ، ذلك الحب الحيواني الذي
يحملهم وافري اللطف عظيمي النعومة .

كانت السيدة غيروا تستعذب هذه الجلسات . فهي كثيرة
الفراغ هذا الشتاء ذلك انها في حدادها لا تستطيع ارتياد الحفلات
والمجتمع لذا تراها تدفن في هذا الرسم كل رغبات يومها وهموم حياتها .
انها ابنة تاجر باريسي وافر الغنى ، مضيف وقد قضى منذ عدة
سنوات وابنة سيدة عليلة تمضي سنة اشهر كل سنة في السرير : نتيجة
للعناية الشديدة التي تحاط بها . وهكذا اضحت آني وهي بعد رطبة
العود سيدة بيت حقيقية ، تعلمت كيف تستقبل وتبتسم وتحدث وتميز
الناس وتجيد اختيار اسلوب مخاطبة كل منهم فهي في الحياة بصيرة
مرنه لبقه .

وعند ما قدموا لها الكونت دي غيروا خطيباً ادر كت فوراً
المغانم التي يجرها مثل هذا الزواج لذا لم تبد اي ممانعة فهي فتاة عاقلة
تعلم جيداً ان ليس للمرء ان ينال كل ما يشتهي وان عليه ان يوازن
بين الصالح والطالح في كل الاور .

هكذا انطلقت الى الحياة فاضحت قبله الجميع لما تحلت به من وسامة
ومرح . ووجدت نفسها محاطة برجال يغازلونها غير انها لم تفقد قط
قلبا الذي لم يكن ليقل عن عقلها رزانة واعتدالا . . .

كانت ذات دل غير ان ذلك لم يكن ليذهب بها بعيداً . ان
الثناء لما يدخل السرور الى قواها فهو يهدد رغباتها المكبوتة غير
انها تنظاها بدم ادراك شئ من ذلك فهي تنام ملي جفنيها بعدسرة
تقضيها في صالون يحيطها فيه اعجاب الرجال ويطاردها ثنائهم ، انها
تسهر كأنما قد قامت بواجبها وادت رسالتها فوق الارض .

ان اسلوب العيش هذا قد دام سبع سنوات دون ان تشعر
بانزعاج ودون ان تجد حياتها رتيبة ذلك انها تعبد هذا التموج الموزون
في الحياة الاجتماعية الصاخبة بيد انها لم تكن لتعدم ساعات تنمى فيها
شئناً جديداً . ان الرجال الذين يشكلون محيطها هم مزيج من المحامين
ورجال السياسة والممولين ورجال النوادي الفارغي الاعمال . كانوا يجلبون
لها التسلية كما يفعل الممثلون ولم تكن لتتنظر اليهم نظرة كبيرة الجدمع
انها كانت تكن احتراماً لمرا كزهم ووظائفهم والقابهم .

كان يعجبها الرسام بما وجدت لديه من جديد الطباع . فهي
تجد ملوى عظيمة في رسمه فتضحك بكل قواها وقد ادرك هو ما
كانت تجده من متعة في تلك الجلسات .

كان يعجبها ايضاً لجماله وقوته وشهرته ، فهما كانت المرأة
معتدة بنفسها فلا بد لها من ان تنجذب بالجمال والمجد . وقد اطر بها
ان تلفت انظار هذا الفنان المتذوق الجمال وبدورها راحت تهني

لاكتشاف نفسيته التي وجدتها نيرة ومثقة اصف الى ذلك رقة
حاشيته ودعابته ، انها جواذب حقيقة لدى رجل زكي محكم القول
يخرج الكلام واضحاً والفكرة نيرة .

ان هذا التجاذب قد ولد سريعاً بينهما حتى لكان المصافحة التي
يتبادلانها لدى حضورها كل يوم كانت تعمل على مزج قلوبهما مزجاً يزداد
يوماً فيوماً . حينئذ ، ودون اي تفكير او اي حساب للمستقبل ، شعرت
بميل جارف لاغواء هذا الرجل فاستسلمت الى فكرتها هذه استسلاماً
كلياً . . . لم تدكلف امرأ ولم تظهر ما لا نبطن وكل ما في
الامر انها تركت غنجها الجذاب يفعل كغريزة انثى امام رجل يعجبها
دون سواء فكانت تضع كل قوة انوثتها في نظراتها واساليبها في
مخاطبته والتحدث اليه والابتسام له ، وهذا الاغواء الذي تنثره
حولها الانثى التي تحس استيقاظ غريزتها كي تكون محبوبة . كانت
تقول له قولاً مثيراً معناه : اني معجبة بك كل الاعجاب يا سيدي
وكانت تتركه يتكلم طويلاً لتظهر له ، باصغائها اليه ، كم كانت تستعذب
قوله . فكان ينقطع عن الرسم ويجلس ازاها وفي ثوراته النفسية تلك
التي تتولد من رغبة اثاره الاعجاب كان يروح يثرثر متفلسفاً او شاعراً
او مهرفاً تبعاً للظروف . كم كانت تسر اذ تجسده مرحاً ، كم كانت
تجتهد في اللحاق به عند ما يروح يسبر الاعماق بفكره الثاقب غير انها

لم تكن لتقوى على مماشاته دائماً بينما تروح تنظاها بفهم افكاره وادراك
ما يرمي اليه ملتذذ بان تشعر به يراقب شدة انتباهها لما يذهب اليه من
القول متأثراً بما يجد لديها من عقل مثقف نير وطيع تسقط فيه
الفكرة كما البذرة في الارض .

كانت اللوحة تتقدم وتبدو متقنة . وقد بلغ الرسام بها تلك
اللحظة التي يحتاج فيها الى استكشاف كل الفتنة الكامنة في صاحبها
ليستطيع التعبير عنها بتلك القوة المتقنة التي تعلن عن موهبة الفنان
أحقيقي .

كان منحنيها فوقها ، يراقب كل خلجة من خلجات وجهها ،
وكل تضرع يمتري خدها ، وكل ظل يطوف ببشرتها وكل تعبير
تعبّر عنه عينها عن اسرار طاعتها ، كانت روحه قد اشبعت منها كما تشبع
اسفنجة غمست في الماء فراح ينقل الى اللوحة هذه الانعكاسات التي
استطاع التقاطها والتي راحت تسيل كما الموجة من فكره الى ريشته
بينما راح في اسفراقه حاملة مسكري كانه قد عب من سحر المرأة
حتى انتشي .

وشمرت به يسكر بعطرها النافح ملتذذا بهذه اللعبة ، بهذا
النصر الذي غدا داني القطوف والذي كان يثيرها هي الاخرى . ان
شيئاً جديداً قد دخل حياتها فاعطاها طعماً جديداً موقظاً فيها نشوة

سحرية بعيدة القرار . فاذا سمعت الآخرين يتحدثون عنه احست قلبها
سرع الوجيب وشعرت برغبة لم تكن لتجاوز شفقتها بان تقول :
(انه يحبني) . كانت تسر اذا امتدح الناس مواهبه وتسرا اكثر اذا
اثنوا على جماله . واذا ما حامت به وهي وحيدة لا تحشى تعكير حلمها
تخيلائه صديقها الطيب الذي يقنع دائماً بضغطة مخصصة من يدها . . .

اما هو فكان كثيراً ما يقطع جلسة التصوير ويلقي الريشة على
المحمل ويأخذ آنيث الصغيرة بين ذراعيه يحنو عليها ويقبلها في عينيها وشعرها
وهو يرنو الى امها كأنه يقول لها : « هذه القبل لك وليست للصغيرة ! »
ولم تكن مدام غيروا تصحب فتاتها دائماً الى الرسم فهي تحضر
بفردهما من وقت لآخر وفي مثل هذه الايام لم يكن العمل ليتقدم ابداً
فيها يقطعان الوقت بالثرثرة .

وتأخرت ذات اصيل . كان البرد شديداً . فنحن في اواخر
شباط . وكان اوليفيه قد عاد مبكراً كفعله في كل مرة يترقب قدومها
املا في ان تأتي قبل الموعد . كان يقطع الرسم ذاهبا غاديا يدخل لفافته .
والقى على نفسه هذا السؤال للمرة المئة . منذ ثمانية ايام : الست عاشقا؟
ليس يدري . وربما لم يكن قد اصبحت حتى تلك الساعة عاشقا ولكن
كيف يفسر هذا الشعور الذي يداعبه . انه لا يعتبره حبا . الا انسه
اليوم يستغرب هذه الخلجات . . .

او تحبه هي؟ وطبعاً لم يكن ليعمل نفسه كثيراً بهذا السراب
الغلب! أمّا ان تصبح له فذلك يبدو مستحيلاً. فما ان تمجبه امرأة
حتى تحتاجه الرغبة فيمد ذراعيه نحوها كما نحو ثمرة بود اجتناءها
ولكن دون ان تضطرب افكاره لبعدها او يستطار لقربها. أمّا هذه
المرأة فالامر مختلف فما ان لامسته الرغبة فيها حتى شعر بها تتمكن
من قلبه مخبئة وراء عواطفه التي لم تكن قد تبلورت بعد.

كان او لفيه يعتقد ان الحب يبدأ بالاسترسال وراء الاحلام
والنخيلات الشعرية. أمّا ما يحسه الآن فعلى العكس، يبدو منبثقاً
من اهتزازات لا يستطيع عنها تعبيراً، جسدية وروحية في آن. كان
متوتر الاعصاب، مرهف الحس، مضطرباً، كما يكون المرء عندما
يشعر ان مرضاً يجتاح كيانه. لا شيء يؤلمه بيد ان الحمى تمشي في
عروقه فتتعدى الى تفكيره فتثيره فيغدو محموم بالعدوى. وهو لا يحفل
ان مدام غيرو هي مبعث هذا الداء. يعرف ذلك مما تتركه من ذكريات،
ومن انتظاره لها عندما تدنو ساعة حضورها. فهو لا يشعر نحوها
باندفاع كلي انما يحسها هي مقيمة في اعماقه كأنها لم تفارقه قط فهي
اذ تغادره تترك شيئاً من نفسها له، شيئاً لطيفاً لا يستطيع له وصفاً.
ماذا؟ أهذا هو الحب؟

انه الآن يسبر اغوار قلبه ليستكنه خفاياه. انه يستألفها بالرغم

من انها لا تنطبق تماماً على الفكرة التي كونها لنفسه عن المرأة التي
يبحث عنها . وبالرغم من ان مدام غيروا تعجبه جداً الا انها لا تتمتع
بالصفات المنشودة .

ولكن لم تشغل من تفكيره كل هذا الحيز ؟ لم يهتم بها
اهتماماً اكبر مما يفعل حيال غيرها من النساء . ايكون قد سقط فقط
في احبولة نصبها غنجها وانوثتها الطاغية ؟ هو الذي طالما عرف هذا
النوع من النساء ذوات الميول العابرة ! ايعود للسقوط في مثل هذه
الشباك التي تنصبها نساء لام لمن الا الاغواء والاغراء ...

كان يسير ثم يجلس ثم يعود الى السير يشغل لفافة ثم يلقي بها
فجأة وانظاره عالقة في عقربي الساعة اللذين يسيران الى الساعة الموعدة
يبطء وتراخ

وقد خطر له ان ينتزع زجاجة هذه الساعة ويدفع بالعقربين
الذهبيين الدائرين بطرف اصابعه الى الرقم المنشود الذي يجدان نحوه
بكسل شديد .

وخيل اليه ان مثل هذا العمل كفيل بان يفتح الباب ويراها
داحلة وقد خدعتها حيلته ثم يروح يتسم من هذه الرغبة الصبيانية
البعيدة التصديق .

والقى على نفسه هذا السؤال : ايمكن ان اصبح عشيقها ؟ بدت

له هذه الفكرة خرقاء غير قابلة للتحقيق فلا يمكن مجاراتها اذ انها
قيمة بان تجلب لحياته المتاعب والمشاكل غير ان هذه المرأة تعجبه
كثيراً ! واستخلص قائلاً : « لا ريب في ان موقفي حرج غريب »
وازفت الساعة . وجعله رنينها ينتفض واخذت اعصابه تتوتر وروحه

تضطرب . كان ينتظره بصبر فارغ يزيده التأخر لحظة اثر لحظة ..

انها لم تخلف مواعده قط . ولا بد ان تظهر خلال عشر دقائق
فيراها داخله عليه وما ان مضت الدقائق العشر حتى وجد نفسه بالغ
الاضطراب كانه بانتظار حلول مصاب . الا يمكن ان تعتمد اضاءة بعض
وقته ؟ وخلص الى التفكير في انها ان لم تأت فسيتم بالغ الالم . ما الذي
هو فاعله ؟ سينتظرها ! - كلاً . لا بل سيخرج حتى اذا جاءت متأخرة
وجدت المرسم خالياً . ولكن متى يتوجب عليه مغادرة المرسم ؟ و كم
من الوقت يجب ان يعطيها عليها تحضر ؟ او لا يجدر به ان يبقى حتى اذا
جاءت افهمها بكلمات مبهمة بارده انه ليس من ذلك النفر الذي تخلف
معه المواعيد . وان لم تأت ؟ لا بد ان ترسل اليه برقية او بطاقة او خادما
يقدم الاعتذار . واذا وقع ذلك فما تراه فاعلاً ؟

لا ريب في انه يكون قد اضاع يوماً من حياته فهو لن يقوى
على العمل بعد ذلك ..

وحينئذ ! حينئذ لا بد له من الذهاب اليها مستفسراً ...

لأنه يشعر رغبة في رؤيتها. هذا صحيح . انه يود رؤيتها وهذه الرغبة عميقة الغور في نفسه ، ماحة ، تكاد تحطم اعصابه . ما هذا ! اهو الحب ولكنه لا يشعر انتفاضاً في عقله ولا هياجاً في عروقه ولا اندفاعاً مع الخيال في فكره الاً انه قد خلس الى الشعور بانه ان لم تأت هذا اليوم فسينالم كثيراً . وقرع الجرس في مدخل مسكنه . وشعر او ليفيه برتآن بانتفاضة مفاجئة ثم طغى عليه سرور غريب فالقى لفافته بمركة بهلوانية

ودخلت . كانت بمفردها . وبدرت منه جرأه متناهية فجأة :

— أدرين عن اي شيء كنت اسائل نفسي وانا انتظرك !

— كلا لا ادري .

— كنت اسأل : أأنا قد احببتك !

— احببتني ! ؟ اراك تفقد ادراكك

واتبعت ذاك بابتسامة . وقالت له ابتسامتها : هذا لطيف منك

وانا به عظيمة السرور » وتابعت :

— لا اخالك جاداً . ما الذي يدعوك الى مثل هذا المزاح !

اجاب — اني جاد كل الجد . فانا لا اؤكد لك اني احبك

وانما اسأل اذا لم اكن اوشك ان احبك .

— ما الذي يحدوك الى مثل هذا التفكير ؟

— اضطر ابي عند ما لا تكونين معي، وسعادتي لدى حضورك
وجالست : — لا تهتم لمثل هذه التوافه . فما دمت تنام جيداً
وتأكل بشهية فليس ثمة خطر ! وضحك قائلاً :

— واذا دهمني الارق وجفتني الشهية !

— أخطرني !

— وبعد ؟

أتركك تشفى بسلام .

— شكراً لك !

وعلى موضوع هذا الحب قضيا بعد الظهر كله في تفككة
وترويح وهكذا في الايام التالية وقد نقبلا ذلك كأنه مزاح لا اهمية له .
وسألته بلهجة جدية عندما دخلت :

— كيف حال حبك اليوم ؟

فكان يصف بلهجة جدية ناعمة كل تطورات مرضه ، وكل
شيء عن عمل هذا الحب في نفسه وافكاره الخاصة ، هذا الحب الآخذ
بالاشتداد يوماً فيوماً .

فكان يحلل نفسيته بدقة امامها ، ساعه فساعة ، منذ فراقها مساء
اليوم السابق . كان يقول ذلك بطريقة استاذ يلقي محاضرة تحليلية .
وكانت هي تصغي اليه بالغة الاهتمام قليلة الاضطراب شديدة التأثر

بهذه القصة التي يخيّل إليها أنها تقرأها في كتاب هي بطلته . وبعد أن عددها
بأهجة مهذبة مراحل الاضطراب النفسي الذي غدا فريسة له راح
صوته يتهدج وهو يعبر لها عن خلجات قلبه وزعجات نفسه . وكانت
تسائله دائماً مندفعه بحب الاستطلاع وقد ثبتت عليه عينها ، واذنها
متعطشة لسماع هذه الاشياء التي لا تثير اضطراباً لدى الاصغاء اليها
غير أنها بالغة العذوبة جميلة الوقع .

وكان أحياناً عندما يدنو منها لاصلاح وضعها يأخذ يدها
ويحاول تقبيلها فكانت تجذبها منه وقد قطبت حاجبيها وتقول :
— هيئاً الى العمل .

ويعود الى العمل ولكن ما ان تمضي دقائق خمس حتى تلقي
عليه سؤالاً يجعله الى معاودة الحديث في الموضوع الوحيد
الذي يشغلها .

وبدأت تحس خوفاً مبهماً يولد في قلبها . أنها ترغب في ان
تكون محبوبة ولكن الى حد . كانت واثقة من أنها لن تجاريه في
اندفاعه ومن هنا تولدت خشيتها في ان يندفع بعيداً فتضيعه اذ أنها
ستجبر على تحطيم آماله بعد ان تكون قد شجعتة وان هي تنكرت
لهذه الصداقة منذ الآن ، لهذا السمر المستحب المشتهى الذي يسيل
كأجدول بين حصي ذهبية ، فلا ريب في أنها ستشعر بحزن عميق

والم بالغ كأنه تمزيق الاعضاء .

فهي عندما تغادر بيتها لتذهب الى المرسوم كانت تحس سروراً
قوياً حاراً يغمرها فيحيلها خفيفة وسعيدة . وما ان تضع اصبعها على
جرس مسكن اوليفيه حتى تشعر بفراغ صبرها والبساط الذي يغطي
السلم كان انعم ما وطئته قدماها .

اما برتان فقد غدا في المدة الاخيرة قائم التفكير ، نائر
الاعصاب ، مرهف الحس اكثر الاحيان — وكثيراً ما كان يشعر
بفراغ صبر يجتهد في كتمانها واخفائه .

وذات يوم ، لدى حضورها ، جلس بالقرب منها بدلاً من ان
يشرع بالرسم وقال لها :

— لا يمكن لك ياسيدي ان تتجاهلي الآن ما صرت اليه .
اني احبك بحنون .

وصعقت امام لهجته الجدية القوية واحست بعاصفة عانية
نوشك ان تهب فحاولت ايقافها غير انه لم يعرها اذنا صاغية . كان
النائر قد طغى على قلبه وفاض فكان عليها ان تصغي اليه شاحبة مرتجفة
الاورصال قافة . اما هو فراح يتكلم بلا انقطاع ودون ان يطلب شيئاً
معيناً ، وكانت لهجته مشبعة بالحنو والحزن والتصميم التعس وتركته
بأخذ يديها بين يديه طوال الوقت . كان امامها وعلى ركبتيه ودون

ان تنبّه هي لذلك وبمنظرة هائلة كان يضرع اليها الا تسيء اليه . اية
اساءة لم تكن لنفهم ولا تحاول ان تفهم غير ان حزنا فتناكا استغرقها
وهي تراه بتألم وهذا الحزن كان يلتقي طرفه بطرف السعادة .
ورأت فجأة الدموع في عينيه فبلغ من تأثرها ان افلنت من بين
شفقتها تنهدة حارة . كانت مستعدة لعناقه كما بعانق المرء طفلاً يبكي . وكان
يردد بصوت لطيف حزين : هانذا انا لم كثيراً .. وراحت فجأة
بعدوى من الامه ودموعه تشبه باكية وقد توترت اعصابها
واضطرب ذراعاها حتى اوشكا ان يمتد اليه ويحتويه .

وشعرت فجأة انها انسافت بتياره عندما ضمها اليه وصهر
شفقتها بقبلة محبوبة . حاولت ان تصرخ ، ان تقاوم ، ان تدفعه ، غير انها
ادركت انه ليس ثمة فائدة ترتجى لقد اصاعت نفسها بيد انها لم تفقد
كل مقاومة فاستسلمت اليه في شيء من المقاومة فكانت تشد به الى
صدرها وهي تقول : « لا .. لا .. لا اريد .. لا اريد .. »

واقامت فترة مضغضة الحواس ، وقد غطت براحتها وجهها
ثم نهضت فجأة والتقطت قبعتها التي كانت قد سقطت فوق البساط
وفرت مسرعة رغم رجاء اوليفيه الحار وتعلقه بطرف ثوبها .

ما ان وجدت نفسها في الشارع حتى شعرت بميل الى الاستلقاء
فوق اول رصيف فهي تشعر جسمها محطماً وساقها لا تقويان على

حملها .. وصرت بها مركبة فاستوقفتها وصعدت وامرت السائق ان يسير بها متمهلا حيثما يريد .. والقت بنفسها في العربة واحكمت اغلاق الابواب وقبعت في الزاوية وقد دهمها شعور بالوحدة . انها وحيدة وحيدة وراء هذا الزجاج المرفوع .. وحيدة مع افكارها فقط . ولم يكن في رأسها خلال الدقائق الاولى سوى دوي العجلات واهتزازات العربة كانت تحدد في المنازل والسابلة وراكبي العربات بنظرات فارغة كأنها لا ترى شيئا ولا تفكر بشيء كأنها كانت تستمهل افكارها وتعطيها فترة استجمام قبل ان تشرع باستعراض ما حدث لها .

ومن ثم هتفت بنفسها وقد نشط تفكيرها : هانذا امرأة مضیعة ! واستغرقها لفترة قصيرة هذا الشعور الصارم بالخطب الذي حل بها فلا يمكن اصلاحه . كانت كإنسان سقط من عل فاستكان دون حراك ظنا منه ان ساقیه قد تحطمتا ولن يستطيع لها تحريكاً .. ولكن بدلا من ان يدركها رعب من جراء هذا العذاب الالیم الذي تنتظر حلوله وتهلع للقاءه خرج قلبها من هذه الكارثة هادئا وادعا . كانت تضطرب اضطرابا هادئا بعد سقطتها تلك التي ابهظت ضميرها ولم تحاول ان تقاسم عقابها رعبه الذي اجتاحه بعنف ورعونة .

ورددت بصوت مسموع كأنها تود استيعاب كلماتها والاعتناع

بها : هانذا امرأة مضیعة ٠٠ » ولم ينبض عرق بها لصدى شكوى
ضميرها هذه . وتركت نفسها تنأرجح فترة مع اهتزاز العربة وقد
القت جانباً هذه الافكار التي تدور حول الموقف المريع . كلاًّ فهي
لا تتألم لما حدث ، وكل ما تستشعر هو الخوف ، الخوف من الادراك
والتفكير وعلى العكس فقد احست بما يولده لدينا الكفاح ضد ميولنا
ورغباتنا ، احست بسرور طاغ حيال ذلك .

وبعد نصف ساعة من هذه الراحة الغريبة ادركت ان الياض
الذي نشدته لن يأتي ابداً فتخلصت من فتورها وتمتت : انه لا امر
غريب ! لست حزينة !

ثم راحت تمكيل لنفسها اللوم ، وشعرت بغضب طاغ يهب في
في داخلها لقص نظرهما وضعفها . كيف لم تدرك مسبقاً هذه النتيجة ؟ ان
ساعة هذا الكفاح قد دقت ؟ وان هذا الرجل يشوقها لدرجة تكفي
للاسفاف بها امامه ؟ وان النفوس الاشد استقامة تهب فيها هذه الزوابع
التي تودي بالارادة ؟ وراحت تتساءل عما سيحدث بعد ان كالت لنفسها
اللوم والاحتقار جزافاً . واول مشروع فكرت به هو ان تقطع كل
علاقة مع الرسام وتمتنع عن رؤيته . وما ان اتخذت هذا القرار حتى
تصالحت عليها الافكار والحجج لضعده .

كيف تفسر هذا الضجيج ؟ ما الذي ستقوله لزوجها ؟ وهذه

الحقيقة ان تذاع وتهمس بها الشفاه حتى تصبح احدثوثة المجتمع
اولا يجدر بها ، لا تقاذ المظاهر على الاقل ، ان تلعب مع
اوليفيه الدور الذي بان تظاهرها بعدم الاكتراث والنسيان ، وبان تبدو
امامه وكأنها قد محت تلك اللحظة من ذاكرتها ومن حياتها ؟
او تستطيع الى ذلك سبيلاً ؟ او تكون لها القحة الكافية
لتظاهرها امامه انها نسيت كل شيء ؟ او تتوصل الى النظر اليه باستغراب
وتساؤل كأنها تقول دهشة : ما الذي تبتغيه مني ؟ أستطيع ذلك حيال
الرجل الذي قاسمته تلك الخلجة العابره العنيفة !

وفكرت طويلاً بيد انها لم تجد حلاً آخر ممكن التحقيق
ستذهب اليه اذا كان الغد ، بشجاعة ، وتفهمه حالاً ما الذي تريده وما
الذي تطلبه منه والذي تريده يختصر في ان عليه الا يشير الى ما حدث
بكلمة او بنظرة مما يذكرها بذلك الموقف المهيمن .
ولا ريب في انه سيتألم كثيراً الا انه كرجل مذهب مستقيم
لن يسمعه الا الاستجابة الى رغبتها فيبقى في المستقبل كما كان حتى
تلك الساعة .

وما ان خلصت الى هذا القرار حتى اعطت للسائق بعنوانها
وقصدت البيت فريسة لتأثر عميق وليل شديد للذهاب الى فراشها قبل
ان يقع نظرها على اى كان وان تنام وتنسى . وبعد ان اعتزلت في

غرفتها تمددت فوق مقعد وراحت تنتظر ساعة العشاء في استغراق
ابله متعمدة الاثرهق افكارها بالحادثة الخطيرة . وخرجت في الساعة العشاء
المعينة وقد دهشت لهدوئها فهي تنتظر زوجها بوجهها العادي دون
ان يعثورها اي اختلاج . ودخل زوجها يحتضن . ابنتها بين ذراعيه
فضغطت يده وعانقت البنية دون ان تحس اي ضيق .

وسألها السيد غير واما عملته . فاجابته بعدم اكتراث انها
جلست امام الرسام كفعلها كل مرة .

— والوحدة ؟ هي جميلة ؟

— انها موفقة جداً .

وبدوره راح يتحدث عن الاشياء التي يحب ان يتحدث عنها
اثناء تناول الوجبات : عن اجتماعات المجاس ومناقشاته حول مشروع
قانون تعديل الانتاج .

كانت هذه اثرة محتملة في الماضي اما الآن فهي تثيرها . انها
تنظر الى هذا الرجل السوقي الذي يهتم بمثل هذه الاشياء بابتسامة وهي
تصفي اليه وتجيبه بلطف بل بالطف مما اعتادت . كانت تفكر وهي
تنظر اليه : « لقد خنته ، وهو زوجي اليس ذلك غريباً ، لا شيء
يمكن ان يربل هذه الوصمة . لقد اطبقت عيني . لقد استسلمت خلال
لحظات قلائل لقبلات رجل فانا لم اعد امرأة وفية ! انها لحظات !

لحظات في حياتي لا يمكن ازالتهما. لقد ارتكبت خلال هذه اللحظات
ما لا يمكن اصلاحه ، انها جريمة ، بل احط جريمة بالنسبة لامرأة
شريفة ... ومع ذلك فلست اشعر يأساً . ولو قيل لي ذلك امس لما
استطعت تصديقه . ولو أكد لي وقوع مثل ذلك لاجتاحني ندامة
قيمة بتمزيقي ارباً . والآن .. لست اشعر بشيء من كل ذلك .
وخرج زوجها بعد العشاء كما اعتاد ان يفعل كل يوم تقريباً .
واخذت ابنتها فوق ركبتيها وراحت تقبلها وتبكي . بكت
بدموع صادقة ، دموع ضميرها لا دموع قلبها .

غير انها لم تنم تلك الليلة قط .

كانت مغمورة بظلام غرفتها . وقد ادر كها اضطراب عظيم
لما تنتظر من تصرف الرسام حيالها . وادر كها الخوف من الغد . من
لقائه واللقاء اليه بما تود قوله وجهاً لوجه . ونهضت مبكرة . ومكثت
معظم قبل الظهر متمددة فوق كرسيا الطويل مستعيدة كل ما
يمكن ان يحدث لها ، كل ما ستجيب به متخذة كل حيلة للرد على
كل مفاجأة .

وخرجت مبكرة ايضاً لتتيح لنفسها فرصة التفكير وهي سائرة .
لم يكن ينتظرها . بل كان يتساءل منذ مساء الامس كيف
سيكون نهجه حيالها في المستقبل .

فبعد ذهابها او بالاحرى هربها الذي لم يجزؤ على الحيلولة
دونه مكث وحيداً مصغياً الى وقع خطاها وحفيف ثوبها رغم كونها
قد ابتعدت والى صوت اغلاق الباب بيدها العنيفة وهي خارجة .

وبقي واقفاً بفعمه سرور جارف عنيف فوار . لقد تغلب عليها
هي ! لقد حدث ذلك بينهما ! أمممكن هذا ؟ كان الانتصار مفاجئاً
وها هو يتلذذ بطعمه وليناح له هذا التلذذ بشكل اعمق جلس بل استلقى
فوق الديوان الذي كان مسرح انتصاره .

واقام طويلاً تفعمه هذه الفكرة : انها الآن عشيقته ! لقد
اوثق ، في لحظة قصيرة ، بينه وبين المرأة التي طالما اشتهاها ، ذلك
الرباط السري الذي يشد مخلوقين شداً لا تنفصم له عرى . انه لا يزال
يحفظ في كل عرق من عروق جسده المرتجف بتلك الذكرى العنيفة
التي تركتها تلك اللحظة الحاطقة حيث التقت شفاهما واتحد جسداهما
لينعمان باعظم انتفاضة من انتفاضات الحياة !

ولم يخرج هذا المساء كي لا يفقد هذه الفكرة وذهب الى
فراشه مبكراً والسعادة تفعم نفسه اي افعام .

وما ان استيقظ في صبيحة اليوم التالي حتى القى على نفسه هذا السؤال
ما راني فاعلاً ؟ لو كانت صديقه غانية او ممثلة لارسل اليها ازهاراً او
حلية ، غير انه اقام محيراً امام تناقض موقفها ذاك .

لا رب في ان عليه ان يكتب . . ماذا ؟ وراح يسود
الصفحات ويشطب السطور ثم يمزق الاوراق ثم يعاود الكتابة . . .
عشرين رسالة . . . وجدها كلها جارحة سخيفة بغيضة .

كان بود ان يعبر لها باسلوب ناعم عن اعتراف روحه بجميلها
ويصور لها هيامه المجنون بها وبقدم لها اخلاصه ونفائيه ، الا انه لم
يجد سوى جملا ركيكة عادية ليعبر عن كل هذه الاشياء الحارة . .
جملا سخيفة ممجوجة خشنة صيدانية .

وانصرف عن فكرة الكتابة وقرر ان يذهب للقاءها عند ما
تمر ساعة حضورها الى الرسم لأنه لم يكن ليتصور انها ستأتي .
واعتكف في الرسم امام اللوحة التي تمثلها . كان بود لو يلمصق
شفتيه فوق الاصابع التي تمثل شيئاً من سحرها ، وكان بين العينة
والاخرى ، يطل بانظاره الى الشارع عبر النافذة .

وكما لمح ثوب امرأة من بعيد يعلا وجيب فؤاده . عشرين
مرة خيل اليه انه يراها تخطر قادمة ولا يدرك خطأه الا بعد ان
تفوته المرأة القادمة فيعود الى جلسته لحظة محطم الاعصاب بعد اخفاقه .
ولحها فجأة ، فتشكك ، واخذ منظاره فاستوثق ، واحس
تأثراً عميقاً يستبد به ، وجلس ينتظرها .

ولما ولجت الرسم القى بنفسه الى ركبتيها وحاول اخذ يديها ،

فانزعتهما منه بعنف ، فاقام تحت قدميها رافعا اليها عينييه . قالت له بترفع :

— ما ذا أراك فاعلا يا سيدي . انا لا افهم لتصرفك معنى ؟

فتتم : آه .. يا سيدي .. اني ارجوك ...

فقاطعه بعنف :

— انهض . فانت مضحك هكذا .

ونهض فزعا وتتم :

— ما ذا دهاك ؟ ولم تعامليني هكذا وانا اهوأك ؟

وبكلمات قلائل جافة ، افهمته حينئذ ارادتها ، واعادت الامور

الى نصابها :

— لست افهم ما تريد قوله ! لا تحدثني ابداً عن حبك . وان

فعلت غادرت هذا الرسم فلا اعود اليه ابداً . فادا نسيت هذا الشرط

مرة واحدة امامي فلن تقع علي منك عين قط

كان ينظر اليها مستطار اللب لهذه القسوة غير المنتظرة . واخيراً

فهم . واجاب :

— حسنا ساصدع بالامر يا سيدي .

فاجابت :

— حسنا جداً . هذا ما انتظرته منك . والآن الى العمل .

فقد طال بك الوقت للفرار من هذه اللوحة .

واخذ ريشته وشرع يرسم بيد من تجفة وقد علت عينيه غشاوة
 فلا تريان . كان يميل الى البكاء لأن قلبه قد تحطم وانسحق .
 وحاول ان يخاطبها فكانت تجيبه باقتضاب . ولما حاول ان
 يمدح زينا اجابته بلهجة صارمة شعر معها ان الحب يوشك ان ينقلب
 كراهية وبغضا . وحدث في روحه وجسده معا انقلاب عصبي غريب
 انه يكرهها . اجل . انها امرأة ! امرأة كغيرها من النساء . هي
 الاخرى . ولم لا ؟ انها متقلبة ، مخطئة وضعيفة ككل بنات جنسها
 لقد حاولت اجتذابه واغراءه باساليب فتاة صغيرة ثم بعد ان شغفته
 حبا رفضت ان تقدم له اي شيء لا جئة الى احط اساليب الغواني
 الرخيصات المستعدات دائما للمخلص من ثيابهن قبل ان يصبح الرجل
 الذي يغوينه ككلب الشارع يجري لا هثا خلفهن . تعسا لها . لقد
 نالها ، لقد امتسكها ! فلتقل ما بدا لها . لتجبه بابة لهجة نشاء فلان
 تستطيع نحو شيء مما حدث اما هو فمن السهل ان ينساها .
 لا ريب في انه احسن صنعا بتخلصه من مثل هذه المشيقة
 التي لو استمرت علاقتها لسحقت حياته الفنية ولمزقتها بمخالبها الجميلة .
 وادركته رغبة في ان يصفر حياها كما يفعل تماما (النماذج) التي
 تقف امامه غير ان توتر اعصابه ، وخوفه من ان يرتكب حماقة ما ،
 جعله يعمد الى اختصار الجلسة مدعيا ان ثمة موعداً هاما ينتظره .

وعند ما تبادلوا التحية ساعة فراقها شعرا انهما لم يكونا متباعدين يوم
التقيا للمرة الاولى اكثر منهما الآن .

وما ان ذهبت حتى اخذ قبعتها ومظفه وخرج . كانت شمس
باردة تمسكبد سماء شاحبة الزرقة ماطخة بالضباب ، تلقي على المدينة
نورها الشاحب الحزين ...

ما ان سار بعض الوقت بخطي سريعة مترددة مستضما بالسابلة
لثلا يحيد عن الخط المستقيم ، حتى بدأت غضبته منها تضعف وتحول الى
أسف وندم . وبعد ان تذكر كل اساءاتها اليه راح يقارن بينها وبين
النساء العابرات فيجدها اجملهن واكثرهن جاذبية واغراء . وكالكثيرين
في مثل حاله راح يهلل نفسه بقاء على غير ميعاد شاعر اذلك الشعور الطاغى
الفريد الشيق الذي يضيفه الخيال على قلوبنا . لم يكن عليه ان يحصل
على كل ذلك ؟ او لم يكن بمقدورها هي ان تقدم له كل هذه
السعادة ؟ لم لم يتحقق شيء من كل ذلك ؟ لم لا تتمكن من الحصول
على كل ما نبتغي ، او نحصل على جزء ضئيل لا يزيدنا الا تشوقاً
الى هذه الاماني العذبة المؤلمة !..

انه لا ينشد هذه المرأة بالذات . انما يبتغي الحياة من ورائها
والآن انه يفكر لم هو يريد لها وما الذي يبتغيه منها ؟ وبما يستطيع
ان يصمها به . ألا انها كانت لطيفة وناعمة معه ؟ اما هي فتستطيع ان

تنظر اليه نظرتها الى لص . وعاد والحزن يكاد يزهق انفاسه . كان عليه ان يعتذر منها . ان يجعلها تنسى ان يعمل كل طاقته ليكون لها ، فيما بعد ، طيعاً منجياً امام ارادتها .

وجاءت في اليوم التالي تصحبها ابنتها . وقد علت شفقيها ابتسامة كئيبة كانت قبل ذلك لأمعة مشعه ، وبدا في عينيها الزرقاوين المسكينتين لمعان يحمل ندماً وانسحاقاً يمان عما يقاسيه قلب هذه المرأة لقد حر كته شفقة عليها وليحاول صرف ذهنها عن كل ماله مساس بما حدث راح يحيطها بعناية كبيرة في منتهى اللطف والايثار . كانت تجيبه بلطف ، وحسن طوية ، وبلهجة امرأة تعبئة محطمة بهظها الم عظيم .

اما هو فما ان ينظر اليها حتى تعاوده فكرته الجنونية في ان يحبها ويكون محبوباً منها . وكان يسأل نفسه كيف لم تغضب اكثر من ذلك . كيف استطاعت العودة اليه وسماع حديثه واجابته وتلك الذكري تجثم بينهما .

ان المرأة التي تكره رجلاً اغتصبها لا تستطيع مقابله دون ان ينفجر فيها حقدها الدفين وكرهه اللامعة . غير ان الرجل لا يستطيع ان يبقى جامداً حيال مثل هذه المرأة . فاماً ان تحقد عليه او ان تسامحه . فاذا هي ساحتها اصحت قريبة من ان تحبه .

كانت هذه الافكار تدور في رأسه وهو يتابع الرسم فيشعر
بنتيجتها انه اصبح سيد افكاره والمسير لها .

وخلص الى التفكير انه بشيء من الصبر والدراسة والحنكة
يتم وصل غداً او بعد غد الى استعادتها والقنعم بوارف حبها .

وقد عرف كيف ينتظر . ولم يعدم وسيلة بلجأ بها الى الاحتيال
كما فعلت هي فكان يحيطها بخنوه المخاص ويتظاهر امامها بالندامة لما
بدر منه وبغير ذلك من التصرفات التي تنم عن قلة اكتراث ..

كان مطمئناً الى النتيجة . الى السعادة المرتقبة آجلاً او عاجلاً .
ولم يعدم شعوراً باللذة غريباً اذ وجد نفسه قليل اللهفة ، مقيماً بالانتظار .
وكان يقول : انها خائفة ، اذ يراها قادمة دائماً مع ابنتها .

واحس ان التقارب بينهما يسير بشكل بطيء وان في نظراتها
شيئاً غريباً ، متناقضاً ، لطيفاً غير انه مؤلم ، لأن روحها في نضال
هائل وارادتها في اضطراع مرير وكانها تقول : لا احتمال مزيداً »

وبعد مدة من الزمن صارت تأتي بمفردها وقد وثقت من
حسن سيرته حياها . وحينئذ راح يعاملها كصديقة ورفيقة ، يحدثها
عن نفسه وعن مشاريعه وعن فنه كما يحدث اخاً له بذلك .

لقد اجتذبها بهذا الاهمال كحبيبة . وكذلك سرها ان
يجعل منها مشيرة له ، وان يميزها بذلك عن غيرها من النساء ،

واقنعت بان مواهبها قد جعلته يحمل عنها فكرة ارفع . غير انه لشدة
استشارته لها واخذه بأرائها جعلها تصبح بالنسبة اليه مع الزمن موحية
اكثر منها مشيرة .

وقد سرها جداً ان تبسط نفوذ افكارها على مثل هذا الرجل
العظيم ، واعتقدت انه يحب فيها الفئانة التي توحى اليه كثيراً من لوحاته
وذات مساء . بعد حديث عن عشيقات الفنانين تركته ياخذها
بين ذراعيه ودون ان تحاول فسكاً راحت تبادلته قبلاته .

لم تشعر حينذاك بندامة . الا انها ، ارضاء لعقلها وكبريائها
اقنعت نفسها ان ثمة قضاءً وقدرًا ليس لهما محيص عنهما .

لقد اجتذبتها اليه قلبه البكر وروحه التي كانت عاطلة ، وذلك
للدباب البطي* المستمر الذي اتاح له امتلاك جسدها ، كل ذلك جعلها
تتعلق به تعاقب امرأة طرية العود تحب حبها الاول .

اما هو فكان حبه ثورة عنيفة عاتية شعرية . فكان يخيّل اليه
احياناً انه يطير بها بين ذراعيه في سموات الحب البالغة الروعة محمولين
على خيال مجنح بديع ذلك الخيال الذي يطوف بأمالنا ويداعبها دون
اقطاع .

لقد انتهت صورة الكونتس . فجاءت ولا ريب خير ما ابدعته
ريشته ، ذلك انه استطاع ان يضع فيها هذا الشي* الذي لا يدرك ،

ولا يمكن التعبير عنه ، الذي يصعب على الفنان كثيراً إبرازه على
الوجوه . هذا السر ، صورة الروح التي تطفو ، دون ان ندرك ،
فوق الوجوه .

ومرت الشهور ، وتلتها السنون ، فما زادت ذلك الرباط إلا
متانة ووثوقاً تلك الصلة التي ربطت الكونتس غيروا والفنان اوليفيه
برتان .

لم بعد لبرتان ذلك الشعور الذي كان لديه في الايام الخوالي .
فقد انقلب الى عاطفة هادئة عميقة ، الى نوع من صداقة يمازجها الهوى .
وقد اعتاد ذلك فلم يعد ينزع الى تغير شي فيه .

اما هي ، فكان تعلقها به عشقاً لا هوادة فيه ، عشق امرأة
تعطي لرجلها كل شي دفعة واحدة والى الابد . كانت مخلصه ووفية
في علاقاتها المجرمة تلك كما كانت في الزواج ، وانتهى بها ذلك الى
عاطفة فريدة لا يستطيع شي تحويلها عنها . لم تكن تحب عشيقها
فحسب ، انما كانت تريد ذلك الحب . وكانت عينها لا تفارقه قط
وهي على مثل اليقين من ان شيئاً آخر لن يقوي على تحويلها عنه .
لقد ربطا حياتهما بمحض اختيارهما كما يتماصك شخصان بالاكف
قبل ان يشا من عل الى الماء طلباً للموت وهما يجعلان السباحة .

بيد ان الكونتس ، منذ ان استسلمت الى برتان كانت تشعر

بالخاوف تهاجمها . اتراه يثبت على جنبها ؛ لا شيء يمسك به مخلصاً سوى ارادته كرجل ، واعتداه بنفسه ، فقد يشتهي امرأة يصادفها اشتهاً عابراً كما حدث له مع نساء عديدات اخريات . وكانت تجرده متحرراً سهل الانقياد ، غير معصوم عن السقوط هو الذي يعيش دون اية مسؤولية او واجب او عادة ملازمة كبقية الرجال . انه جميل ، ذائع الصيت ، مرغوب ، يجد في اية ساعة نحت تصرفه معظم نساء المجتمع اللواتي لا تردعهن حشمه ، وكذلك قل عن نساء الملاهي والفنانات اللواتي لا يحلمن بخير منه . ان اية منهن تستطيع في اي يوم ان ترافقه بعد العشاء ... ثم تحتفظ به لنفسها .

وهكذا عاشت في هلع من ان تفقده . مراقبة حركاته ، ونبراته ، تقلقها كلمة ، وتشقيها ملاحظة اعجاب يديها بامرأة اخرى وامتداح وجه لامرأة سواها او سحر طلعة تمر به . فكل ما تجهله من حياته يخيفها وكل ما تعرفه يحمل اليها القلق والاضطراب . ولدى كل لقاء كانت توجه اليه الاسئلة البريئة الظواهر لتطلع على ارائه بمن قابل من الناس او البيوت التي دعي لتناول الطعام فيها ، وتسجل تأثراته الطفيفة بكل ما يصادف في حياته . فما ان تشعر بان ثمة من يستحوذ على جزء من تفكيره حتى تروح تحارب هذا التأثير بشتى الطرق ومختلف الوسائل .

كانت تشعر أحياناً بهذه الدسائس القصيرة القربة الغور التي
 لا تستمر أكثر من أسبوعين والتي لا تخلو منها حياة فنان قط .
 كانت تستبق الشعور الى الاخطار قبل ان تحس بميل جديد
 يولد في نفس اوليفيه ويكون ذلك بما يبد وفي عيذه من برق عندما
 يحاول الاقدام على احدى المغامرات العاطفية العارية .
 وتروح تنالم . فهي لا تنام الا نوماً متقطعاً مليئاً باحلام
 الشك والريب . وتحاول ضبطه فتصل الى مسكنه في اوقات لا ينتظر
 قدومها فتلقي عليه اسئلة ظاهرها برى ، فتعجم قلبه ، عليها تدرك
 خلجاته كما يعجم المرء عضواً مصاباً ليدرك موطن الداء ...
 وما ان تخلو بنفسها حتى تشرع بالبكاء واثقة من انها ستعمره
 هذه المرة ، من انهم سيسرقون حبها الذي تنسبث به لانها هي التي
 اوجدته بكل ما فيه من حرارة ومن احلام .
 وما ان تشعر به يعود اليها بمد هذا الهجران القصير ، حتى
 تنظر اليه نظرتها الى شيء كان ضائعاً فوجد .. وقد افعم قلبها شعور
 فامر بالسعادة حتى يحدث لها في مثل هذه الحالات ان تدخل اول
 كنيسة تصادفها لتسجد وتشكر الله . وقد انصرفت الى الاهتمام بنفسها
 وباناقتها لتحوز اعجابه دون سائر النساء ، الامر الذي جعل من حياتها
 سلسلة من التائق المغناج والذل الفائق .

فقد كافحت من أجله ، ودفاعاً عنه ، وكان سلاحها دائماً : الجمال ،
والفطنة والانوثة والاناقة . أنها تريد كلها ، ان
يعمد المتحدثون الى امتداح فتنتها وأناقته وذوقها وذكائها فهي تريد
ان تروق في عين الغير من أجله . حتى اذا رآها محاطة بالمعجبين ارضت
كبرياءه واثارت غيرة . وفي كل مرة تشعر ان الغيرة بدأت تعذبه
كافأته بساعة من ساعات الحب ينسيه انتصاره فيها عذابه وشقاءه .
انها تعرف ان الرجل كثيراً ما تعترض سبيله امرأة فاتنة في
اي مكان او زمان فيروح مدفوعاً بسحر انوثتها الطاغية ، وبلذة الحديد ،
متدلها في حبها . وخشية وقوع شيء من هذا القبيل كانت تعتمد الى
اساليب اخرى : كانت تطريه وتدلله .

فهي بشكل مستمر تغمره بالثناء والمدح وتهدهده بالاعجاب
وتحيطه بخور عابق وهي انما تفعل ذلك لتحكم وثاقه اليها فقد يتاح
له في المجتمع امرأة تحبه ولكنه سيجد حبها فاتراً وانه ان وجد تلك التي
تغدق عليه حبها فلن يتاح له تلك التي تفهمه كما تفهمه هي .

لقد جعلت من صالونها حيث يدخل دائماً المصان الذي يرضي
كبرياءه كفنسان حتى كان في نظره افضل مكان يزوره في باريس ،
هو يفضلها لأن كل رغباته تجد ما يشبعها ويرضيها فهي لم تسكن فقط
نسمي الى استكناه كل اذواقه لتعمل على ارضائهم كي يشعر بالسعادة

لديها ، بل كانت تسعى لتخلق عنده اذواقاً جديدة ، محرّكة منهمه المادي
والعاطفي عما تحيط به من عناية ومن وجد لا هب بلغ حد العبادة .
انها تبذل قصارى جهدها لاغراء حاسة النظر فيه باناقاتها
وحاسة الشم بعطرها ، وحاسة السمع بغرورها وحاسة الذوق بما تقدم
له من ضروب المآكل .

غير انها وهي تعمل جاهدة على اثارة كل غرائز ذلك الرجل
العاذب بتلك الاساليب التي لا تناح لعشيقه اخرى ، كانت تجد انه
بدأ بتذمر من بيته الخاص ، ومن وحدته فهو لا يستطيع المجيء اليها
الا ضمن حدود يفرضها المجتمع ، فكان يسعى الى التخلص من وحدته
تلك في النادي او في مكان آخر ، وادر كها الخوف من ان يفكر
بالزواج كنتيجة لذلك الشعور بالوحدة .

وكثيراً ما كانت هذه الأفكار تعذبها فتتمنى ان تعجل به
الشيخوخة فتقتل كل هذه المخاوف لديها فتتاح لها الراحة من كل
هذه الاضطرابات الروحية التي تمن في ايلامها فتتمتع بالهدوء والسلام .
ومرت السنون على مثل هذه الحال . وكانت الساسلة التي تشد
احدهما الى الآخر متينة بل كانت هي تعمل دائماً على تمكين حلقاتها
كلما آنتت ضعفاً في احداها . غير ان الهدوء لم يعرف سبيله الى قلبها
فهي تحيط الرسام برقابة وعناية كما تحيط طفلاً يجتاز طريقاً غاصة

بالعربات . وكانت كل يوم تخشى حدوث شيء مجهول يهدد كيسان
حبها وتشعر به حاضراً فوق رأسها في كل لحظة من لحظات النهار .
أما زوجها المكونت فلم يكن ليخالجه أي شك في سلوك
زوجته ، فهو لا يعرف الغيرة بل يرى مثل هذه العلاقة بين زوجته
والرسام الكبير طبيعية جداً ، فليس يته المكان الوحيد الذي يتلقى
بحفاوة هذا الرجل الشهير ، ولشدة ما التقى الرجلان انتهى بانربطتهما
صداقة بل نوع من الحب ...



عندما ذهب برتآن يوم الجمعة مساءً ، لدى صديقته ، بناء على دعوتها للاحتفال بقدوم ابنها انتوانيت دي غيروا ، لم يكن قد حضر سوى السيد ميزادبو الذي كان جالسا منذ لحظات في الصالون نموذج لويس الخامس عشر .

انه كهل ذكي ، كان يمكن ان يصبح رجلا ذا خطر وهو لا يريد ان يتعزى ابداً لما اضاع من فرص ثمينة في حياة .

كان يعمل حافظا للمتاحف الامبراطورية ثم استطاع ان يعين مفتشا للفنون الجميلة في عهد الجمهورية الامر الذي لم يحل دون توثق الصداقة بينه وبين كل امير واميرة او دوق ودوقة من الارستقراطيين الاوربيين ، وكان فضلا عن ذلك يمد نفسه الحامي المحلف لكل فنان من اي نوع .

كانت موهبته المكبرى الذكاء وسهولة التعبير عن كل شيء فيخرج الفكرة بشكل جميل مهما كانت تأهية حقيرة ، الامر الذي جعله مرغوبا في جميع المجتمعات . وكان له حاسة رجل السياسة الذي

يستطيع الحكم على الناس للنظرة الاولى .

فكان شغله الوحيد ان يتنقل بنشاطه الزير ، الثرثار ، غير المجدي
من صالون الى صالون ليلة ونهاره ..

كان اهلا للتحدث في كل موضوع واعطاء الاحكام على كل
حادث ، وهذه الصفة جعلته محبوبا في الاوساط النسائية خاصة . فهو
في الواقع يعرف كثيراً من الاشياء بالرغم من ان مطالعته لم تتجاوز
الكاتب المقررة لعملة . وكان صديقا حميما لاجزاء (الاكاديميات)
الجنس ، مقربا من جميع العلماء والكتاب والفنانين الذين كانوا يصغون
اليه دائما بارتياح . وهو لم يكن ليهم بالتفصيلات الفنية فلا يتكبد
اتقان حفظها الا انه يستطيع ان يعبر عما يريد بسهولة يبعدها دائما
عن التفاصيل المعقدة التي لا تهم الا العالم المختص .

فاذا ما سمعته يتحدث خلت نفسك امام مستودع الافكار ،
امام احد هذه المخازن التي لا تجد فيها شيئا نادرا غير أنها لا تنفجر الى
اي نوع من انواع الخطام العادي .. وكل ما فيها رخيص سهل المنال ..
وكانت الرسامين علاقة مباشرة به بحكم وطيفته . فكانوا
يتماقون ، ويخافونه وكان هو من ناحيته يقدم لهم خدمات جلي .
كان يهيئ لهم من يشتري لوحاتهم او ان يقدمهم للمجتمع فهو يحب
مثل هذا العمل والتظاهر بحمايتهم واطلاقهم في ميدان الحياة الفنية

وكان هؤلاء الفنانون يرون شرفاً عظيماً لهم الانطلاق في المجتمع بهذا الشكل الذي يتيح لهم حضور الولايم الكبيرة والتعرف بالشخصيات المرموقة. كان يدعوهم الى وليمة يقيمها الامير دي غال اثناء مروره بباريس ، ثم يتعشى معهم على مائدة تضم بول ادلمانس واوليفيه برتان وآموري مالدان .

اما برتان فكان صادق المودة له الا انه كان يقول عنه : انه دائرة معارف جول فرن بجلدة بجلد حمار ! »

وتصافح الرجلان وراحا يتحدثان في الموقف السياسي وعن احتمال نشوب الحرب الامر الذي يدعو السيد ميزاديو الى قلق شديد فهو يرى ان من مصالحة المانيا ان تسحق جميع الدول المحيطة بها فالسيد دي بسمارك ينتظر منذ ثمانية عشر عاماً فرصة ليحطم فرنسا. اما اوليفيه برتان فيسكن يخالفه في هذا الرأي ويزعم ان هذه المحاسوف تخيلات وهمية لا ظل لها من حقيقة فالمانيا بنظره لا يمكن ان تقدم على مثل هذا الجنون فتتقي بكل قواتها في مغامرة لا تعرف لها نهاية ، والمستشار بسمارك اعقل من ان يقدم على مثل هذا العمل الذي يترك ابعاده المماضية في هب كل ربح خاصة وهو في اواخر ايام حياته

وكان السيد ميزاديو يتظاهر ان لديه اشياء لا يقوى على التصريح بها فهو قد قابل وزيراً اثناء النهار واجتمع بالفرانكوف فلاديمير

وهو عائد من (كان) مساء امس .

ولم يزعن الرسام لرأي ميزادبو بل راح بنافح عن وجهة نظره
الخاصة فهو يعتقد جازما ان هذه الضجة التي تثار فارغة لا تخفي تحها
سوى حرب الاعصاب .

وخلص الى القول : ان ليس احداً سوى بسمارك يمكنه ان
يطلق حكما صادقا لا ريب فيه .

ودخل السيد غير وارصافح ضيفه بحرارة معتذراً بجمل خطابية
عن تأخره وتركه اياها بمفردهما .
سأله الرسام :

— وانت يانا بننا العزيز ، مارأيك بما يثار حول نشوب الحرب ؟
واندفع السيد غيروايخطب . فهو بصفته عضواً في المجلس
يعلم اكثر من سواء رغم انه لم يكن يتفق بالرأي مع زملائه النواب
كلاً فهو لا يعتقد ان نشوب الحرب محتملا في الوقت الحاضر على الاقل
وراح يصور السيد بسمارك بخطوط واضحة قوية ، صورة تذكر
بطريقة سان سيمون ، : ان الناس لا يفهمون هذا الرجل لانهم يحاولون
الحكم عليه بالنسبة الى تفكيرهم الخاص فيعتقدون انه مقدم على فعل
ما كانوا هم يفعلونه لو كانوا مكانه . فبسمارك ليس سياسيا منافقا بل
هو صادق مستقيم ولكنه قاس . انه يجار دائماً بالحقيقة عارية

لا لبس فيها فاذا نادى : اريد السلام . فهو حقا يريد السلام . وكل ما يعمل ببر ما يقول : ففي تسليحه وفي تحالفه مع الدول يكون وسيلة للسلام الذي ينشده .

واستخلص السيد غيروا قائلًا : انه رجل عظيم . عظيم جدًا . ينشد الهدوء للعالم بأسلوبه الخاص : بالهديد والوعيد . وعلى العموم . ايها السادة : انه رجل بربري عظيم .
اجاب السيد ميزاديو :

— الغاية تبرر الوسيلة دائماً . فانا وافقك على انه ينشد السلام دائماً ولكن عن طريق الحرب . وهنا تبرز لنا حقيقة بينة الخطوط وهي ان الحرب لا تثار الا في سبيل الحصول على السلم .
واعلن خادم : — سيدتي الدوقة دي مورمان ا
وبدت بين مصراعي الباب المفتوحين امرأة طويلة قوية البنية تقدمت بخطى ثابتة تم عن سيطره وثقة .
واندفع اليها الكونت وقبل اناملها وسألها :
— كيف انت ايها الدوقة ؟

وحياها الرجلان الآخران بشي . من عدم التكلف ولكن باكبار ذلك ان الدوقة كانت تجعل دائماً حدوداً في حياتها بين رفع الكلفة والاحترام .

والدوقة هي ارملة الجنرال دي مورنمان ووالدة لابنة وحيدة
زوجة الامير ذي ساليا ، وهي ابنة الماركيز دي فاراندال ، ، من ارومة
عريقة عريضة الغنى وصالونها الفخم في شارع فاران تفتح ابوابه لجميع
طبقات المجتمع الارستقراطية الراقية . فلا يعرب باريس صاحب سمو
دون ان يتناول وقعة على مائدة الماركيزة . وما ان تسمع برجل ذي
صيت حتى تعتمد الى التعرض له والتحدث اليه والحكم عليه . وهذا هو
المحرك الرئيسي لحياته وفيه كل ما يختلج في صدرها من رغبات .

وما ان جلست حتى اعلان الخادم من جديد :

— سيدي البارون وسيدي البارون دي كوربال .

انهما شابان ، البارون اصلج مترهل ، والبارونة رشيقة انيقة

شديدة السمرة .

كان لهذين الزوجين مركز خاص في الارستقراطية الفرنسية
نائج عن علاقتها الغامضة . فهما من اصل وضع بالنسبة للنبلاء لذا كانا
مفرمين بكل مظاهر الارستقراطية المنكلفة فهما محدثا نعمة . وقد
عملا جاهدين على مجاراة الوسط الذي فيه يضطربان فهما لا يرتادان
الا البيوتات الكبيرة العريقة متظاهرين بذوق رفيع وميول نبيلة
وتقى واستقامة يحترمان كل ما يحترمه النبلاء ويحترمان كل ما
يحقرونه لا يترددان في ذلك ابداً فيظهر ان نتيجة لتصرفهما ذلك

في كثير من الاعين كأنهما زهرتان من زهور المجتمع الراقي . فرأيهما
بشكل ترديداً لما يجب ان تكون عليه الاشياء وحضورهما احد المجتمعات
الرفيعة يسبغ عليهما شرفاً حقيقياً .

وآل كوربال هؤلاء يمتنون بقرابة للكونت غيروا .

وسألت الدوقة الكونت مدهوشة :

— حسناً اين زوجتك ؟

— لحظة واحدة . ثمة مفاجأة . ستحضر حالاً .

عندما مر شهر واحد على زواج السيدة غيروا قدموها
للمر كيزة التي سرعان ما احبتها وتبناها واتخذت من نفسها حامية لها .
ومرت عشرون سنة على هذه الصداقة دون ان تؤثر في
قوتها فاذا قالت المر كيزة : (صغيرتي) . فهم انها تعني الكونتس بهذه
الكلمة التي تم عن تعلق شديد بها . ولديها حدث اللقاء الاول بين
الرسام والكونتس . ودنا ميزاديو من الدوقة وسألها :

— اذهبت الدوقة لمشاهدة معرض « الرسامين الشذاذ (١) »

— كلاً ما هذا المعرض ؟

— زمرة من الفنانين المجددين ، قدموا لوحات كأنها رسـم

(١) تعريب : Intemperants تعني اسلوباً من الرسم خارجاً عن

المألوف نادى به فئة من الفنانين الفرنسيين في اواخر القرن التاسع عشر .

معتوهين أو سكارى . الا ان فيها قوة تعبير لا تنكر .

فتمتت السيدة الكبيرة بشيء من الحقد :

— انا لا احب مزاح هؤلاء السادة .

وبدت متسلطة ، غنيمة ، فهي لا تقبل رأياً يخالف رأيها الذي تستوحيه دائماً من مركزها الاجتماعي المرموق . فالفنانون في رأيها وحتى العلماء والكتاب جماعة من الناس مكلفون من قبل الله بالترويح عن المجتمع وتقديم الخدمات له فهي لا تريد ان تعبر عنهم غير هذا التعبير الذي تقيسه باللذة التي يتنحها لها رؤية لوحة جميلة او قراءة كتاب طريق او قصة اكتشاف جديد .

كانت طويلة قوية ثقيلة الجثة حمراء البشرة قوية نبرات الصوت كانت تظهر بكل مظاهر العظمة في قولها وتصرفاتها مستعدة لحماية كل من يلجأ اليها حتى الملوك المخلوعين وهي تتقرب من الله دائماً بكرمها الفاض على رجال الدين ومنحها للكنائس . وعاد ميزاديو يقول :

— اتعلم الدوقة ان قاتل ماري لا مبورج قد اوقف ؟

فسألته حالاً كأن لها في الامر مصلحة :

— كلاً لم يتصل بي ذلك . هات حدثني به :

وراح يروي لها التفاصيل . كان مديد القامة ، بالغ النحافة يرندي صدرية بيضاء ترينها جواهر تقوم مقام الازرار ، كان يتكلم

دون اشارات ، بلهجة واضحة الكلمات كأنما هو صاحب اختصاص
 يتكلم ضمن دائرته . كان قصير النظر يظهر رغم عوبناته كأنه
 لا يرى أحداً من الحضور وعند ما عاد يجلس خيل للناظرين ان مجموعة
 عظام جسمه تنحني وتتكيف حسب شكل المقعد . فكأن عموده
 الفقري مصنوع من كوتشوك ، وساقاه المتصالبتان ظهرا كشرطين
 طويلين ملتفين وذراعه الممدلان على جانبي المقعد ينتهيان بكفين
 شاحبتين لهما اصابع مفرطة الطول . وشعره وشارباه المصبوغة بطريقة
 فنية تمثلي منها خصائل مهمة ينضأ على كتفيه بشكل شير شيشاً من
 النفكة المعتادة .

وراح يشرح للدوقة كيف ان حلي ابنة الهوى القليل قد
 قدمت هدية من قبل القائل الى غانية اخرى . وفتح الباب في هذه
 اللحظة من جديد وعلى مصراعيه ، ودخلت سيدتان بزي من الدتيل
 البيضاء ، كانتا متشابهتين كأنهما اختان من سنين مختلفين ، احدهما
 بالغة النضوج والثانية رطبة العود ، الاولى متينه التركيب ، والاخرى
 مفرطة النحافة . . كانتا تتقدمان وقد تحاصرتا مبتسمتين .

وانار دخر لهما عاصفة من التصفيق والهتاف . فلم يكن احد
 غير اوليفيه يعلم بمجيء آنيث ، وظهورها بصحبة امها كان مفاجأة
 سارة حقاً : كانتا جميلتين بل تسكادان تتعادلان جمالاً فالام كزهرة

شديدة التفتح - احدة الاربع ، والبنت ما تزال برعماً يستعد للتفتح
واستقبال نور الحياة . انهما رائعتان . واخذت الدوقة تصفق بيديها
بالغة السرور :

— الهى . انهما ساحرتان ما جعلهما الواحدة بالقرب من الاخرى
انظر ايها السيد ميزاديو كم هما تشابهان !

وبرر رأيان فوراً . زعم ميزاديو وآل كوريل والكونت
غيروا انهما لا تشابهان الا في لون البشرة والشعر وخاصة العيون التي
كانت فقط واحدة لدى الاثنين بما فيها من بقع سوداء دقيقة كانها
نقط الحبر فوق الحدقة الزرقاء . ولكن الفتاة عندما تبلغ سن النساء
فلا شك في انهما ستختلف كل الاختلاف عن امها .

اما الدوقة واوليفيه برتان فزعمتا انهما متشابهتان في كل شئ
ولولا اختلاف السن لما عرفت احدهما من الاخرى .

قال الرسام :

— كم تغيرت في هذه السنوات الثلاث ! اني اكاد انكرها
بل لا اجرؤ على مخاطبتها بصيغة المفرد .

واخذت الكونتس بالضحك :

— آه كم اود مثلاً ان اسمعك تخاطب آنت بصيغة الجمع .

وقالت الفتاة :

انا للتي لا اجرؤ على أن اخاطب السيد برنان بصيغة الافراد .

وابتسمت امها :

— احتفظي بهذه المادة المذمومة فانا اسمح لك بذلك فهي

تساعدك على توطيد اواصر الالفة .

وقالت آنيث وهي تحرك رأسها :

— كلا كلا . ان هذا لما يزعجني .

وعانقتها الدوقة وراحت تفحصها فحصى العارفة المهمة :

— انظري الي يا صغيرتي . ان لك نفس نظرة امك . ستكونين

حسنة بعد وقت قصير عندما تتعلمين كيف تسوين هندامك .

يجب ان تسمني ، ليس كثيراً ، انك هكذا شديدة النحول .

وهتفت الكونتس :

— آه . لا تقولي لها هذا .

— ولم ؟

— ليس من دواعي السرور ان يكون المرء فيلاً ! ها انا

اودان انحف

غير ان السيدة دي مورتان احدثت حتى انتم احدها وجود

فتاة صغيرة :

— آه انكن دائماً تفضلن الهياكل العظمية لأن الثياب

تدسجهم فوقها اكثر من الجسم المكننز اما انا فن اصل كله غدير
الشحم ! امّا اليوم فالزي هو النحول ... النحول الذي يذكّرني ببقر
مصر ... وانا لا افهم الرجال الذين يعجبون بهيا كلكن العظمية ..
اما في ايامنا فكانوا يبتغون ما هو اجدر بالاهتمام .

وصمتت وقد علت الابتسامات كل الشفاه :
— اضري يا صغيرة . ان امك على احسن حال هكذا :

تشبهي بها .

وانتقلوا الى غرفة المائدة وما ان استقر بهم المجلس حتى عاد
ميزاديو الى اثاره النقاش باسطاً وجهه نظره في انه يفضل ان يكون
الرجل نحيفاً ليتمكن من القيام بكل عمل امّا الشأن مع النساء فمختلف ..
واحتدم النقاش من جديد وراح كل يبسط رأيه حول هذا
الموضوع الذي بدا لهم عظيم الخطر وكانت المريكة دائماً تدافع عن
السمنة بينما انحازت زوجة كوريل الى صف ميزاديو وتبعها زوجها ..
ثم تطور الجدل الى الطرق الفعالة لازالة السمنة وتشعب
الحديث شتى .

وكان برنان حتى تلك اللحظة صامتا : فاستحثته المريكة بان
طلبت اليه ابداء رأيه : قال :

— آه ياسيدي . اني رسام ولا ارى كبير اهمية في مثل هذا

الموضوع أمّا لو كنت مثالا لكان موقفي مختلفا ...

— ولكن انا اسألك كرجل ... فماذا تفضل ؟ .

— انا ... افضل قواما رشيقا معتدل الالكتناز او كما نقول

طاهيتي :

دجاجة رطبة مليئة ... ليست سمينة بل مكتنزة وناعمة .

وقد اثار تشبيهه الضحك ولكن الكونتس نظرت الى ابنها

وقالت :

— لا تصدقي . انه لما يسر ان تكون المرأة نحيلة فالنحيلات

لا يدركهن الكبر .

وكانت هذه الملاحظة ماثار نقاش جديد الا ان الكل اجمعوا

على صواب نظرة الكونتس . فلا شيء يعجل بالشيخوخة كالسمنة .

ثم راحو كنتيجة لهذه الملاحظة يستعرضون الكثيرات من

نساء الطبقة الراقية متخذينهن كامثال وشواهد .

وكان اوليفيه جالسا بالقرب من آنيث فاستدار وقال لها :

— اصغي الي يا نانيت .. ان ماتسمعينه الا ان سيصك اذنيك

مرة او مرتين كل اسبوع على الاقل حتى ينتهي بك الامر الى حفظه

عن ظهر قلب وخلال اسبوع واحد ستعرفين كل ما يدور في المجتمع

من احاديث : النساء ، والمسارح الخ .. ولا يبق الا ان تغيري

الاسماء من آن لا آخر حتى يتاح لك الخوض في كل حديث ...
ورفعت اليه الفتاة عينين خبيثتين يكمن فيهما ذكاء حاد في طور
التكوين. وظل ميزاديو والدوقة يتبادلان النقاش كما يتبادل اللاعبان الكرة
دون ان يفظنا الى ان افكارهما تدور في فراغ لتعود الى اللقاء من جديد .
وحاول برتان ان يثبت نظريته القائلة ان الناس ، وحتى اكثرهم
ثقافة وذكاء ، لا يحاولون استعمال مواهبهم الا قليلا في سبيل الاشياء
النافعة في الوقت الذي يصرفون فيه طاقة هائلة في توضيح اشياء تافهة
لا طائل تحتها وليس فيها غناء ... وراح يبرهن ان ليس في مثل
هؤلاء شيء من العمق في التفكير وان ثقافتهم تصبح عديمة الفائدة
بقوة الاستمرار على اجهادها في ميادين عديدة النفع تافهة الغاية ...
ان هؤلاء يعيشون وكأنيهم اموات ، فهم لا يتقنون تذوق الجمال
ولا ادراك الخير والحق . انهم يجهلون كيف يتمتع الانسان بالسعادة
او برؤية الطبيعة او بجمال الفن . انهم لا يعرفون تذوق الجمال لانهم
لم يألفوا النشوة التي يخلقها في نفوسهم . وهم غير خليقين بحب مجرد
لانهم لا يستطيعون الاخلاص الذي يتطلبه هذا الحب .
وتطوع البارون دي كوربال للدفاع ضد وجهة نظر برتان ...
غير ان منطقه كان ضعيفا متهاافتا تهافت الثلج امام النار في
الوقت الذي ظنه من القوة بشكل لا يحتمل جدلا او رداً

واعتصم برتان بالصمت في اول الامر ثم راح يرد على خصمه
راسما صورة رجل من هذه الطبقة التي عناها بانتقاده :

صور هذا السيد في الصباح ووصيفه يساعده على ارتداء ثيابه
ثم يأتي الحلاق فيروح يحدته احاديث عامة عادية وتأزف ساعة النزهة
فيخرج بعربته ويروح يسأل السائس عن صحة الجياد ثم يسير في مماشي
الغابة وغايته الوحيدة ان يحبى ويتلقى التحيات . ثم يجلس الى المائدة
مع زوجته ويخرجان بعد الغداء في عجلة فلا يتحدثان الا ليعدد اسماء
الاشخاص الذين يمرون بهم ، وفي المساء يتنقل من صالون الى صالون
ثم يتعشى مع احد الامراء ليصغي الى نقاش يدور حول سياسة اوربا
ثم ينتهي به المطاف في احد مرافق الاوبرا حيث يتابع ببصره الخجول
الراقصين والراقصات مكثفيا بوجوده في مثل هذا المكان .

كانت الصورة صادقة مثيرة للضحك ولم تكن لتجرح احداً
من الحاضرين حتى ان ضحكة دارت حول المائدة التي يجلسون اليها .
ولعل الدوقة هي الوحيدة التي احست شيئاً يخز قلبها غير انها

قالت :

— هذا شيء غريب جداً . اني اكاد اموت ضحكا . .

فاجابها برتان : —

— انا لا اخشى على احد منا الموت ضحكا لاننا نحن لا نعرف

كيف نضحك واذا ضحكنا كان ضحكنا مبتكفا ككل عمل نقوم به . اذا شئتي ان تعرفي اين يضحكون حقا ومن اعماق افئدتهم فاذهبي الى المسارح الشعبية ، اقصدي المجتمع البرجوازي خالطي الجنود في حجراتهم ... واما صالوناتنا ففيها لا يضحكون .. فهم ينظرون بكل شيء حتى بالضحك .

وقاطعه ميزاديو :

— اسمع .. انك قاس ياسيدي .. انك انت نفسك لا تحقر هذا المجتمع الذي توجه اليه لو اذع نقدك .

وابتسم برنان وقال :

— اني احبه !

— اذن ماذا تفعل ؟

— ولذا فانا انتقده .

وعقبت الدوقة :

— كل ما يقوله برنان هو من باب العرض .

ثم انقلب الحديث نقاشا عاما هادئا حبيا وراح الكل يشتركون في ابداء الاراء ولما كانت الوليمة قد او شكت على الانتهاء هتفت الكونتس فجأة :

— انا لم اشرب حتى الآن قطرة واحدة . ها هو كأسني .

فلتشرب وسأرى اذا كان ذلك يزبل السمعة .
 وثارت الدوقة وحاولت ان تحبر الكونتس على ان تشرب شيئاً
 من الماء المعدنية ولكن هذه لم تذعن لها فصاحت بها :
 — يا للجنون . . . حسناً سترين كيف ان ابنتك ستهزأ بك
 يوماً . ما ايها الكونت عليك ان تقنع زوجتك بالاقلاع عن هذا الجنون
 ولم يسمعها الكونت لأنه كان منهمكاً في شرح فكرة الآلة
 الدارسة الميكانيكية التي اخترعت في اميركا .
 ونهضت الكونتس وقد قدمت ذراعها لجارها واعطى
 الكونت ذراعه للدوقة وانتقل الجميع الى الصالون الكبير . . .
 وفي الحجرة الفسيحة المنيرة المزينة جدرانها الاربعة بسجف
 من الحرير الازرق الشاحب المزخرف الحواشي بخطوط ذهبية وبيدضاء
 كانت النور الغامر يقفي على كل شي فيها رونقاً ورواءاً . وتتصدر
 الصالون صورة الكونتس التي ابدعتها ريشة اوليفيه برتان حتى لسكاؤها
 تنشر سحرها في الجو فتتعش المكان وتبت فيه حيوية ونشاطاً . كانت
 حيث يجب ان تكون ، تشع ابتسامتها العابقة سنى وجمالاً فكانها
 تنشر في هواء المكان فيضاً من سحرها الفنان ، سحر المرأة الشابة
 الحسناء . ان هذه اللوحة واجبة الوجود في هذه الحجرة . وكما ان
 الكنيسة لا تخلو من صليب يتصدرها هكذا كانت تبدو صورة

الكونتس في صدر الصالون الفاخر .

وكان كل من يراها يكيل الثناء للريشه التي ابدعتها .
ولم يفت ذلك ميزاديو مرة واحدة . فان لرأيه قيمة كبرى
بصفته خبيراً بالفنون من لدن الدولة وكان بهجه ان يقول دائماً بلهجة
العارف المقدر لكلامه :

— حقاً انها اجمل لوحة رأيتها . ان فيها لحياة صخابة ماثرة .
اما الكونت فقد خلقت فيه كثرة امتداح هذه اللوحة شعور
من يملك اطروفة كبرى من طرف الفن . فكان يستوعب تباعاً
كل ما يقال في امتداح اللوحة والثناء على الريشة الخلاقة .

وارتفعت كل الاعين تستجلي معالم اللوحة الجميلة ، فلم يكن
اوليفيه برتان ليعلق كبير اهتمام على مثل هذه المظاهر الاطرائية فقد
اعتادها اذناه ايما اعتياد لدرجة ان اضحت بالنسبة اليه كالمسؤال العابر
عن الصحة الذي يلقيه صديق عابر يصادفك في الطريق . وكل ما فعله
أن ادار السراج الكشف نحوها وكان الخادم قد وضعه جانباً باهمال .
ثم جالسوا . وكان الكونت يجاور الدوقة التي راحت تحدثه
قائلة :

— اعتقد ان ابن اخي سيأتي ليصطحبني وقد يشرب لديكم
كاس مشاي .

كان لهما رغبان منسجمتان كل الانسجام منذ فترة طويلة
ولكن دون ان يصرحا بشيء من ذلك حتى ولا بالتاميع .

وكان اخ الدوقة المركيز دي فار ندال قد مات متسائراً
بسقوطه عن ظهر جواده بعد ان دمرته المقامرة خلفاً لرملة وولداً .

وبلغ الولد الثامنة والعشرين من عمره وكان يقوم بسياحات الى
فيينا ولندن ليحضر احتفالات ومراقص ملكية ، وقد كاد يكون
دون ثروة غير انه حافظ على مركزه الاجتماعي بماله من عرافة الاصل
وصلات الرحم مع الاسر الماكنة والنبيلة وبقي في باريس ذلك الرجل
المرغوب فيه .

وكان هذا المركيز الاجتماعي لمثل هذا الشاب شيئاً لا
يستهان به ولم يكن عليه سوى ان يحصل على الثروة بالزواج من
فتاة غنية فيتاح له ان يصبح نائباً بل قد يحلم بان يكون اقرب المقربين
الى العرش في المستقبل وربما غداً مستشار الملك العتيد او احد زعماء
الاحزاب .

وكانت الدوقة قد حصلت على المعلومات الصادقة عن ثروة
الكونت دي غيروا الذي يعيش ببساطة في شقة عادية في الوقت الذي
يستطيع ان يعيش في افخم قصور باريس وهي تعلم كل العلم ما ينطوي
عليه الكونت من طموح ، وهي التي لا تقل عنه طموحاً كانت

تحلم بان تزوج ابن اخيها من ابنته فمثل هذا الزواج يهيء لها شهرة واسعة في الاوساط الارستوقراطية ، وغيروا الذي تزوج هو طلباً للثروة اضعت له احلام اخرى .

انه يؤمن بعودة الملكية وينبغي في حال تحقق ذلك ان ينال

الحظ الاوفر .

فما هو الآن سوى نائب عادي ، فما ان يصبح هي الماركيز دي فاراندال المتحدر من اسرة تربطها صلة رحم بالبيت المالك الفرنسي حتى يثب من جراء تلك القرابة الى القمة .

وكان كذلك يعلق كبير اهمية على صداقة الدوقة لزوجته تلك الصداقة التي تضيء على هذا الزواج معنى حميماً . لكل هذه الاسباب ، وخوفاً من ان يصادف الماركيز فتاة اخرى تروق له ، عجل السكونت باحضار فتاته ليبحث تحقيق الحلم المنشود .

ولم تخف هذه المشاريع على فطنة الدوقة التي كانت تنظر اليها نظرتها الخاصة وبالرغم من انها لم تكن لتعلم بحضور الفتاة المفاجيء الا ان ذلك لم يمنعهما من الابعاز الى ابن اخيها بالحضور كي يعتاد شيئاً فشيئاً ارتياد هذا البيت .

وللمرة الاولى كان حديث السكونت والدوقة مكشوف الاغراض وقد افترقا بعد ان ابرما اتفاقاً حول هذه الامور .

وكان الباكون منهمكين في طرف الصالون بالمزاح والضحك .
السيد ميزاديو يحدث البارونة دي كوريل عن قدوم وزير
مفوض زنجي الى باريس وتقديم اوراق اعتماد لرئيس الجمهورية .
عندئذ اعلن الخادم قدوم الماركيز دي فاراندال .

وظهر على العتبة وتوقف . وبحركة طليقة ركز نظارة
مفردة على عينه اليمنى كأنه يود استكشاف الصالون الذي بالبح ، او
ليتيح للحضور فرصة تأمله والالتفات اليه . وبحركة غير ملحوظة من
خده وحاجبيه ترك النظارة تسقط حتى طرف الخيط الحريري الاسود
المعلقة فيه وتقدم بخطى رشيقة الى مدام غيروا فقبل يدها الممدودة اليه
مرفقاً ذلك بحركة انحاء شديدة . وفعل ذلك بعفته ثم استندار الى
الحضور فصافحهم واحداً واحداً برشاقة ملحوظة .

كان طويل القامة ، اشقر الشارب ، قد لعب الصلع برأسه
قليلاً ، وكان يبدو بثوب الضابط الذي يرتديه شديداً رياضي الانكليزي
كان يخل الى الناظر اليه ان كل عضو من اعضاء جسمه اشدّ نغماً من
رأسه ! وانه لا يمكن ان يكون له ميل لغير الاشياء التي تنحصر في
القوة الجسمية . غير انه كان ذا ثقافة لا بأس بها فهو قد درس وما
زال يدرس كل شيء تقيده معرفته في المستقبل : فهو يهتم بالتاريخ معلقاً
كل الاهمية على تواريخ الوقائع ضارباً صفحاً عن العبر والدروس التي

يمكن ان تستخلص من ذلك . كما انه قد درس شيئاً من الاقتصاد
السياسي الضروري لنائب وشيئاً من العلوم الاجتماعية حسب مقتضيات
مجتمعه النبيل .

وكان ميزادبو يحمل له تقديراً ويقول : « سيكون رجلاً ذا
خطر » أمّا برتآن فكان يقدر فيه قوته الرياضية . فكانا يقصدان
نادي الصيد وكثيراً ما كانا يلتقيان وهما على جواديهما في مماشى الغابية
فتولدت بينهما الفة شخصين يميلان الى ذات الشيء ، هذا النوع من
(النزعة البنائية الحرة (١)) الغريزية التي يخلقها بين شخصين حديث
عابر بشير في احدهما الاهتمام الذي بشيره في الآخر .

وعند ما قدموا آتيت للمركيز . انحنى لها وراح يتأملها بعين
الاعجاب وكأنه احس بما تبئت له عمته .

ووجدوها جميلة كامنبة عذبة ، لأنه كثيراً ما عرف فتيات
كان يتنبأ صادقاً عما ينتظرهن في المستقبل من شهرة كجعميلات وقلمما
كان يخطي شأنه شأن الخبير الذي يتذوق خمرة حديثة فيحكم على
جودتها اذا ما غتقت .

وتبادل معها بضع حمل لا معنى لها ثم جلس الى قرب البارونة
دي كوريل ليتاح له ان يثرثر معها بصوت خفيض .

(١) تعريب Framaconerie

ولم تطل بهم السهرة ، وبعد ان خلا المكان من الجميع ، وانصرفت
الفتاة الى فراشها اطفئت الانوار وصعد الخدم الى حجراتهم ، مكثت
الكونت في الصالون الذي لم يزل مناراً بشمعتين ، وراح عشي جيئة
وذهابا ، وقد طلب الى الكوندس ، التي دهمها الغاس ، ان تظل فوق
مقعدھا ، وراح يشرح لها آمالہ ويحلل اراءه ويناقش كل المواقف
التي قد تقتضي مواجھتها في المستقبل وكل ما يجدر ان يتخذ من
حيطة وحذر .

ولم ينسحب الا بعد ان تقدم الليل ، شديد الزهو بهذه السهرة ،
وتعم وهو يخرج الى غرفته :

— اغلب ظني ان هذا الامر اضحى بحكم الواقع ..



« متى ستأتي يا صديقي ؟ فيها قد مرَّت ايام ثلاثة دون

ان نمكحتل عيناى برؤيتك ! كم بيدولى ذلك طويلا ! ان ابنثى تشغل معظم وقتى غير انك تشق بانى لا اطيق لك فراقا . »

واعاد الرسام تلاوة بطاقة الكونتس، وكان يرسم بالقلم بعض اللوحات باحثا دائما عن موضوع جديد، ثم فتشح درجا سريا والقى بالبطاقة، فيه فوق كومة من الرسائل المتجمعه منذ بدء علاقتها .

وكانا قد اعتادا، بفضل علاقات المجتمع، ان يلتقيا كل يوم . ومن وقت لآخر كانت تزوره في مسكنه فتجلس ساعة او ساعتين فوق المقعد وهو منهمك في عمله غير انها كانت تخشى لفت الانظار وملاحظات الخدم ولذا كانت تفضل ان تلتقي به في بيتها او في صالون آخر .

ولم تكن علاقتها بنظر الزوج تخرج عن كونها علاقة طبيعية خاصة وهما يتظاهرا ان امامه بشي من الفتور الواحد حبال الآخر .

وكانت الكونتس تدعو عشيقها الرسام مرتين بالاسبوع على
الطعام . وكل يوم اثنين كان يمر بها في شرفتها بالابورا فيحييها
ويأخذ منها موعداً للقاء في مكان ما . وكثيراً ما كانا يلتقيان بمجرد
الصدفة . وكان يعرف الايام التي تخرج فيها فكان يوم تكون في
البيت يمر بها فيتناول كأساً من الشاي لديها ويمكث متمتعاً بقربها
بعض الوقت يبادلها الاحاديث والملاحظات وبالرغم من ان سوزة هواه
كانت منذ مدة طويلة قد خبت ، الا انه كان يشعر بحاجة لرؤيتها
لا تقاوم .

كان الشوق الى بناء حائلة يدور قلب اوليفيه دون هوادة :
انه يحلم بالبيت الزوجي الهادي ، بالحياة العائلية العذبة ، بتناول الطعام
مع رفيقة ، ترافقه وتحببه فلا يحس تعباً ، كانت هذه الرغبة القابعة
في اعماق كل قلب بشري قد عرفت طريقها الى النور في قلب اوليفيه
برتان وقد اقترب من الكهولة ، . . انه يحلم بهذا البيت الذي فيه
يعرف طعم الراحة والهدوء ، والذي فيه تدلله امرأة وتحمل اليه
الاستقرار والسكينة والسلام .

لقد مرت به ثلاثة ايام لم ير خلالها اصدقاءه فقد شغلهم مجي
ابنتهم كثيراً ، وكان قد بدأ يضجر بل لقد تقم على نفسه كيف لم يسمح
له تكتمه بالتصريح برغبته هو الآخر بجيئها قبل الجميع .

لقد كانت رسالة الكونتس ضربة سوط اقامته واقعدته وجعلته
يهم فوراً بالذهاب اليها قبل حلول ساعة خروجها لأن الساعة كانت
الثالثة بعد الظهر عندما استلم الرسالة .

وحضر الوصيف الذي استدعاه بقرعة جرس وسأله :

— كيف الجو يا جوزيف ؟

— جميل جداً يا سيدي

— اهو حار .

— اجل يا سيدي .

— هات صدرتي البيضاء وسترتي الزرقاء والقبعة الرمادية

كان شديد الاهتمام بهندامه فهو لا يبدو الاً انيقاً ، فكل
ثيابه تخاط عند امهر الخياطين ومع ذلك فهو ، ببطنه الملتف بصدرته
البيضاء ، وقبعته العالية الرمادية المائلة قليلا الى الوراء لا يغرب عن
الادراك انه فنان عريق .

ولدى وصوله بيت عشيقته قيل له انها تستعد للخروج في نزهة الى

الغاية ، فسأه ذلك واقام ينتظر .

وراح يتمشى كمادته جيئة وذهاباً ، منتقلاً من نافذة الى اخرى

ومن مقعد الى آخر غابراً تلك الحجرة الفسيحة المعتمة بالستائر المسدلة .

وكان فوق المائدة المذهبة للقوائم حشد من تماثيل ودمى

لا جدوى منها ، لكنها جميلة غالية الثمن ، كل ذلك في فوضى محببة .
وكان اوليفيه ، الفينة بعد الفينه ، يمس دمية من تلك الدمي التي
قدمها بنفسه في أعياد ميلاد عشيقته ، فيقبلها بين يديه ثم يتفحصها بعدم
اهتمام حالم ويبعيدها الى مكانها .

وفي احدي الزوايا يقوم رف على ساق واحدة يحمل كتباً
قلما فتحت مجلدة تجايداً فخماً ، وبالقرب من الرف مقعد مستدير ، كما
كنت ترى على الرف نفسه مجلة (العالمان) مشوشة كأنها قد تليت
مراراً ومجلات اخرى لم تفض صفحاتها بعد كمجلة (الفن الحديث)
التي يجلبونها في هذا البيت لمجرد نشرها المسابقات الفنية والجوائز
الممنوحة ، ذلك أنها غالية الثمن تكلف اربعمائة فرنكاً في العام . . كما
كانت هناك « الصحيفة الحرة » الهزيلة ذات الغلاف الازرق والتي
تفتح صدر صفحاتها لنفر من الشعراء المجددين يطلق عليهم « العصبيون »
ويقوم بين النوافد مكتب الكونتس من طراز القرن الماضي
الجميل الذي تستعمله لكتابة خطاباتهما . وكان هذا المكتب يحمل مؤلفات
عدة : كالكتب العائلية التي تثقف العقل والقلب : موسى ، مانور
ليسكو ، فيرتز ، ولثلا يظن بها عدم اكتراث بالمسائل البسيكولوجية
كان فوق مكتبها : « ازهار الشر » « الاحمر والاسود » « المرأة في
القرن الثامن عشر » (وادولف) .

وبالقرب من هذه المجلدات يلاحظ المرء امرأة يدوية الصمقت
زجاجتها فوق قطعة من المخمل المربع مطرزة ويداخلك الاعجاب اذا
تأملت ظهرها الذي يحمل نقوشاً غريبة من ذهب وفضة .

وتناولها برتان وراح يتأملها او يتأمل نفسه فيها : لا شك في
انه قد اكتمل في السنوات الاخيرة بشكل مربع ، وبرغم اعتقاده
بان وجهه اضحى ابلغ تعبيراً منه فيما مضى الا انه بدأ يشعر بالم حقيقي
من جراء هذين الخدين المترهلين وهذه البشرة المجمدة .

وفتح باب خلفه : نهاركم سعيد يا سيد برتان

— نهارك سعيد يا صغيرتي ، كيف انت ؟

— على احسن حال . وانتم ؟

— ما ذا لم لا تخاطبيني بصيغة المفرد ؟

— ان ذلك يزعجني في الواقع . .

— دعيك من هذه الاوهام

— ان ذلك يزعجني حقاً . انكم تحجلونني .

— ولم ؟

— لانكم . . . لانكم . . . لستم في سن الصبا ولا في سن

الشيخوخة . . .

— امام هذا المنطق يجدر بي ان اظل صامتاً .

وصعد الدم الى وجهها حتى غدت بشرتها حمراء من قمة رأسها
الى اخصصها.

وقالت: لقد كلفتني امي ابلاغكم انها آتية حالاً. وهي تدعوكم
لمرافقتنا الى غابة بولونيا اذا شئتم

— بكل تأكيد .. ولكن أأنتم ذاهبون بمفردكم ؟

— كلاً مع الدوقة دي مورتمان .

— حسناً .. سأرافقكم

— اذن انتم تسمحون لي بالذهاب لارتداء قبعتي ؟

— هيا .. يا طفلي ..

وما ان خرجت حتى دخلت الكونتس وقد تبرقعت استعداداً

للخروج ومدت اليه يديها :

— ما الذي شغلك عنا ؟

— لم اشأ ازعاجكم في مثل هذا الوقت .

— اوليفيه !

قالتها بلهجة فيها العتب المر والتعاق الوثيق فتأثر بلهجتها تلك

وهي تلفظ اسمه

وقال : انك خير نساء العالمين !

وهكذا انتهى هذا النزاع الصغير بين القلبين وراح العشيقان

في حديث المجتمع المعتاد :

— سنمر بالدوقة لنقوم سوياً بجوله في الغابة . يجب ان ترى
بآيت ذاك المكان : وكانت العربية تنظرهم امام الباب .
وجلس برتان في مواجهة المرأتين وراحت العربية تجري يحيط
بها ضجيج حوافر الجياد تفرع ارض الشارع تحت القنطرة المرجعة
للمصدي .

وفي الشارع الذي يؤدي الى المادلين كان الربيع الوليد يبدو
كأنه هابط من السماء فوق الكون . والهواء الدوافي كان يهب
الزجال ، وبوحي الى النساء بالحلب ، وكان الصبية الصغار قد الققو
سلامهم فوق الارصفة واندفعوا يلعبون مع اقرانهم ...
ولم يكن سوى جواذى العربية مندفعين وقد ظهر العناء واضحاً في
حركتهما ...

وهتفت الكونتس : — يا لليوم الجميل .. يا لروعة الحياة !!
وراح الرسام يدقق النظر بالام والابنة وهما مغمورتان بالنور
العظيم ، نور الربيع . كانتا مختلفتين ولا شك . الا انه لم يكن ليغرب
عن الذهن ان احدهما متممة للآخرى ، في عروقهما دم واحد ،
تضطرب فيهما حياة واحدة . وعيونهما بشكل خاص . تلك العيون
الزرقاء المرقطة ببقع سوداء صغيرة . . كانت متشابهة تماماً لو لم تكن

الزرقة لدى الصبية صافية نيرة ولدى الام حائلة قليلا : . . . كانت الاعين
الاربعة تلك تدنو اليه بنفس النظرة الساحرة . واذا ما خاطب احدهما
انتظر ان يسمع الجواب الذي يسمعه من الاخرى . وقد لاحظ وهو
يجاذبهما الاحاديث والنكت انه امام امرأتين احدهما قد شبعت من
الحياة . . . والثانية لم تجرع بعد جرعتها الاولى ... كلاً فهو لا يستطيع
التنبؤ بما ستكون عليه هذه الفتاة بعد ان يستنير تفكيرها وينمو
ذوقها وتواجه خطوط الحياة . انها شخص صغير جديد يستعد لمواجهة
الافكار والاهواء ... انها جاهلة بمجولة . . . كسفينة تنهيا لرفع مراساتها
والخروج من المرفأ بينما امها تعود اليه بعد ان طوفت في آفاق الوجود
... فقد عرفت الحب ...

وقد احس هدواً لدى تفكيره بانه هو الذي اختار هذه المرأة
الجميلة دائماً المتأرجحة في هذه العربة تدغدغها هبات نسيم الربيع
الدافئة .

وشعر كأنها تدرك ما يجول بخاطره وتشكره اعترافاً بجميلة
بحركة غير منظورة ولا مقصودة .
وتتم بدوره ...

— ياله من نهار جميل .
وعند ما صرخوا بشارع فارين واصطحبوا الدوقة مهم اتجهوا

نحو الانفاليد فاجتازوا نهر السين وبلغوا الايزا ثم صعدوا نحو قوس
النصر في ساحة النجمة وسط سيل من العربات .

كانت الفتاة جالسة بالقرب من اوليفيه منطوية على نفسها وهي
تحدق بهذا السيل من العربات بعينين ساذجتين مهمتين ومن وقت لآخر
كانت الدوقة والكونتس تتلقيان تحية قصيرة فتسألها . . من هؤلاء
فكان يذكرها الاسماء .

وساروا في منتزه غابة بولونيا في ضجيج من حركة العربات
ولم يكن الازدحام شديداً مثله بالقرب من قوس النصر فكانت جميع
انواع العربات تمر في استعراض لا ينتهي وبين الفينة والاخرى كانت
تعبر مركبة سريعة من طراز فيكتوريا فتمزق الصفوف وقد استوت
فيها امرأة فنية ذات زي جري تسحب خلفها رائحة غريبة كأنها عطر
ازهار مجهولة .

وسألت آنيث . . من ترى تكون هذه السيدة ؟

فاجابها برنان : لست ادري .

وقد تبادلت الدوقة والكونتس ابتسامة وامضة .

كانت البراعم قد تفتقت والبلابل تنشد اغانيدها في هذه
الحديقة الباريسية المغمورة بخضرة وليدة وعند ما بلغوا البحيرة كانت
العربات متواصلة وكان عليهم ان يردوا على التحيات التي لا تنتهي

والابتسامات المتبادلة فكان راس الدوقة لا يفتأ ينحني في كل لحظة
امام قبعات ترفع وجباه تنحني كأنها في استعراض .

وقالت مخاطبة آنيث :

— أنظري يا صغيرتي هذه مدام مونديلير اجعل نساء الجمهورية
كانت هذه الجميلة تجاس في عجلة خفيفة بالغة الجمال معطرة
بجمالها الذي لا يراحم بيتيك العينين المظلمتين تحت جبهة يتوجها شعر
قاتم وفما العنيف الصارم . قال برتان حقاً انها لرائعة . ولم تجب الكونتس
لانها لم تكن تحب ان تسمع برتان يتمدح جمال امرأة اخرى وقالت
الفتاة وقد استيقظت في نفسها فجأة غريزة العداء . .

— اني لا ارى شيئاً من جمالها .

فاستدار اليها الرسام قائلاً . .

— ماذا؟ انت لا تجدينها جميلة؟

— كلاً كآني بها قد غمست بالخبر .

وضحكت الدوقة معجبة وقالت :

— احسنت يا صغيرتي . فئذ ست سنوات ونصف ورجال

باريس يمرغون الجباه امام هذه الزنحية . ربما كانوا يهزؤون بنا لو سمعوا
ما نقول انظروا هيذي الكونتس لو كريست .

كانت وحدها في عربتها مع كلب اينض والكونتس سيده

نحيلة فكأنها الشبح، شقراء ذات عيدين رماديتين دقيقة التقاسيم وقد كانت منذ خمس أو ست سنوات مبعث الهام الشعراء من مواطنها، وحيثهم بابتسامة مثبتة فوق شفها .

غير ان انيت لم تبد شيئاً من الاهتمام بها وقالت .

— آه انها لم تعد طرية العود .

ولم يكن برنان ليهتم بمثل هذه الاحاديث بيد انه كان يستاء

من مثل هذه البد واث الصديانية . قال :

— ان الجمال نسبي مع مبلغ الحب فاجابته الدوقة دعنا المك لا نفهم

النساء الا بعد ان يجتزن الثلاثين . ان الحق بجانب هذه الطفلة واغاب

الظن انك لن تعجب بحماها الا بعد ان تذبل نضارتها . فاجاب بحدة ..

— ان المرأة لا تبدو جميلة الا بعد ان يكتمل نضوجها .

وراح يوضح فكرته بان الجمال المبكر ليس سوى طلاء للجمال

الناضج فهو لا يلوم الرجال قليلي الاهتمام بالنساء الفتيات فهو لا يسم

المرأة بميسم الجمال الا عندما توشك نضارتها على الاندثار .

وقالت الكونتس مزهوة بفكرته :

— ان الحق ما قال فهو يحكم كفنان . كلام جميل ! ان الوجه

الشاب يكون دائماً سخيلاً لا معنى له وتابعت الكونتس موافقة على

كل كلمة يقولها وكان هو يتكلم بطلاقة محام يدافع معبراً عن فكرته

بإشارات من رأسه ويديه ، ولم تكن آثيت تصفي اليه فهي . مستغرقة
في مشاهدة ما يحيط بها من حركة وحيوية . . فهذه الشمس والخضرة
والعربات ، هذه الحياة الغنية المرحية . . كانت كأنها كلها ملك لها . .
ان بإمكانها ان تأتي كل يوم ، وان تعرف بالناس ، وتلقى
التحيات ، ولا شك في ان الرجال الذين سيدشاهدونها سيقولون عنها
انها جميلة .

وكان اهتمامها مقتصرأ على النساء الحسان والرجال ذوي
الشارة فكانت تسأل عن اسمائهم فتطرب لهذه الاسماء الرنانة والالقاء
الفخمة التي كانت تعرفها بالسماع ومن قراءة القصص والصحف .
وخيل اليها انها تعيش في حلم . امأ العربات فهي تزعجها ايما ازعاج
وكثيرأ ما كانت تقول :

— ارى الا^١ يسمح لسوى عربات السادة النبلاء بولوج هذا
المنزه .

فاجاب برنان :

— وما نفعل بالمساواة والحرية والاخوة (١) ؟

ونمت منها حركة تعني « هذه ليست لنا » وتابعت :

— لتخصص غابة لعربات الركاب . غابة فانسيين مثلاً .

(١) شعار الجمهورية الفرنسية الحديثة العهد في تلك الايام .

— ان افكارك رجعية يا آنستي . لقد غاب عن فكرك اننا
نعيش في عهد ديموقراطي . وعلى اي حال ، اذا كنت تودين مشاهدة
هذه الغابة هادئة تعالي في الصباح الباكر حيث لا شاهدين الا
زهرات المجتمع .

وراح يرسم لوحة الغابة في الفجر مصوراً ببراعته المعبودة من
فيها من ناس قد خلعوا الالقاب ، والنواقص ، حتى ليخيل للمرء انهم
ابناء حي واحد او مدينة صغيرة واحدة .

— او تأتي انت عادة ؟

— مراراً . ان هذا امتع ما اجده في باريس .

— او نركب الحصان صباحاً ؟

— اجل

— وتقوم بزياراتك بعد الظهر ؟

— نعم

— متى تشغل ادن ؟

— انني اشغل ساعة يروق لي .. فانا رسام .. رسام للحسان .

ومن متمات عملي ان ارى هؤلاء الحسنات لندا فانت تجدينني في كل
مكان يوجدن فيه .

وتتمت ضاحكة :

— راكباً جوادك أو سائراً على قدميك !

ورشقها بنظرة حادة راضية كأنه يقول لها :

— ها . ها . انك تجيدين التنكيت ! ستكونين سيّدة لا

بأس بها . .

وهبت نسمة من هواء بارد آت من بعيد ، من البرية الفسيحة

التي استيقظت تواءً ، فتحرّكت الغابة برمتها ، تلك الغابة العالمية
الخلابة .

وتركت هبة النسيم أوراق الاشجار الصغيرة ترتجف

اغصانها وحرّكت الثياب فوق اجسام الناس ، وبحركة واحدة متناسقة

تناولات النساء اردبتهن وجذبتهن على اكتافهن وراحت شعورهن

تترافض فوق اكتافهن كأن النسيم قد قذفها قذفاً لدى ملاسته لها .

وقفلوا راجعين والشمس تنحدر الى خدرها ، ورنين فضي يملأ

اسماع الكون . وقالت الكونتس وهي لا تجهل عادة اوليفيه :

— انعود الى بيتك ؟

— كلاً أني قاصد النادي

— اذن سننزلك اثناء مرورنا .

— هذا احسن . شكراً ،

— ومتى ستدعوننا للغداء مع الدوقة ؟

= لستم ان تحددوا اليوم

كان هذا الرسام بنعم باعجاب الباريسيات عموماً حتى لقد أطلق عليه مريدوه اسم (واتو (١) الواقعي) في الوقت الذي أطلق عليه مبغضوه « المصور الفوتوغرافي للفساطين والمعطف ». كان يدعو كثيراً الجليلات اللواتي رسمهن الى ما ئدته ، وغيرهن ايضاً من الشهيرات الذائعات الصيت اللواتي يجدن متعة في حفلات هذا العازب واجابت مدام غيروا :

— بعد غد . ايوافقك بعد الغدا عزيزتي الدوقة ؟

— لا باس . انت لطيفة يا عزيزتي . فالسيد برنان لا يهتم كثيراً بدعوتي الى مثل هذه الحفلات لاني لم اعد شابة .
وعادت الكونتس تقول ، هي التي تعتبر بيت الرسام ، نوعاً ما ، كمينها :

— لن يكون سوانا ، نحن الاربعة الذين في العربة الدوقة وآنيث ، وانا وانت ، ليس كذلك ايها الرسام الكبير ؟
— لا احد سواكم . هذا حسن وسأقدم لستم (سراطين) على الطريقة الازاسية

— هذا سيدخل السرور على نفس الصغيرة

(١) Watteau رسام شهير عاش في مطلع القرن التاسع عشر

وحياهن من طرف شففيه واندفع في المدخل ذي القناطر
المفضي الى البادي ، ومرت بفريق من الخدم نهضوا لدى رؤيتهم اياه
كانهم جنود يمر بهم ضابط ، فالقى اليهم بعصاه ومعطفه وراح يصعد
السلم قفزاً عابراً بغيرهم من الخدم ذوي السراويل القصيرة
ولجج باباً فصكت سمعه اصوات لاهثة سريعة : هيا . لقد
لمستنى . دع ذلك . لقد نلتها . هيا . لمستك .

ووجد نفسه في غرفة السلاح حيث راح اللاعبون يتمرنون
وقد ارتدوا ثياباً من قماش رمادي وسترات من الجلد واشهروا بايديهم
سيوفاً طويلة يحركونها بحركات ميكانيكية وكان فريق جالسا ، لاهثا
وقد حمل كل فرد مندبلاً بيده راح يحفف به جبهته وعنقه منتفخ الوجه
احمره ، وفريق آخر كان جالسا على الديوان المربع الذي يدور
حول جدران الغرفة وقد انصرفوا الى مشاهدة المباراة

ودخل برتان باسمه وصافح الجميع وبدأ كانه في بيته
وهتف به البارون دي يا فيري

— اني احبذك !

— انا طوع امرك

ودلف الى غرفة الثياب لنزع اردبته .

فبذل مدة طويلة لم يشعر برتان بمثل هذا النشاط واغلب الظن

انه سيقوم بمبارزة رائعة فهو يشعر بصبره بفرغ للشروع بها كأنه تلميذ يستعد للعب في مباراة .

وما ان رأى نفسه امام خصمه حتى هاجمه بلا هوادة وخلال عشر دقائق كان قد لمسه احدى عشرة مرة وانهبه لدرجة جعلت البارون يطلب الرحمة . ثم لعب مع اثنين آخرين .

واكسبه الحمام البارد الذي اخذه بعد اللعب شعوراً بالبرد حمل ذاكرته الى شبابه يوم كان في العشرين وكان يثب الى السين من فوق الجسور في الخريف ليستحوز على اعجاب البورجوازيين .
وسأله صديقه مادان :

— ستعيشى هنا ؟

— اجل .

سندجلس مع الرفاق الآخرين . هيا فالساعة السابعة والرابع وخلال تناولهم الطعام دار الحديث في مجلته حول النساء وراح كل منهم يتحدث الآخرين عن مغامراته العاطفية محتفظاً باسم عشيقته او ذا كراً صفة من صفاتها او ملامحاً اليها باسم صغير . وما ان جاء دور برتآن ح قال بتحفظه المعتاد :

— اما انا فاني قانع « بالماذج (١) » .

« ١ » mod يطلق على المرأة التي تقف عارية امام الرسام

ثم انتقلوا الى موضوع السن وهل يعوق الرجل عن السير
قدماً في مغامراته فاجمعوا ان الرجل في باريس لا يهرم والنساء
الرخيصات لا يابهن بالسن فاكثرهن يفضلن متمولاً كهلاً على
فتى مملق .

ونهضوا . بعد ان استعرضوا اسماء الملاهي التي يمكن قضاء
السهرة فيها :

السيرك . الايبودروم . عدن . والفولي برجير . . .
وبانت اسماعهم موسيقى بعيدة وهم خارجون . فقال روديكان
— اسمعوا . في النادي موسيقى هذه الليلة .
فاجاب برنان : اجل فلنمض عشر دقائق في الاستماع اليها .
وعبروا غرفة البليارد وغرفة الالعب فوجدوا انفسهم في شبه
شرفة تطل على المسرح وكان هناك بضعة رجال جلوساً في مقاعد
مريحة وفي الاسفل قد تبعثر بضعة عشر شخصاً بين المقاعد الخالية .
كان اوليفيه يعبد الموسيقى ويدمن عليها كما يدمن المرء
تعاطي الافيون فهي تحمله سريعا الى عالم مغمم بالاحلام .
فما ان جرفته فيض الانعام حتى احس بنفسه محمولا على اجنحة
سحرية من النشوة جعل جسمه وعقله في حالة هياج عجيب واندفع
خياله مجنوناً بتأثير النغم العذب فنام في عالم كله سحر وفنون

واحلام مذهب الحواشي واطبق جفنيه وصالب ساقيه وترك ساعديه
يهبطان الى جنبيه وكان على مثل هذه الحالة يرى كل ما يعبر امام
ناظريه او امام عين خياله .

وعزفت الفرقة قطعة لها يدن ، فاغمض الرسام عينيه واستعاد
في مخيلته منظر الغابة والحشد من الناس والعربات امامه ، في
المركبة ، الكونتس وابنتها ..

وخيل اليه انه يسمع اصواتهما ويصفي الى حديثهما ويشعر
بحركات المركبة ويستنشق عبير اوراق الشجر

وقطع عليه جاره هذا الاستغراق مرات ثلاثا فكان لا يلبث
ان يستعيده في كل مرة كما يستعيد المسافر في البحر دوي الموج
عندما يأوي الى سريره بعد انقضاء الرحلة .

وكان الوجهان الجميلان ما تلبث امام ناظريه طوال العزف
فكان تلك الزهرة في الشمس الماتعة قد طبعت الصورة في اعماق عينيه
ونهض معذراً لرقيقه بشي من التعب يدعوه للانسهاب ولم
يكن به في الواقع اي عناء انما على العكس كان بالسبع النشاط
والحيوية الا انه رغب في الانصراف كي ما تنتهي سهرته على طاولة
البسكار تلك الليلة

وفي صبيحة اليوم التالي نهض بعد ليلة ارقه من تلك الليالي

التي تدفع بالفنان في توفر اعصابه ، الى العمل الصارم المتواصل . وقرر
الآن يخرج مطلقاً وان يعمل حتى المساء .

وكان يومه رائعاً : فقد اندفع في عمل سهل كانت الفكرة
تنسأل من رأسه هينة فينقلها فوق اللوحة جلية قوية .

واغلق ابواب مسكنه فخيم السكون المطبق نتيجة لانفصاله
عن العالم الخارجي وراح في شبه استغراق رוחي فني يعمل ويعمل ...
وقد غاب بوعيه عن العالم ! فلا شيء يعكر عليه انكبابه على لوحاته
حيث كانت الصور تتكون تحت مس فرشاته بطريقة شبه سحرية
واحس بما يشبه نوبات الانتاج الثر . وفي المساء كان تعباً فأوى الى
فراشه لا يحلم بسوى وليمة الغد .

وكانت المائدة غنية بالالوان ، فهو يعرف في مدام غيروا عشيقته
النهم المهنذب ، وبالرغم من مقاومة ضيوفه العنيدة فقد تمكن من
استقاظهم الشامبانيا .

قالت الكونتس : ولكن الصغيرة قد تسكر .

فاجابت الدوقة مداعبه : - وما ذا في ذلك ؟ لا بد للمرء من ان
يسكر ولو لمرة واحدة في حياته ! وقد احس الجميع لدى عودتهم الى
المرسم بشيء من تلك البهجة التي تنبت للاقدام اجنحة !

وكان على الدوقة والكونتس ان يحضرا اجتماعاً في ندوة « الام

الفرنسيه « فشاء تا توصيل الفتاة الى البيت قبل ذلك غير ان برتاف
عرض ان يصحبها هو ليقوما بجولة على الاقدام . وخرج الاثنان ..
قالت آيت : - لتتخذ اطول السبل .

— اتجبن التزه في حديقة مونسو ؟ ستشاهدين هنالك عربات
الاطفال ومرتباتهم انه مكان جميل .
— كم احب ذلك !

واجتازا شارع فالسكي ، وعبرا السلسلة الذهبية التي تغلق مدخل
هذه الحديقة الخلابة الاناقة ، العارضة في قلب باريس جمالها الاصطناعي
المختوض في وسط قصور النبلاء والامراء .

وعلى طول الماشي المحفوفة بالخمائل والازهار كان سيل غير
منقطع من نساء ورجال يجلسون فوق المقاعد الحديدية ينظرون الى
السابلة في شبه استعراض . وفوق الماشي الضائقة بين الخمائل الخضر
كانت جموع الاطفال يلعبون ويمرحون تراقبهم اعين الماريات اليقظة
او تتابعهم انظار الامهات القلقات . وكانت الاشجار الهائلة مستديرة
الفمم كأنها ابنية مقببة من اوراق ، الكستناء العملاقة بخضرتها القائمة
وقد تدلت منها عناقيد حمراء وبيضاء ، والسيكومور النبيل ، والنباتات
التريفية كانت بسوقها المتسلقة تسبق على الحشائش المتماوجة منظرأ
جذابا اخذاً ...

كان النهار حاراً واليام قد شرع بتريده هديله بين الاوراق
منتقلا من قمة الى قمة بينما راح الدوري يستحم في قوس قزح شكله غبار
الماء المندفع من الرشاشات تحت الشمس الماتعه ... وظهرت التماثيل
الناصعة سميدة فوق قواعدها في وسط هذه الطراوة المضررة . فهذا
شاب رخامي جالس يحاول استئصال شوكة ، لم يهتد اليها ، من قدمه
وكانها قد غرست في تلك القدم اثناء مطاردته (لديانا) الواقعة بعيداً
تحت خميلة تختبي فيها اثار معبد وتماثيل اخرى تنعق بهيام على شاطئ
البحرات او تحلم جالسة وركبها في يديها ...

وثمة شلال صغير يهدر منزلقاً فوق صخور لامعة الجمال ...
وشجرة مقنطرة تتسلقها لبلابة فاقمة الخضرة ... ومدفن قديم يحمل
كتابة ... وثمة اثار حجرية لا تذكر بالا كروبول كما ان هذه
الحديقة الصغيرة الانيقة لا تذكرك بالغابات العذراء ...

ان هذا المكان هو الوحيد الذي يتيح للفنان ان يشاهد
تستطيع ان تقدمه الطبيعة في قلب باريس كما تقدم لنا المسارح زراً
مختارة من الحياة ...

منذ سنوات واوليفيه برنان يقصد هذه الحديقة يومياً ...
ففيها يستطيع مشاهدة الباريسيات في اطارهن الطبيعي ... « ان هذه
الحديقة خلقت لكل شخص جميل انيق . اما ما عدا ذلك فيشوه من

جمالها الخلاب . « كما كان يردد دائماً . . وفيها كان يتنزه الساعات
الطوال متعرفاً على كل نبتة او كل وجه من وجوه روادها المعتادين .
وهو يسير الآن الى جانب آنتيت على طول الممشي وقد انصرف
نظره الى الحياة النشطة في هذه الحديقة .

وهتفت آنتيت : - انظر ! ما اجمله !

واشارت الى طفل ذي حلقات ذهبية تنوج رأسه وهو يرنو
اليها بعينين زرقاوين بريئتين . . وقد بدا مندهشاً معجباً .

ثم مروا بشبه استعراض للاطفال ، فكان رؤية هذه الدمى
الحية المزدانة بقشيب الثياب ، جعلها ثرارة ومحبة للجدل

كانت تسير الى قرب برنان بخطى قصيرة مبدية ملاحظاتها
على من يمر ان به من اطفال : فالسبين منهم كان يوحى اليها
ملاحظات مضحكة والشاحب يثير فيها عاطفة الشفقة والحنو

وكان برنان يصغي اليها بكل جوارحه وقد اطربه حديثها اكثر
من رؤية الاطفال والعربات فكان يتمم : « يا للركة » غير ان ذهنه لم
ينصرف عن التفكير في صنع لوحة تمثل جانباً من هذه الحديقة مع
قبضة من المربيات والاطفال . كيف لم يخطر له ذلك ببال قبل الآن ؟

وسألها : او تحبين هؤلاء « العفاريت » ؟

- اني اعبدن !

وخيل اليه ، وهو يراقبها تنظر اليهم ، ان رغبة ملحة تكاد تدفع
بها الى اخذ هؤلاء الاطفال بين ذراعيها وتقبيلهم . . . انها رغبة مادية
عاطفيه . انها رغبة ام المستقبل انك الغريزة السرية المخبئة في عروق
هذه المرأة !

واحسنت بها ميلا الى الثروة فجارها فراحت تحذنه عن
الجياد ، ففي (رونسير) حيث ربيت كانت السيدات تهتم اهتماما
خاصا بتربية الجياد وكان اهتمامهن بالزوج اقل منه بالشقة التي قد تضطرون
الى استئجارها بين الشقق المعدة للايجار في البنايات الكبيرة
ثم تابعا سيرهما صامتتين وعبرا باحواض تسبح فيها ضروب من
طيور البط والجمع وكان برنان تائها في مهامه افكاره وتوقف فجأة
وهتف :

— ما اجمل ان يسير المرء هكذا !

ثم استدار الى آنيث وقال :

— قولي يا صغيرتي . ايزعجك ان تقفي امامي مرة او مرتين

لا صورك ؟

— كلاً . انه لمن دواعي اغتباطي

— انطري جيداً هذه الفتاة السارحة مع آمالها . . .

اجل . . . ستجلسين كجلستها فوق مقعد وتأخذين كتاباً

فوق ركبتيك وتحاولين ان تعملي كما تعمل .. احدث لك ان حملت
مستيقظة ؟

— اجل ...

— بم ؟

وحاول ان يحملها على الاعتراف الا انها لم تشاء ان تسر اليه
شيئاً فاعتصمت بصمتها وراحت نداور في الحديث منصرفه بكلماتها
الى مراقبة اسراب البط العائمة فوق الماء تلاحق فئات الخبز تلقيه اليها
سيدة من المتزهات ... وبدأت مستاءة من سؤاله كأنه مس منها وتراً
بالغ الحساسية ...

وتم انتقلت بالحديث فروت له طرفاً من حياتها في روتسيير
حيث كانت تقرأ لجدتها الكتب بصوت عال .. لا بد ان تكون
تلك الجدة المسكينة الآن تقايي لوحدة والضجر ..

وشعر الرسام وهو يصغي اليها بمرح طباغ يسيطر على كل
جراحة فيه .. مرح لم يشعر به قبل ذلك ابداً ... فكان كل ما رويه
له من هذه الثروة البريئة الفارغة السخيفة يثير في نفسه سروراً كبيراً
واهتماماً متزايداً ...

وقال لها : لنجلس ..

واقعدا كرسياً قرب الماء وجاءت بجعتان تطفوان امامهما

يحدوها أمل القاء بعض الطعام اليهما ..

ووجد برنان نفسه وقد قفزت ذكريات كثيرة الى وضع
ادراكه .. تلك الذكريات القديمة العزيزة التي كانت غارقة في لجج
من النسيان الرائدة .. فكان يداً قوية اخذت بهز بحيرة ذكرياته
الهائلة ... كما يحدث له كثيراً ، لجرد رائحة تصفع نفسه ، او ثوب
نسائي يخطر امامه ... وراحت ذاكرته تعرض امامه شريط من
ذكريات قديمة عابقة بالف عطر وعطر ... مفعمة بالف لون ولون
امسيات صيف حارة ، واصائل شتاء باردة .. بساتين وحدائق وبيوت
قطع من اثاث .. وروائح عطرية ... وبشكل خاص تلك الروائح
التي لا تنسى .. والتي تبعث ذكرياته .. او تحفظ لها جدتها كما تحفظ
روائح « الآرومات » المومياوات من التحلل والفناء ..

اهي خضرة الحائل ، ام الماء السلسل ام العشب الندي ؟ ما الذي
اثار فيه هذا الحنين الملحاح الى الماضي ؟ اتراه صادف بين المتنزهات
وجهاً ذكره بوجه من ماضيه ؟ ربما ... ولكن اين وكيف ؟
ليس يدري .. كل ما يعلم ان نواقيس قلبه اخذت تدق دقا عنيقا
موقظة بين حناياه ماضيا حاراً عباقي النفع بعطر فواح ...
وقال لها : - لقد برد الجو .. هيا بنا نعود ..

وسارا .. ولما في طريق اوتبهما بعض الفقراء جلوسا فوق

المقاعد الحجرية ...

ولفت وجودهم نظر آيت التي استغربت كيف يعيش مثل
هذا البؤس في جو كجو هذه الحديقة الفتاة الفخمة ...

وكان اوليفيه مازال هائما مع ذكريات ايامه الخوالي ...
وكان ذبابة تطن في اذنيه طنيناً مزعجا لا ينتهي ...

— ما بك ؟ انك تبدو كثيرًا جدا ...

واتفضل لدى سماعه قولتها .. ترى من الذي وجه اليه هذا
السؤال ؟ هي ام امها ؟ كلا ليست امها .. فصورها الآن قد تغير
وربما كان صوتها يأتي من مهامه الماضي السحيق ...

واجاب باسما : — ليس بي شيء . انك مسلية جداً ، ولطيفة
جداً . انك تذكريني بأمك . كيف لم يفتن الى مدلول هذا القول
المعتاد الذي خرج من شفنين لاعهد له بهما ؟

— تكلمي .. تكلمي ..

— عمّا ؟

— حدثيني - عما هلمك معلمائك !

وعادت تثرثر كطفل منطلق من المدرسة بعيد نهار اسر

طويل ...

وراح يصغى وقد اخذه اضطراب مزاييد .. كان يراقب

عباراتها ، ويستوعب جملها فهذه الفتاة ما تزال غريبة عن قلبه ..
ولسكنها لا نعدم كلمة او تعبيراً تخرجه حنجرتها يذكره بامها يوم
كانت شابة مثلها ... وكم كان يفتنص دهاش لدى سماعه غنة صوتها .
انه نفس الصوت الاغن ..

لا ريب ان ثمة اختلافا كبيرا حتى لتنكر كل صلة بينهما ..
غير انه لا يلبث ان يأتيك نبذة تيقظ الذكري على حين غرة .
وكان قد لحظ الشبه العظيم في هيئتي الام والابنة الا انه الآن ، وهو
يصغي الى ثرثرة الفتاة ، يدير رأسه ناحية ، فيخيل اليه انه يعود اثني عشر
عاما الى الوراء ... ويصغي الى عشيقة الشابة تحذثه ...

وكانا قد قاما بدورة الحديقة المرة الثالثة امام نفس الاشخاص
وذات الاشياء والاطفال ...

وراحت آنيث تسأله عن القصور المحيطة بالحديقة وعن
اصحابها .. انها تريد معرفة كل شيء ... بشيء من النهم ... فذاكرتها
النسائية بحاجة الى ما يملؤها وهامي تصغي بعينها اكثر من اصغائها
بأذنها .

واتبه برتان وهما يجتازان بوابة الحديقة ان الساعة الرابعة
اوشكت ان تدق .

قال لها : اوه . يجب ان نعود ..

ولمّا متمهين شارع ما ليرب ...

وما ان غادرها حتى اجتاز ساحه الكونكوردا ليقوم بزيارة على
صفة السين الثانية . كان يتم ببعض الاغاني ، واحس رغبة في العدو
وكم بدت له باريس خلافة كما لم يرها من قبل وفكر : « لا ريب
في ان الربيع هو الذي اسبغ على الكائنات كل هذا الرواء »

كان في مثل تلك الحالات التي تنفتح فيها الروح فتفتحهم كل شيء
بمزيد من الغبطة ، فتفتح العين على كل ما في الحياة من جمال فكاها
تزداد حساسية ونفاذاً فيتاح للمرء ان يتذوق الجمال باوسع معانيه كما
لو كانت بدقادة قد مسحت الارض فاحالتها ريانة ومررت على الكائنات
فحركت فيها الحياة الراكدة كما نشد رقاص ساعة ، توقفة فتعود الى
العمل النشط الريب ...

وفكر وهو يداعب بانظاره الف شيء جميل : - لا اعترف بان
ليس ثمة ما يشكل موضوعاً للوحة ! « ذلك أن ذكاء المنفتح على جمال
الحياة وروائها جعل كل عمل فني بالنسبة لهذا الجمال شيئاً سخيلاً ...
وان ثمة طريقة مثلى لتصوير الحياة على حقيقتها وطرافتها . ودهمة فجأة
الرغبة في العودة الى الرسم . فاستدار على اعقابهِ وسار - حتى بلغ مرسمه
فاغلقه على نفسه ..

وما ان وجد نفسه امام القماش المعد للرسم حتى احس تلك الرغبة

في العمل تضحك والقي بجسمه فوق الديوان وراح يداعب احلامه .
لقد بدأت نقطة التحول في نفسه تقوى ونجلي . فهو لم يعد
ذلك الرجل المشبعة فيه كل الرغبات .. فيها هو بينه فارغاً . . ومرسمه
الكبير خاوياً . وخيل اليه ان طيف امرأة يعبر امامه . . . امرأة حبيبه
منشودة . . فمنذ زمن بعيد فقد نفاد الصبر الذي يشعر به الرجل وهو
مقيم بانتظار عشيقته . . وها هو يشعر فجأة ان تلك الحبيبة قد ابتعدت
عنه وهو راغب في قربها برفز اعصاب شاب مرهق . . وراح
يستلذ بجميع ذكريات حبه * فكل ما في هذه الشقة يذكره بها . . .
باقوالها وبحركاتها وبقبلاتها . . انه يستعيد بعض الايام . . بعض
الساعات . . بل بعض اللحظات . . وهو يحس مداعباتها في الايام
الخالوي تلك . . .

ونهمض . . وراح يزرع الغرفة مفكراً . . . فالبرغم من هذه
العلاقة التي ملأت وجوده فترة طويلة الا انه كان وما زال يشعر ان
حياته فارغة . . قاحلة . . وانه كان دائماً وحيداً . . . فبعد ساعات
طوال يقضيها في عمله يتلفت فلا تصطدم عيناه بسوى الجدران الباردة
الجهمة . . . فهو لكون حياته خالية من المرأة ، كان عليه حين يشاء
الاتصال بحبيبته ان يرسم خطى اللص بينما يقضي الساعات الطوال
يقتل وقته بطرق شتى كان الاخرى به ان يقضيها برفقة المرأة المحبوبة

التي تشاركه الحياة . فلو كانت تعيش معه تلك المرأة لما كان عليه
ان يرتاد النادي والملاعب والوبرا والابودروم بمثل هذا الالحاح حتى
غدا لديه ذلك عادة مسيطرة ...

ففي الايام الخوالي كان يثور على النظام الاجتماعي الذي يحول
دون اتصاله الدائم بمعشوقته ثم اخذت ثورته تضؤل وارتضى هذه
الحواجز قائما لنفسه بالحرية ... اما اليوم فانه يحس ندامة لما اقدم
عليه . . . ويتعنى لو انبجح له استعادة تلك الايام لينهج غير ذلك النهج .
لقد اصيب بنكسة حب ... ولعل للربيع بد في ذلك ... ام
انه الباعث هو سماعه لصوت يشبه صوت معشوقته يوم كانت شابة
نضرة ...

ان الاشياء الصغيرة التافهة كافية لاثارة الحنين في قلب رجل
يكتمل ، فيشير ذلك الحنين بدوره الماء وندامة ..

وكما في الماضي ، شعر بحاجة ماحدة لرؤيتها . . برغبة تغلغلت
في روحه وعروقه تغلغل الخمر وراح يفكر فيها كما يفعل عاشق مرهق
ومن ثم عزم على الذهاب لرؤيتها وتناول كأس من الشاي عندها بالرغم
من انه شاهدها في ذلك الصباح بالذات ..

وبدت له الساعات طويلة لاتنقضي وما ان بلغ شارع (مارب)
حتى ادر كه خوف حقيقي .. فقد لا يجدها . . وقد يتحتم عليه ان

يقضي سهرته هذه وحيداً كما قضي سهرات كثيرة من قبل ..
وعند ما اجابه الوصيف بان الكونتس موجوده احس فرحاً
حقيقياً يطغى على فؤاده وقال وهو يقف على باب الصالون الصغير
حيث جلست المرأة ان تحت مصباح تشتغلان :

— ها انذا ايضاً ..

وهتفت الكونتس : اهذا انت .. اى حظ سعيد !

— لقد شعرت بوحدة مره .. فجئت

— ان هذا لطيف منك ...

— او تنتظرون احداً ؟ .

— كلاً .. ولكن ربما .. لست ادري على وجه التحقيق .

وجلس وراح ينظر بعين الحقد الى ذلك الصوف الاسمر

الخشن الذي تنسجانه بسنانير طويلة من خشب : وسأل :

— ما هذا ؟

— انه اغطية .

— للفقراء ؟

— لاشك .

— انه قبيح جداً !

— ولكنه دافئ جداً

— ربما . ولكنه بالغ القبح وخاصة في وسط هذه الشقة طراز
لويس الخامس عشر حيث يداعب كل شيء فيها الانظار وعليكم ان
يكون احسانكم لاصدقائكم المعوزين اكثر اناقة .
فجر كت الكونتس كتفها وقالت :

— يا للرجال . ولكنهم في كل مكان ينسجون مثل هذه

الاعطية

— اعرف ذلك جيداً . . غير انه ليس من المستحب ان
يأتي المرء لزيارة اصدقائه فيجد اجمل السيدات وآنقهن يسجن وراءهن
مثل هذا الشيء القبيح المنفر . . فوق افخم الطنافس وادق الاثاث . . .
ارى ان اكنم ، في هذا الربيع ، احساناً سقيم الذوق !
وشاءت الكونتس ان تختبر صدق قوله فذشرت ما نسجت
فوق كرسي مغلف بالحريير الى قربها وقالت :

— في الواقع . . انه شيء قبيح .

ثم عادت العمل . وكان الرأسان المنحيان تحت النور الوردي
يتلقيان سيلاً من اشعته تنساب بين خصلات شعرهما فتسيل فوق
الحدود الاسيلة . .

ثم تنحدر منسالة فوق الثوبين فالايدي العاملة نسجاً . . . بينما
تتابع اعينهما هذا العمل بقليل من الاهتمام شأن من اعتادت انامله على

مثل هذا العمل حتى لعمل وعينه تتابعه دون ان يهتم عقله به كل الاهتمام
وفي زوايا الصالون الاربعة ، ارتفعت اربعة مصابيح من الصيني
فوق اعمدة من خشب قديم مذهب ، كانت تنشر فوق العنافس نوراً
لطيفاً يتخلل سترأ شفافة من الدانتيل تغلف زجاج المصابيح .

واختار برنان مقعداً شديداً المنخفض ، ذلك المقعد الذي
يفضله دائماً عندما يتحدث الى الكونتس فكانه جالس تحت قدميها ...
قالت له : لقد قت بزهره طويلة مع آنيث في الحديقة .

— اجل لقد ثررنا كصديقين قديمين . اني احب ابتك
حباً جماً . ان الشبه بينكما عظيم . وعند ما تنلفظ ببعض الجمل يخيل
للمرء انك نسيت صوتك في فمها ...

— لقد ردد ذلك زوجي كثيراً ...

وعاد ينظر اليها وهما تعملان مغمورتين بنسور المصباح ..
وعادت افكاره تعذبه وكانت تدور كلها حول بيته الفارغ البارد ...
برغم النار الموقدة في الموقد وعصرت هذه الفكرة فؤاده كأنه يدرك
ذلك للمرة الاولى .

آه ! كم من مرة تمنى لو كان زوجها هذه المرأة لا عشيقاً لها !
لقد فكّر فيما مضى بان يختطفها . يسرقها من هذا الرجل ... امّا
اليوم فهو يحسده . يحسده لانه ، بالرغم من انها تحذعه ، فهو يقيم

دائماً بقرّبها متمتعاً بلطف الاتصال بها كل يوم .
وكما نظر اليها احس رغبة في ان يسر اليها اشياء قديمة استعادتها
ذاكرته

حقاً انه ما زال يحبها . . بل اكثر من الماضي . . وهذا اليوم
اكثر منه في الايام الاخر . يريد ان يحدثها عن رغبته المتجددة فيها .
وعن احساسه بالشباب والنشاط . . وهو ينتظر بصبر فارغ ان تذهب
الفتاة الى فراشها باسرع وقت ممكن . . .

وكان دائم النظر الى ساعته صامتاً وقد سيطرت عليه فكرة
انفراده بها ودنوه منها حتى يلتصق بها ويلقي برأسه الى ركبتيها ثم
يتناول يديها فيلقي النسيج الصوفي والسنانير الطويلة الخشبية جانبا . . .
وفكر : انها عادة سيئة ان يسمح للفتيات الصغيرات بالسهر مع
الاشخاص الكبار . .

وسمع خفق خطوات في الغرفة المجاورة ثم اطل الخادم واعلن :
— السيد دي ميزاديو .

وثار في برتان غضب كبته وعندما صافح مراقب الفنون
الجميلة تحرّكت فيه رغبة في ان يتناوله من كتفيه ويلقي به خارجاً .
وكان ميزاديو حاملاً اخباراً كثيرة : الوزارة توشك ان
تسقط وهناك من يتمم بفضائح تتعلق بالمر كيز (رو كديان) واتبع

وهو يدنو الى الفتاة :

— ساجدكم بذلك فيما بعد .

ورفعت الكونتس ناظريها الى ساعة الحائط فتحققت من ان
العاشرة توشك ان تدق :

— لقد ازف وقت النوم يا بنيتي .

ودون ان تتلفظ بكلمة . نهضت وطوت نسيجها ثم قبلت امها
وصافحت الرجلين واتجهت الى غرفتها هادئة كأنها لم تحرك الهواء
اثناء عبورها الصالون .

وسألت الكونتس بعد ان خرجت ابنتها :

— هات حدثنا بفضيحتك .

— يتناقلون ان المريكزي روكديان الذي كان قد افترق عن
زوجته حبيبا وخصص لها دخلا ثابتا وجدته هي غير كاف ، فاستنبطت
طريقة فريدة واكيدته لترفع رقم هذا التعويض . فقد هيئت
طريقة جعلت الشرطه تضبطها في احد النزل في حالة مربية مع بعض
الناس واضطر ان يدفع الثمن الرجيع لشراء محضر الضبط الذي
نظم بها .

كانت الكونتس تصغي مفتوحة العينين وقد تركت النسيج
يسقط فوق ركبتيها .

وراح برتان ، الذي ساءه حضور ميزاديو خاصة بعد خروج الفتاة ، بنفى التهمة زاعماً انها افتراء ذني* من تلك الافتراءات التي يجمل بالمجتمع الا يعتمد الى ترددها ناهيك عن تصديقها . وغضب ، فنهض واستند الى المدفأة وراح يتكلم بشوارة اعصاب رجل مستعد لأن يجعل من مثل هذه القصة سبباً لعداء شخصي ..

ان رو كديان صديقه ، وان كان المجتمع استطاع الصاق تهمة الخفة والرعونة به الا انه لم يستطع يوماً أن يصمه بما يحط من كرامته كرجل . وقد اخذ ميزاديو على حين غرة ، فدافع ثم تراجع وانتهى به الامر الى الاعتذار ... :

— لا تؤاخذني .. فقد سمعت هذه الحكاية منذ لحظات لدى الدوقة دي مورتمان .

— ومن حدثك بها .. انها امرأة ولا شك .

— كلا . ابدأ . انه المركيز دي فارندال ...

واجاب الرسام محتدأ : هذا لا يدهشني منه !

وخيم صمت . وعادت الكونتس الى عملها . واستطرد برتان بصوت هادي* :

— اني اعلم جازماً أن تلك الحكاية لا ظل لها من الحقيقة !

وهو لم يكن يعلم شيئاً . فللمرة الاولى يسمع عن مثل هذه

المغامرة . و تراجع ميزادبو لما ادرك خطورة الموقف . وتكلم عن رغبته
في زيارة آل كوريل وفي تلك اللحظة ظهر الكونت دي غيروا عائداً
بعد تناول العشاء في المدينة . فعاد برنان يجلس وقد يئس من امكان
التخلص هذه المرة من الزوج . وقال الكونت :

— انتم لم تعرفوا بالفضيحة الكبرى التي تتردد هذا المساء ؟

ولما لم يجبه احد تابع :

— يبدو ان رو كديان قد فاجأ زوجته في اتصال اجرامي
اجبرها على دفع الثمن غالباً : وهنا شعر برنان بالخيبة فاقرب من
الكونت والقي راحتيه الى ركبتيه وراح يحدثه بنبرة رفيقة بما كان
يطلقه في وجه ميزادبو منذ لحظة

واقنع الكونت نصف اقتناع وراح ينحى باللائمة على نفسه لأنه
روى بخفة مثل هذا الحديث الذي قد يكون عارياً عن الحقيقة بل
مدسوساً .. واسند ذلك الى جهله وبراهة مقاصده . فالناس يروون
اشياء كثيرة خاطئة او عن نية سيئة .

وسرعان ما اتفق الاربعة على ان معظم الشائعات التي تتردد في
المجتمع كاذبة او خبيثة وان ليس للنساء عشاق بقدر ما يذاع عنهم
وان الرجال ليسو من الخفة والتحلل الخلقي بالدرجة التي تصورهم بها
التقولات . واختلصة ان ظواهر الاشياء اسوء كثيراً ولم يعد لدى

برتان ما يدعو له للاساءة الى ميزاديو بعد حضور الزوج . فانتقل به الى
الاحاديث التي بفضل خوضها وراح يمتدحه متظاهراً بالاعجاب به .
بينما خالط شعور الكونت بانه هو الرجل الذي يلقي الوفاق والسلام
حيثما حل واني اقام .

ودخل خادمان بخطى خرساء فوق الطنافس يحملان مائدة
الشاي . ونهضت الكونتس لتقدمها الى ضيفيها بعناية بالغة على الطريقة
الروسية وقدمت كأساً لميزاديو وآخر لبرتات ثم عادت تقدم لهما
صحفاً تحمل السندويش الدسم والحلويات المصنوعة على الطريقة
النمساوية والانكليزية .

ودنا الكونت من مائدة متحركة تحمل زجاجات المشروبات
والاقطاح وصب لنفسه كأساً تجرعها ثم توجه الى غرفة مجاورة
اختفى فيها .

ووجد برتان نفسه من جديد امام هذا المزيج ميزاديو .
وعاودته الرغبة في القائه خارجاً . . بينما كان هذا منصرفاً الى رواية
قصص حدثت له اولسواه . وكان الرسام لا يفتأ ينظر الى الساعة التي
بدأ عقرباها يدنوان من منتصف الليل . وادركت الكونتس ان
عشيقةا يحمل اليها ما يقوله . وبراعة سيدة الصالون التي تستطيع ان
تفهم ضيوفها ، في ايه ساعة ، ودون ان تثبت بكلمة ما ، اذا كان عليهم

ان ينصرفوا او يقيموا ، بمجرد تلك البرودة والضجر الذان تستطيع
اثارتهما حولها كما لو كنت قد فتحت نافذة في مساء بارد .

واحس ميزاديو هذه البرودة تنتشر حوله وتجمد افكاره ،
وادرك ان خير ما يفعله هو النهوض والانصراف .

وكرجل يعرف اساليب اللياقة ، شاركه برتآن حركته ،
فنهض الرجالان وسارا فتبعتهما الكونتس التي راحت تحدث برتآن ثم
استوقفته امام الباب بينما كان الوصيف يساعد ميزاديو على ارتداء معطفه
ووجد مراقب الفنون الجميلة نفسه منتظراً امام الباب الخارجي
امام الرصيف فاقام لحظات ثم قرر الانصراف وحيداً اذ ان مدام غيروا
كانت منهمكة في الحديث مع الرسام .

واغلق الباب خلفه . وقالت الكونتس لبرتآن بمنتهى الدعة :

— ولكن .. لم تنصرف مبكراً هكذا ؟

واذ بهما يدخلان الصالون الصغير وما ان جلسا حتى قال برتآن :

— يا الهي كم ساءني وجود هذا الحيوان ..

— ولم ؟

— لقد حرمني منك .

— آه . ليس كثيراً كما تتصور .

— هذا ممكن . ولكنه قد ازعجني .

— أو تغار ؟

— ليس من الغيرة في شيء ، ان يشعر الانسان بثقل الآخرين ،

وعاود الجلوس فوق المقعد الصغير وراح يداعب بأصبعه قماش

نوبها وهو يصف لها الحرارة التي انزلت هذا اليوم في قلبه ،

كانت تصغي اليه مأخوذة ، شديدة الاغتياب ، وقد راحت

تمخلل شعره المبيض باناملها كأنها تسدي اليه بذلك شكرها . قال لها :

— كم أمتى ان احيا ابدأ الى قربك .

وكان هذا الزوج النائم في غرفة مجاورة دون ان تساوره

الشكوك ، لا يبرح من فكره . وتابع :

— لا يوجد في الواقع سوى الزواج ليوحد وجودين ...

— وتمتعت وصوتها يغص بالشفقة عليه وعلى نفسها :

— يا صديقتي المسكين !

والقى بحذو الى ركبتيها وراح يدنو اليها بحنو حزين ، مؤلم ،

واقل احتراماً منه عند ما كان يحول بينه وبينها ، يزاديو وابتها وزوجها .

وقالت بابتسامة وهي ما زالت تداعب شعر برنات باناملها :

— يا الهي .. كم يبدو شعرك ابيض ! لقد اختفت آخر شعره

سوداء فيك .

— اني اعرف ذلك للأسف ... انه يسرع .. يسرع ...

وخشيت ان تحزنه :

تصحيح ولكنك بدأ فوادك ببعضان يوم كنت في شرح
شبابك . فقد عرفتك دائماً وشعرك ملوح وفلفل ...

— اجل . هذا صحيح .

ولتمحور كل ما قد تتركه كلماتها من اثر مؤسف انحنيت فوقه
وتناولت جبهته وراحت تطبع فوقها قبلاات بطيئة حانية متواصلة كأنها
لا تود لها انقضاء . . ثم نظر كل منهما في عيني الآخر باحثين عن
جبهما القديم ...

قال : — كم اود ان امضي يوماً كاملاً بالقرب منك ..
واحس هذه الرغبة المبهمة في الانصراف اليها تهزه هزاً عفيفاً ..
كان منذ لحظة يعتقدان مجرد انصراف هؤلاء الناس وانفردهما
احدهما بالآخر يكفي لاطفاء ذلك الاوار الذي ما فتى يعذبه
منذ الصباح . . وها هو منفرد بها وما زالت حرارة قبلااتها فوق
جبهته ، وحرارة جسمها تصافح خده عبر ثوبها ... انه ما زال يشعر
بنفس الاضطراب . . بنفس الرغبة الشديدة في حب مجهول . . بعيد
المنال ...

ويخيل اليه انهما لو انفردا في الغابة بعيدين عن هؤلاء الناس
الذين يحيطون بهما اذا لامست طاع اطفاء الغايل الذي يعمل في احشائه .

واجابته : - يا لك من طفل ! واسكننا نلتقي كل يوم تقريبا
ورجاها ان تسمى لمرافقته الى احدى الضواحي حيث يتغديان
كما سبق لهما ان فعلا اربع او خمس مرات .

وادهشتها هذه الرغبة الصعبة التحقيق خاصة وابنتها قد عادت :
غير انها ستحاول مع ذلك . ولكن لا يمكن ان تناح لهما
الفرصة الا بعد سفر زوجها الى (رونس) بعد السبت القادم .

وقال : - وحتى ذلك التاريخ ، اين يمكن لى ان اراك ؟

- غدا مساء لدى آل كوريل . تعال ايضا الى هنا يوم
الخميس الساعة الثالثة اذا كان لديك الوقت كما اظن اننا سنتغدى الجمعة
لدى الدوقه .

- هذا احسن ونهض :

- الى اللقاء

- الى اللقاء يا صديقي .

وظال واقفا دون ان يعتمد الى الخروج لانه لم يكن قد توصل
الى قول شيء من كل ما جاء من اجله وبقيت افكاره متخمة باشياء كثيرة
لم يعبر عنها ، خاصة باشياء مبهمه ابت ان تنطلق من عقالها .

وردد : - الى اللقاء . . . واخذ يدها :

- الى اللقاء يا صديقي

— احبك .

ورشقته باحدى ابتساماتها .. تلك الابتسامات التي تعان فيها
المرأة للرجل في لحظة واحدة كل ما يمكن ان تمنحه اياه .
واضطرب فؤاده ورد للمرة الثالثة : الى اللقاء .

وخرج .

كان يحيل للناظران كل ما في باريس من عربات ومركبات

حجت في هذا النهار الى (قصر الصناعة) .

فما ان آذنت الساعة التاسعة صباحا حتى توافدت من جميع الشوارع والجادات ومن فوق جميع الجسور الى معرض الفنون الجميلة حيث دعا كل من في باريس من فنانين كل من في باريس من خلائق لحضور عرض ثلاثة الاف واربعماية لوحة .

كان خط طويل متراس من الناس يتزاحم بالمناكب حول الباب وكان ليس به شوق لمشاهدة معرض النحت فانصرف الى قاعات عرض الصور . ففي الماشي والمصاعد علقت لوحات من نوع خاص عملت لتزين مثل هذه الاماكن او لعل اللجنة لم تجرؤ على رفضها فعلقتها في هذا المكان .

وفي الغرفة المربعة الفسيحة كان غليان شديد . وكنت تستطيع تمييز الفنانين بسهولة فهم في نشاط مستمر تلعلع اصواتهم وتبدر منهم

اشارات أمرة منسلطة . وكان بعضهم يجر اصدقاءه بساكنهم ليلفت
 انظارهم الى لوحات مينة ويشرح لهم نواحي الجمال فيها بلهجة الخبير .
 كان المرء يرى من هؤلاء الفنانين كل ضرب : طوال بشعور
 مسترسلة وقد ارتدوا قبعات لينة رمادية او سوداء باشكال غريبة لا
 توصف كأنها الشرفات الواسعة بحفاف عريضة مهدلة تخفي سمات
 وجوههم . ومنهم من كان قصيراً نشيطاً ذا ربطة سوداء كبيرة وقد
 ادخل جسمه في ثياب غريبة التي تعرف منها ان لا يسها من طبقة القوضويين
 ومنهم من كان ذا سمات وشاردة من كبار الفنانين المشاهير
 او من اعضاء الاكاديمية وقد زينت عرواتهم سترهم تلك الورود الحمراء
 منها الضخم ومنها مالا يرى الا بالمجهر تبعاً لمفهوم الاناقة لدى كل منهم
 وفوق جدران الغرفة المربعة علق اللوحات التي نالت الاستحسان
 وشرف العرض في هذه القاعة . كانت تملك اللوحات بدعسة الصنعة
 تلفت انظار الداخل باطاراتها الجميلة اللامعة وبالوانها الجديدة الصارخة
 وقد زادها (الفرنيش) لمعاناً تحت النور القوي الهابط عليها من عل .
 وتتصدر المكان لوحة تمثل رئيس الجمهورية تقابلها لوحة لجنرال
 مثقل بالاشربة الذهبية - متقبع بعمره ذات ريش انعام طويل ، مرتدياً
 سروالاً احمر من صوف . تجاورها صورة تمثل عرائس البحر عارية ،
 واخرى تمثل مركبا يغرق وقد او شكت الامواج ان تبتلعها وثالثية

تصور شارعا في مدينه شرقية وراية تربنا الشاعر داتي وهو يهبط
الى الجحيم .

وكانت القاعة غاصة بصور الفرسان ، ومشاهد الصيد في
الغابات ، والنيران في المراعي ، وثمة لوحة تمثل سيدين من القرن الغابر
يتبارزان في زاوية الشارع ... وغيرها .. وغيرها كثير .. وبالاختصار
كان في تلك القاعة نماذج من كل ما عمله الرسامون في باريس ومن
كل ما سيعملونه حتى نهاية الدنيا .

كان اوليفيه واقفا بين زملاء من اشهر الفنانين منهم اعضاء
في المجلس الفني .. ومنهم في اللجنة التحكيمية ؛ وكان الجميع يتبادلون
الآراء . ولم يكن برناب مرناحا للصورة التي تقدم بها الى العرض
وبالرغم من التهاني التي انهالت عليه لم يكن واثقا من نجاحه بها .

واندفع نحو الباب عند ما رأى الدوقة دي مورتان قادمة :

وسأله : - ألم تصل الكونتس بعد ؟

- لم ارها .

- والسيد دي ميزاديو ؟

- ولا هو ايضا .

- لقد وعدني ان يكون هنا في العاشرة . فوق هذا السلم

ليقودني الى القاعات .

— أو تسمحين لي بأن أقوم مقامه ايها الدوقة؟
 — كلا . كلا . ان لاصدقائك حاجة بك . وسنراك بعد مدة اذ
 اننا سنقتدي سوية هذا اليوم .
 ووصل ميزاديو راكضاً . وكان قد تأخر قليلاً في قاعة النحت
 فراح يعتذر لاهث الانفاس .
 قال : — من هنا ايها الدوقة من هنا . اننا نبدأ من اليمين .
 واختفيا في لجة من الرؤوس . وبدأت الكونتس دي غيروا
 متأبطة ذراع ابنتها تبحث بعينها عن اوليفيه برتان .
 ولحهما فاسرع اليهما وحياهما .
 وقال : — يا الهي كم اتما جميلتين ! حقاً ان نايت قد ازدادت
 وسامة خلال ثمانية ايام ...
 ونظر اليها بعين فاحصة . وتابع :
 — ان تقاسيم وجهها اشد لطفاً ، واعمق تعبيراً ، وبشرتها اكثر
 رواءً ولمعاناً ..
 ليست الآن تلك البنية الصغيره بل تلك الباريسية الحسناء .
 ثم انتقل الى حدث اليوم الجلل فقال لهما : لنبدأ من اليمين ..
 ولناتحق بالدوقة .
 وسألته الكونتس بالغه الاهتمام بهذا العرض كأنها من اصحابه

— ما هو رأيهم ؟

— صالون رائع . وراح يعدد لها اللوحات التي استحوزت على استحسانه .

وقالت له : — وانت ؟

— انهم يشنون على لوحتي . غير اني لست راضيا عنها .

— انت لا يرضيك اي شي ...

— كلا . احيانا ... اما اليوم ففي الواقع اني اشعر بانقباض وبآني على صواب في تشاؤمي .

— ولم ؟

— لست ادري :

— هيا لنرَ

وبلغا لوحته . كانت تمثل فلاحتين تستحيان في غدير . وكان امام اللوحة جمع من الناس يتمتع بهما . . وسرَّت بها . وقالت بصوت خفيض — انها رائعة . انها جلية . انك لم ترسم اجمل منها قط .

والتصق بها بهيام وقد احس في كل كلمة من كلماتها مهدئا لآلامه وبلسما لجراح نفسه .

واقنن ان الحق ما قالت فعيناها الذ كيتان لا تخطئان . وتناسى انه منذ اثني عشر عاما كان يتهمها بانها لا تفهم من الفن سوى المهرج

والاناقة والنعمومة امّا الروح الفنية الحقة فبعيدة عن ادراكها ...
ثم راحوا يطوفون في قاعة المعرض ... متقلبين من قاعة الى
قاعة وقناطويلا وهو يريهما اللوحات ويشرح لهما نبذاً عنها . كان سعيداً
بينهما سعيداً بهما .

ومآله الكونتس فجأة :

— كم الساعة الآن؟

— الثانية عشرة والنصف .

— هيا . سريعا الى الغداء . لا ريب في ان الدوقة تنتظرنا لدى

ليديون فقد كلفني باصطحابك اذا لم نلتق بها في القاعات ...

كان المطعم في شبه جزيرة من الاشجار والحوائل شبيهها بخليّة
نحل ناشطة الحرّة ، تعلو فيه ضجة اقداخ وصحاف ونداءات وتنساب
عبر النوافذ والابواب المفتوحة على مصاريحها . وكانت الموائد مزدهمة
وقد احاط بها جمع غفير من الآكلين

وكان الكل يشرب ويهرج ويقصف وقد اشعلت فيهم الخمر
روح المرح والاغتياب التي كثيراً ما تخمها شمس باريس الى القلوب ...
وقادهم خادم الى الجناح الذي احتجزته الدوقة واقامت فيه
تنتظرهم .

وما ان دخلوا حتى لمح برتان المركيز فاراندال بالقرب من

عمته ، منهمكا باسما ، وقد مد يده لتناول مظلي الكونتس وابنتها
ومعطفيهما . وشعر برتان باستياء مفاجي * وبرغبة في ان يقول اشياء
وقحة وغير مهذبة .

وشرحت الدوقة كيف التقت بابن اخيها بعد ان ذهب ميزاديو
بصحبه وزير الفنون الجميلة . واثارت نفس برتان لدى تخيله ان هذا
المر كيز القمي * سيتزوج آنيث وانه لم يحضر الا * من اجلها وهو يعتبر
نفسه نصيبها المحتوم وقدرها المكتوب .. ثار ثورة من احس حقوقه
الشرعية المقدسة تنهب وتداس .

وجلس المر كيز بالقرب من الفتاة على المائدة وراح يهتم فيها
اهتمام الرجل الذي يمارس حقاً طبيعياً :

كانت نظراته طفيلية وبدأت في عيني الرسام وقحة ومتطاوله
وابتساماته الناعمة الراضية وتصرفاته البسيطة التي لا تكلف فيها ..
كل ذلك اشعل ناراً بين حنايا برتان .

وكانت الدوقة والكونتس راضيتين عن تصرفات الشاب بل
كانت منهما مستعدتان للدفاع عنه والذود عن حياض تصرفاته وكانتا تبدلان
بين الفينة والاخرى نظرات استحسان ورضى ...

وما انتهت الوليمة حتى عاد الجميع الى صالات العرض فوجدوا
الازدحام فيها شديداً لدرجة خائفة ولم تمض دقائق خمس حتى كان اوليفيه

والكونتس قد افترقا عن الباقيين فارادا الاتحـاق بهم الأ
الكونتس قالت :

— السنا سعيدين بانفرادنا . دهمم فنحن متفقون على ان نلتقي
الساعة الرابعة في المقصف .

— صحيح ؟

غير ان فكره لم يغادر آتيت . فهو يتصور المـركـيز يلاحقها
بغـازلاته السمجة المتأنقة .

وتتممت المكونتس :

— حسنا . اما زلت تحبني ؟

فاجاب بلهجة لا واعية :

— وكيف لا .

وراح يبحث بين الرؤس عن قبعة السيد دي فاراندال الرمادية .

وشعرت به مشتت الفكر فشاءت حمله اليها . فعادت تقول :

— لينك تعلم كم اعجبني لوحك هذا الموسم . انها خير مما انتجت .

انها اطروفتك الكبرى (١)

وابتسم وقد نسي قلقه على مصير اللوحة :

— حقاً ما تقولين ؟

Votre chef-D'oeuvre (١)

— اجل لقد اعجبني فوق كل ما عرض .
— اما انا فلست مرتاحاً اليها .
وبكلمات رقيقة راحت تهدد كبرياءه وهي تعلم ان ليس
افعل في الفنان من الاطراء والثناء .
وأثرت فيه كلماتها تأثيراً طيباً فعاد يثرثر وهو لا يرى الاها
ولا يسمع سوى صوتها في هذا الحشد الكبير المزدحم .
وشاء ان يشكرها فدنا منها وهمس في اذنها :
= اني احس رغبة مجنونه في معانقتك .
وطفت عليها موجة حارة . ورفعت اليه عينيها اللامعتين واعادت
سؤالها :

= او تحبني دائماً ؟
واجابها بنبرة حارة :
= اجل . انا احبك يا عزيزتي آني . .
= تعال كل مساء . فانا لا استطيع الخروج بوجود ابنتي
وما لمست فيه هذه اليقظة المفاجئة حتى احست عواطفها
تتحرك . وهي لم تعد تخشى عليه اغراء الاخباريات بعد ان ايض فوداه
الاً انها مازالت تخاف خوفاً جنونياً عند ما تفكر انه قد يعتمد الى
الزواج هرباً من وحدته وعيشه الفارغ البارد . وهذا الخوف لم يكن

حديثاً بالنسبة اليها . وهو ما زال بقوى ويتضاعف مع مرور الزمن
حتى انها لتشفق من ان يقضي سهراته الطويلة مفردة فيقوى في نفسه
احساسه بالوحدة والفراغ . . ولم يكن عيسورها ان تحتجزه دائماً ،
فعمدت الى دفعه الى الملاهي للترويح عن نفسه فهي تفضل ان تراه بين
الذماء في المجتمعات على ان تجده وحده يعاني مرارة الانزواء في مسكنه
الخالى .

وعادت تقول : آه . كم انوق الى الاحتفاظ بك دائماً تعالى
الي كل مساء فانا لا اخرج مطلقاً . .

— اني اعدك . .

وطرق اذنيها صوت قريب من اذنها :

— امي ..

واجفلت واستدارت فاذا بها ازاء آنيت والدوقة والمركيز .

وقالت الدوقة : - الساعة الرابعة . وانا تعبئة جداً واود الانصراف

ايضاً . فلم اعد احتمل . . .

وقبل ان يخرجوا سألت الكونتس برتان :

— ستأتي هذا المساء ؟

— اجل .

وعاد برتان الى العسالة حيث التقى باصدقائه الفنانين ليتبادلا

أوجه النظر حول المعرض . ولم يشترك معهم بالحديث بل ظهر ضجرا
متبرما تواقا الى الانصراف فهذه الموضوعات لم تعد تثير فيه اهتماما فهو
يعرف كل ما سيقال . وحتى لو حتمه لم تعد تثير فيه ذلك القلق .

فالمر كيز وآني لا يبرحان خاطره لحظة . وما وجه اهتمامه
بهما ؟ اله عليهما حق ما ؟ ولم يحاول عرقلة مشروع زواجهما ؟ غير
ان شيئا لم يكن ليحول دون انزعاجه وهو يشاهد فارنдал يتسم
ويحدث آنيت كما يفعل الخطيب حيال خطيبته وقصد بيت الكونتس
مساء ذلك اليوم فوجدها مع ابنتها تنابعا حيال كة اغطية الفقراء ، لم
يستطع ان يكتم اراءه الخاصة في الم ركيز . بل قد وجه اليه انتقادا
حادا حاول فيه كشف سخافته واناقة المتبرجة امام عيني آنيت .

وكان برنان جالسا في مقعد مريح فصالب ساقيه والقي برأسه
الى الورا بدعة وطائنية وراح يتحدث الى المراتين ...
ولحظ انه يعتمد اختيار كلماته وانتقاء تعابيره شأن من يتكلم
في حضرة شخص يهمه جدا ان يظفر باعجابه .

وهو يأتي كلما عرف ان المراتين وحيدتان . فيظفر بساعات
لم يتذوق اطيب منها طوال حياته . ساعات من الدعة والاسترسال في
عذب الاحاديث ...

وكانت الكونتس تسر غاية السرور لانصراف برنان اليها

كل هذا الانصراف فكانت ترفض اكثر الدعوات لقضاء السهرات في المدينة او لحضور المراقص . كما كانت في بادئ الامر تهمس الى الافراد به فا ان تدق العاشرة حتى توعز الى ابنتها بالانصراف الى سريرها . غير ان برنان لم يرضه هذا التصرف فقال للكونتس : امازاتي تعاملينها كأنها طفل صغير شقي . وطلب لها ربع ساعة ثم ساعة ... فا ان تغادر الصالون حتى يكتشف ان نصف الفنتة قد اضمحلت وما أن تنصرف الفتاة حتى ينتقل برنان الى مقعده المنخفض المفضل ويجلس تحت اقدام الكونتس ويربح خده على ركبتيها بينما تعطيها احدي يديها فيجسان الحمى التي تمور في صدرهما آخذة بالانخفاض ..

ولم يغب عن غريزتها الانثوية ، مع الايام ، ان آتيت تجذبه اليها .. وضاعفت اهتمامها باحتجازه بينهما دائما .. وكانت تقوم امامه بدور الامام لتحمله على الشعور بانسه بالنسبة لهذه الفتاة كأب يغدق عليها حنوه وعطفه .. فيزداد تعلقه بها وبييتها . وبالرغم من ان انوثتها ظلت طاغية مهيمنة الا ان ثقل العمر لم يخف عليها وراحت مدفوعة برغبة صارمة في ان تحتفظ بكل فنتتها وان تبقى كابنتها رشيقة ، راحت تمتنع عن المشروبات والمآكل الدسمة حتى ان نحافتها اضفت عليها هيئة فتاة عذراء . ولكن انخفاض خديها كان يتم عما تتكبد في سبيل ذلك من حرمان ... وبدأت بشرتها بالاسترخاء ومال لوننها الى

الشحوب الامر الذي كان يظهر ابتهاا بالقرب منها شديدة الحيوية بالغة
الفتنة .. فعمدت الى الطرق الاصطناعية في تزيين وجهها كما تفعل
الممثلات ... ففدا وجهها فاننا حقا .. وجه امرأة تجيد التبرج بشكل
يسبغ عليها فطنة مصنوعة وليكنها جذابة خلابة .

وكانت تتجنب الظهور في وضع النهار الذي يفضح اساليب
تبرجها وتفضل الانوار الاصطناعية التي تخفي ما في وجهها من جمال
مجلوب بتطريه ..

وكانت في الايام التي تشعر فيها انحطاطا في قواها واقترابا من
الكهولة تنزوي في حجرتها مدعية التوكل .. وما ان تحس نشاطا
وحيوية حتى تعود الى تمثيل دور الاخت الكبرى مع ابتهاا فترتدى
اثوابا شبيهة باثواب ابتهاا وتزين كما تفعل الزوجات الشابات ، اما
انيت فكانت قد ادركت بغريزتها ما ترمي اليه امها من تشبه بها
فكانت تغذي فيها هذا الامل ولا تعمد مناسبة لتظهر لها كم هي جميلة
وفقية وان ليس بينهما فارق كبير .

ولشدة ما اعتاد اوليفيه رؤيتهاا سوية اتقوى به الامر ان اصبح
يخلط بينهما .. فكثيرا ما كان يتساءل وهو يصغي الى الفتاة دون
ان ينظر اليها : ايهاا تحدثه ؟ »

كم كان يستعذب هذه اللعبة فاذا ما كانوا منفردين في الصالون

طراز لويس الخامس عشر كان يغمض عينيه ويرجوها ان تخاطباه
الواحدة تلو الاخرى . ثم تعيدان السؤال ليحاول معرفة مخاطبته .
فكانتا تجتهدان في ان تقلدا الواحدة منها الاخرى في نبرة صوتها . ولشدة
تمرئهما على ذلك واتقائهما له تداخل الامر حتى على الخدم : فكانوا
يحييون الام : نعم يا آنسة . ويخاطبون الابنة : اجل يا سيده . . كما
اختلف الامر على اوليفيه نفسه فكان اذا رأى احدهما تعبر في اعماق
الصالون : يتساءل : ارأى الام ام الابنة ؟ ومن هذا الشبه الطبيعي
والمصنوع ، الحقيقي والمتكلف ، خلقت في نفس الرسام وفي قلبه فكرة
ازدواج هاتين المخلوقتين الواحدة قديمة والاخرى جديدة ، الاولى
معروفة لديه اعرق المعرفة والثانية مجهولة اكبر جهل .

وأخيراً خيل اليه ان الجسمين قد اندججا وشكلا جسماً واحداً
شاباً كما كانت معشوقته يوم عرفها في الايام الخوالي . وهكذا عاش
بين الاثنين ، موزعاً بينهما ، مضطرباً ، قلقاً ، يحمل للام حبه القديم
المستيقظ ، وللابنة حناناً غامضاً مبهماً

الكتاب الثاني

- ١ -

باريس في ٢٠ تموز (الساعة الحادية عشر مساء)

يا صديقي . لقد توفيت امي في رونسير . اننا ذاهبون في
منتصف الليل . لانا لم ندع احدا . تحسر علي وفكر في .
حبيبتيك آني

٢١ تموز . ظهراً .

يا صديقتي المسكينة . لو لم اكن قد اعتدت على اعتبار ارادتك
امراً للحقت بك رغماً عنك . اني افكر بك منذ امس بمرارة قاتلة .
فكرت في هذه الرحلة الصامتة التي قت بها مع زوجك وابنتك في
مركبة ضئيلة النور سارت بكم نحو فقيدتكم . ثم تخيلتكم انتم الثلاثة
فوق النعش تبكون وآيت الصغيرة تذوب حشرات . وتخيلت
وصولكم الى المحطة والرحلة الهائلة في العرببة ثم دخولكم الى القصر
يحيط بكم الخدم ثم اتجاهكم نحو الغرفة حيث ترقد الفقيدة . .

ورأيتك بعين خاطري تنحنين موقها وتطبعين على وجهها الناحل الجامد
قبلة .. فكرت في قلبك .. قلبك المسكين .. الذي املك نصفه ..
فكرت فيه كيف سحقت هذه الفجيرة .. فكان نصيبي فيها كنصيبك
اقبل عينيك الملتين بالدموع .

اوليفيه .

واستمر تبادل مثل هذه الرسائل العابقة بـ .. اني الحب الحقيقي الذي
صهرته هذه الآلام فاحالته حساسا بالغ الحساسية ، يضطرب الاثم كما
يضطرب للفرح كالطير احس مسكين الذابح فوق نحره وكأن هذا الاثم
المشترك صهر كل ما كان قد علق بنفس اوليفيه من برم وضجر فراح
يكشف لعشيقته عن عاطفة صادقة ماثبة هي نتيجة حب عاش اعواما
لم تزده الا قوة وحرارة واندفاعا وتلقى منها رسالة تعلن فيها قرب
عودتها .. ولم يشعر ، كما كان يتوقع ، ان الايام قد خففت شيئا من
حزنها بعد ان مرت فترة على موت امها .. وكانت قد اعلنت له ان
زوجها سيصل باريس قريبا . وما ان استلم هذه الرسالة المعلنه عودتها
المأخرة ، حتى شعر برغبة عنيفة للسير الى المحطة ثم يركب القطار
ليقصد رونسير ، ثم تذكر ان السيد غيروا سيصل في الغد ، فراح
يرقب قدمه بصبر فارغ كما لو كانت هي التي ستصل .

لم يشعر حبا لغيرها كما شعر له في فترة الانتظار تلك

ولما رآه داخلا في اليوم الثاني اندفع نحوه وبداه ممدوداً

وهتف :

— آه يا صديقي العزيز كم انا سعيد برؤيتك .

وبدا الزوج شديد الغبطة وخاصة لأنه عاد الى باريس ذلك ان

الحياة في النور مندي لم تكن بهجة خلال الاسابيع الثلاثة الماضية .

وجلس الرجلان الى مقعد صغير في زاوية الرسم تحت سقف

من قماش شرقي وتناولوا ايديهما بحركة توددية وراحا يجددان المصافحة

وسأله برتان : — والكونتس ؟ كيف هي ؟

— آه . ليست من ما يرام . كانت الصدمة قوية بالنسبة اليها

وهي لا تنكاد تسترد روعها . وافكاري مشغولة بها .

— ولكن لماذا لم تعد ؟

— لست ادري فقد استحال علي حملها على العودة .

— وما تعمل طوال يومها ؟

— ياللمسكينة . . انها تبكي مفكرة بامها . وهذا لا يلائمها وكان

بودي لو رضيت تغيير الهواء وعلى الاخص مغادرة المكان الذي يذكرها

بساعات امها الاخير .

— وآليت ؟

— زهرة تنفتح وقد اعتورها بعض الذبول .

وأدرك أوليفيه بعض السرور . وتابع يسأل .

— أو أحزنها ذلك كثيراً ؟

— أجل كثيراً . كثيراً ولكن . . . انت تعلم ان حزن الثامنة

عشر لا بدوم طويلاً . . .

وعاد غيروا يقول بعد فترة صمت :

— اين ستنعشى أيها العزيز ؟ ان بي لرغبة ملحة الى الاستغراق

والاصغاء الى الضجة ورؤية الحركة . .

ولكن ليس سوى قهوة (السفراء) في هذا الفصل . . .

وانصرفا وقد تعانقت ذراعاهما واتجهما نحو الشانزليزه ، وكان

غيروا فرحاً فرح الباريسي الذي يعود الى المدينة ، فتبدوله بعد كل

غياب كأنها قد استعادت شبابها وامتلات بالمفاجئات ، وراح يسائل

الرسام عن اصغر التفاصيل وكان برنان يجيبه بعدم اكترات محاولاً

دائماً حملة على التحدث عن رونسبير كما يفعل المرء عند ما يقابل شخصاً

فادر شخصاً حبیباً ويود معرفة كل التفاصيل عن حياته اثناء الغياب

كان المساء يبدو ثقيلاً فوق المدينة . فالفصل صيف . وجلس الرجلان

في شرفة « قهوة السفراء » وراحا يتحدثان في المقاعد المصفوفة في الحديقة

تحتها او يشاهدان عن بعد الراقصات في مقصوراتهن تحت الانوار

الكهربائية وهن يسوين هندامهن البارع وبين الفينة والاخرى كانت

تدخل سيدة يتبعها رجل يبحثان عن مائدة محجوزة . الرجل في ثياب
سود والمرأة تسحب خلفها ضبابا من عطر قوي ينتشر من ثوبها
ومن جسمها .

وتتم غيروا شديد الابتهاج : - كم افضل ان اكون هنا
وليس هناك .

واجاب برنان : امّا انا فافضل ان اكون هناك وليس هنا !
— دعنا من ذلك !

— اقسم لك . ان حر باريس لا يطاق هذا الصيف .

— ولكنها تظل دائما باريس ...

وظهر النائب كانه في احدى المواقف التي يندفع فيها المرء مع
عاطفته فيقول اشياء سخيفة منها كان ذا مقام رفيع . .

وكان يقربها ثلاث غادات يتعشين برفقة ثلاثة شبان نحفاء
جدي المظهر فسأل غيروا عنهم . كما كان يسأل عن كل فتاة تمر بهم
او تدخل المقهى .

ثم تتم بنبرة فيها الكثير من الاسف :

— من حسن حظك انك مازلت عازبا . . مما يتيح لك ان ترى
وتفعل اشياء كثيرة

اما اوليفيه فراح يشكو لغيروا ضجره ووحدته . وما ان انتهى

من الشكوى مدفوعاً بحاجته الى العزاء والى املاء فراغ حياته بامرأة
تبادل له الحب وتشاركه الحياة ، ما انتهى من ذلك حتى وافقه الكونت
على قوله معدداً مآلل زواج من ميزات واندفع ببلاغته الخطابية يصف تلك
الحياة العائلية التي لم يذق طعمها الا المتزوجين ، واثني ثناء طيباً على
الكونتس فكان اوليفيه يوافق بهزات متتابعة من رأسه

كان سعيداً بان يسمع من يتحدث عنها . وشعر بغيرة لما يصف
زوجها من ضروب السعادة تغدقها عليه . وانتهى بان تتم بلهجة مفتعلة
— اجل . انك لسيد وافر الحظ .

وعاد النائب الى الحديث بعد ان غمره اطراء جليسه بموجة
من افتخار :

— كم اود ان تعود . فهي تشغل افكاري حقاً . اسمع . تقول
انك ضجر في باريس فما عليك الا السفر الى رونسير والعودة بها . انها
تصغي اليك . لآئك صديقها المفضل .

بينما انا ... لست سوى زوجها ... كما تعلم ...

وطار اوليفيه سروراً لاقتراح للكونت :

— هذا اجل ما ابتغني .. ولكن لا تعتقد ان ذلك قد

يسيء اليها ..

— كلاً ... مطلقاً .. دعك يا عزيزي ..

اني وافق اذن. سأسافر غداً بقطار الواحدة. امن الضروري

الابراق اليها؟

— كلاً. دع ذلك لي. سأنبئها بذلك كي ترسل عربية تعود

بك من المحطة.

وكان قد فرغ من الطعام فصعدا سوياً الى الشارع وسارا متمهلين

ولكن لم تمض نصف ساعة حتى غادر الكونت اوليفيه زاعماً ان

لديه مشاغل هامة عاجلة كانت قد غابت عن ذاكرته.



جاءت الكونتس وابنتها الى المائدة وقد ارتدتا ثياباً من
حرير اسود ، كانت القاعة فسيحة وقد زينت الجدران بصورتي جدي
العائلة احدهما يرتدي درعاً والآخر ثوباً ملتصقاً بجسده ، فالاول
ضابط في الحرس والثاني كولونيل في عهد حكومة الشعب وكانت
الصورتان في اطارين قديمين مذهبين الا ان تذهيبهما قد ادركه التلف
وكان خادمان يقومان بقضاء حاجات المرأتين يسيران بخطى مخنوقة ،
والذباب بطوف حول الثريا المعلقة فوق المائدة فيشكل نقطاً سودا
كانها غيمة متحركة ذات ازير .

وقالت الكونتس : افتحوا النوافذ . اني احس رطوبة .
وفتحت النافذتان العريضتان العاليتان . ودخلت هبة من هواء
فاتر يحمل انفاساً حارة عابقة بارج العشب الحار تموج فيها ضجة بعيدة
آتية من الريف ، فامتزجت بهواء الغرفة الرطب المحبوس بين جدران
القصر السميك .

وقالت آنيث وهي تتنفس بعملى رثتها :

— ما احسن هذا

فاجابها الكونتس وقد سرحت ناظريها في الجو الازرق

الفسيح :

— سنقوم بنزهة طويلة بعد الغداء . نستطيع ان نبلاغ برفيل

سيراً على الاقدام بان نسير على شاطئ النهر لأن الحرارة تكون اخف

منها في السهل .

— اجل يا اماء وسفصحب جوليو معنا ليطارد الحبال .

— انت تعرفين ان اباك يمنع ذلك .

— وما ان ابي في باريس . . فانه لمن اشد دواعي السرور

رؤية جوليو في مطاردته تلك هو ذا يهارش الابقار . يا الهي ما اغربه !

ودفعت كرسيتها الى الورااء وانطلقت الى احدي النوافذ

وصاحت :

تشجع يا جوليو تشجع

كانت ثلاث بقرات ضخام تستريح فوق المرعى وقد شبعن

من العشب الندي وخطبها الحمر فاستلقت على جوانبها تستريح .

وبالقرب منها كلب صيد رشيق ابيض واصهب بقوايب نابجانبها جنونيا

فيه مروح كثير وهو يحاول انهاض الحيوانات الثقيلة وهي لا تريد .

ومكنت آتيت فترة طويلة تراقب الكلب مغتبطة بمركانه

الرشيقة وتوثبه النشيط وهي تهتف به مشجعة الاونه بعد الاخرى .

وفجأة رفعت يدها وظلمت عينها ونظرت بعيداً :

— هو ذا الموزع .. انه يحمل برقية ..

وفي الممر الضيق بين حقول القمح والشوفان بدا قميص ازرق

كانه يطفو فوق السنابل سائراً بخطى متزنة .

وهتفت الكونتس : — يا الهى ... لا تجعله خبراً سيئاً ...

وارتجفت كأن جزعها لسماعها خبر موت امها بواسطة البرق

مازال فاعلاً في نفسها فهي لا تستطيع فض خاتم الورقة الزرقاء التي

قدمها اليها الموزع دون ان تشعر اناملها ترتجف وتضطرب وروحها

تتحفز وتوثب وقد حسبت ان من بين طيات هذه الورقة سيبرز لها

حزن غير منتظر .. يستدعي منها بكاءً مريراً ...

اما آيت فكانت ، بفضل شبابها وتوثبها نحو الحياة ، اقل

جزعاً من امها ، فهي لا تنتظر ، تبعاً لنفسيتها الشابة ، الا املاً

وسروراً من برقية يحملها موزع البريد .

وانقطعت الكونتس عن تناول طعامها واقامت تنتظر هذا

الرجل الذي يحمل كلمات قلائل قد تكون خنجراً جديداً يصمي قلبها .

واعتمر القلق فؤادها . فها هو هذا الخبر العاجل المحمول على اجنحة

البرق؟ وممن؟ وعبرت خاطرها فكرة عن اوليفيه . اهو مريض؟
ام تراه قضي؟

وكان الدقائق العشر التي مكثتها منتظرة لا تنتهي . واخيراً
فضت البرقية وطارت انظارها اولا الى التوقيع فعرفت فيه اسم زوجها
وقرأت :

« اعلن لك ان صديقنا برتآن سيصل رونسير بقطار الواحدة
ارسلي عربية الى المحطة . لك حيي »

— حسناً يا امي ؟

— انه السيد اوليفيه برتآن آت لزيارتنا .

— يا للحظ السعيد ! ومتى يصل ؟

— بعد فترة قصيرة .

— الساعة الرابعة ؟

— اجل

— حقا انه لطيف جداً ...

غير ان الكونتس شعبت ، فان قلقا مبهما نبت في نفسها منذ
مدة وراح ينمو نمواً مضطرباً وقيد ادركت ان حضور الرسام
المفاجي 'يخبي' لها خطراً شديداً لم تكن قد فطنت اليه قبلاً .
وقالت لابنتها : ستذهبين لملاقاته مع العربية .

- و أنت ؟ الّا تأتين معي يا اماء ؟
 — كلا . سأنتظر كما هنا
 — ولم ؟ فقد يسؤه تصرفك هذا .
 — لست على ما يرام
 — كنت تبغين السير الى بر فيل منذ لحظات ...
 — صحيح غير ان الطعام قد ازعجني .
 — حتى تلك الساعة ؛ ككون حالك قد تحسنت .
 — كلا . سأوي الى غرفتي . اخطر بني لدى وصولكما .
 — اجل . يا اماء .

وبعد ان اصدرت امرها باعداد العربة لتكون جاهزه في
 الساعة المعينة كما امرت باعداد شقة للضيّن ، ثم صعدت الى غرفتها
 واعتكفت فيها .

لقد مرت حياتها حتى هذه الساعة تقريبا دون هم حقيقي
 ما خلا حبها لاوليفيه وما تكبدت في سبيل الاحتفاظ به من عناء .
 وقد قيض لها النصر في كفاحها ذاك . وقد افعم قلبها بهذا الانتصار
 وبالشأن المستمر ، فكانت كسيدة ارسقراطية ، قد ظفرت بزوج غني ،
 وكان لابد لها من حب لتتم سعادتها به ، فكان اوليفيه الحبيب المنشود ،
 مطيعه بذلك ميولها اكثر من طاعتها لنواهي الدين ، ذلك لتجارى
 الركب الاجتماعي المتحلل من مثل هذه المعتقدات ... وقيد اناحت

لها الاقدار الانزلاق في علاقتها الاثمة مع اوليفيه ولم تستطع بعد ذلك نكوصا ، بل على العكس ، راحت تتشبت به تشبثا مصرا غير انها شيئا فشيئا ، ويوما بعد يوم ، احست بقاق مبهم بداخل مشاعرها ، قلق كأنه ثقب لا يفتأ يتسع ، وجرح لا يعرف الاندمال . وادركت ان تقدم السن لا يمكن ان يقف شيء بوجهه ، وبغريزة الانثى المستسلمة اطبقت عينها وتركت نفسها تنزلق مع العمر على منحدر الحياة ...

وحافظت على ابتساماتها ، التي شابهها شيء مصطنع في الايام الاخيرة ، فكانت عندما تظهر في المجتمعات وبالقرب منها ابتها ذات الثمانية عشر ربيعاً لا تحس بالحسد او الالم ، بل على العكس ، تشعر بالاعزاز والفخر ، فابتها المتفتحة على الحياة ولما تنضج بعد ، تضي عليها هي معاني النضوج ودنو القطاف ... ولم تكن ابتها في رواء الصبا الرقيق الخلاب الا صورة لما كانت عليه امها قبل ان تبلغ من نضوج الجسم والعقل ما بلغت ...

وقد اعتقدت ان سمادتها قد اكتملت بهذه الشابة الصارخة الجمال يوم حانت بها فجميعتها باها ... وفي الايام الاولى التي تلت الوفاة احست آني بياس لم يترك في قلبها ، كأنها شيء آخر ... وذات يوم ، دخلت وصيفتها عليها صباحاً وازاحت السجف ، وسألها : كيف سيدتي اليوم ؟ اجابت بلهجة محطمة : لست على مايرام

واجابتها الوصيفة وهي تقدم لها الشاي : - حقاً ان مظهر
سيدتي محزن جداً . ان سيدتي تفعل حسناً اذا اعتنت بنفسها وزينت
وجهاً »

وهبطت قولة الوصيفة على قلب الكونتس هبوط الخنجر .
وما ان انصرفت حتى نهضت آني الى مرآة الخزانة وراحت تتأمل
وجهاً فيها .

وادركتها الدهشة لما رآته من معالم النحول في وجنتيها
المنخفضتين فلشد ما اثرت فيها هذه الايام الاليمة ايام الحزن الشديد
والبكاء المتواصل . حتى لقد بدا وجهها الذي طالما تأملت في كثير من
المرائي والتي تعرف كل تعابيرها وابتساماته وفنتته ، بدا لها الآن
كوجه امرأة اخرى ...

واقامت مدة تستعرض جمالها بدقه متماسة بشرة خديها ناظرة
الى اسنانها التي أخذ لونها بالاكمداد قليلاً ، وفتح الباب فجأة
فادركتها ارتعاشة واستدارت لتجد وصيفتها تقول لها : - لقد فات
سيدتي ان تأخذ الشاي .

ولحظت الخادم اضطراب سيدتها وخجلها فتابعته :
- لقد بكت سيدتي طويلاً . لا شيء كالبكاء يذيب الجسم
وينهك الصحة . انه يحيل الدماء ماء .

واضافت الكونتس بخزن :

— ولا تنسي العمر ايضا .

فهمت الوصيفة : كلاً . كلاً يا سيدي . ليس هذا هو السبب !
فبقليل من الراحة تستعدين صحتك وشبابك الذابل . وعلى سيدي
ان تنزهه وان تحاذر البكاء .

وما فرغت الكونتس من ارتداء ثيابها حتى هبطت الى الحديقة
وقصدت الحائل التي كانت تحب الاعتناء بها فتجتنى منها الاوراد ،
ثم تابعت سيرها بموازة النهر حتى آن موعد العشاء . عندما تلمقت
الكونتس برقية زوجها معلنة قدوم اوليفيه احست رغبة في الهرب
فهي لم تكن تمنى هذه الزيارة من عشيقها وهي على مثل هذه الحالة بل
لو خيرت لفضلت ان يتأخر قدومه اسبوعين آخرين . فبمقدورها
، خلال اسبوع ، وبمزيد من العناية بنفسها ، ان تغير من هيئتها الكئيبة
تلك ومما زاد من سوء حالها انها ستبدو بالقرب من ابتتها في وضع النهار ،
وتحت شمس آب الساطعة كمجوز شمطاء ولذا قررت فجأة عدم الذهاب
لاستقباله في المحطة بل في الصالون الظليل ... كان بها الى البكاء رغبة
ملحاح ...

ولكنها تمكنت من مقاومتها فما ان تشعر اهدابها مبللة حتى
تسارع الى مسحها بسرعة ثم تنهض وتمشي ، ثم تنظر الى الحديقة
او ترنو الى اسراب الغربان التي ترسم في السماء الزرقاء الفسيحة خطوطا

منحية طويلة فوق رؤوس الاشجار الباسقات .

ثم عادت تخطر امام سرآنها ، فتمسح دمة او نصاح شيئاً في وجهها بقايل من المسحوق ، ثم تنظر الى الساعة مخمئة اي مرحلة من الطريق بكونان قد قطعاً . . وسمعت فجأة فرقة سوط في البعد ، فخفت الى النافذة ورأت العربية تدور حول الحديقة وقد انطلق جوادها بسرعة كبيرة .

كان اوليفيه جالسا في اعماق العربية الى قرب آنيت وقد شرع يلوح لها بمندبل ساعة رآها فردت تحية ملوحة يديها الاثنتين ونزلت للملاقاة وقد اخذ قلمها يخفق بشدة الا أنها كانت سعيدة . . . بل باللغة السهادة اذ شعرت به قريباً منها تستطيع الانصراف اليه ومحادثته .

والتقيا في الفرقة الملحقة بالمصالون . وتلقاها بذراعين مفتوحتين

بحركة لا تقاوم ، وبصوت حار فيه شوق حقيقي :

— آه ايها البكونتس المسكينة : اسمحين لي بان اعانقك ؟

واطبقت عينيها ، وانحنى ، والتصقت به مقدمة له خديها

وهمست له وهو بطبع قبلاته فوقهما : — احبك .

ودون ان يترك اوليفيه يديها رفع عيذه اليها وقال :

— كم هو كثيب وجهك ؟

واحست انها تكاد تنهار .. وتابع :- صحيح انك شاحبة
قليلاً .. ولكن لا عليك فهذا شي عابر ...

وشاءت ان تشكره فقالت :- آه يا صديقي العزيز ...
وسكنت لا تجد ما تقول .

وكان قد استدار باحثاً خلفه عن آيت التي كانت قد اختفت :
- اليس غريباً ان ارى ابتك في ثياب الحداد ...

وسألته الكونتس :- لم ؟

وصرخ بحرارة غير عادية :

- لم ؟ ولكنها هي اللوحة التي رسمتها لك . انها لوحتي ! انها
أنت . التي كنت التقى بها لدى الدوقه ! الا تذكرين ذلك الباب الذي
مررت به امام ناظري كما تمر السفينة امام مدفع البرج ! ادر كنتي
آنذاك رغبة في البكاء . ان احداً لم يعرفك كما عرفتك ، ولو فعلوا
لاصابهم مس . فانا قد نأملك ، واحببتك ، ورسمتك ، كما لم يفعل احد
من قبل ! آه ... مثلاً .. لقد ظننت انك شئتني مفاعاً تي فارسلني
آيت الى المحطة !! اجل ! اجل ! لقد فوجئت حتى كدت أجن ! ..
ونادي : آيت .. ناني ...

وجاءه صوت الفتاة من الخارج اذ كانت تقدم قطع السكر
للجیاد ..

— ها انذا . ها انذا !

— تعالى . اذن . الى هنا ..

وجاءت تعدو :

— قفني بالقرب من امك .

ووقفت وراح يقارنهما وردد بشكل آلي : مدهش .. مدهش .
ولم يكن الشبه بينهما كاملاً كما كانت في باريس . فان هذا الهندام
الاسود قد اعطى للفتاة لمعاناً اخذاً بينما كانت جذوة الام قد خبت
منذ امد غير قصير ... جذوة الشعر والبشرة التي كانت تلهب احاسيس
الرسام في الايام الخوالي .

ودلف مع الكونتس الى الصالون . وبدأ شديد السرور بالغ
الغبطة . وقال :

— انها فكرة موفقة . فكرة حضوري .. ثم تابع :

— كلا ... انه زوجك الذي اوحاها الي . كلفني باستصحابك
الى باريس . وانا ، اتعلمين ما اقترح - كلا طبعاً ؟ . اني اقترح ، عكس
ذلك ، ان تقيمي هنا فترة اخرى . ان باريس هائلة بحررها ، والريف
رائع بجماله . ما اجمل الجو يا الله ! وكان المساء قد جلبب الكون واغدق
على الحديقة طراوته ، وداعب اوراق الاشجار واطلق من الارض
رائحة لذيدة منعشة ومخاراً شفافاً القى على الافق نقاباً خفيفاً في صفاء

البلور . وكانت البقرات الثلاث في الخارج ما تزال ترعى العشب
بهم وأربعة طواويس تحفق بأجنحتها وهي تثب إلى جذع شجرة
صنوبر اعتادت أن تنام فوقها تحت نوافذ القصر . . . وفي البعد كانت
تعلو أصوات كلاب تنبح في أعماق الريف ، ونداءات أصوات بشرية
تعكر صفو السماء وكان الرسام قد عرّى رأسه وراح يستنشق الهواء
ملى رثنيه وإلى قرب الكونتس تنظر إليه . قال : - هذه هي السعادة .
ودنت منه وقالت : - ولكنها لا تدوم أبداً . . .

— لنغتنمها ساعة نسبح

فابتسمت وقالت : - لم أعرف فيك حبك للريف قبل الآن .
— أني أحبه الآن لأنك فيه . لست أقوى على العيش في
مكان لست فيه . فعندما يكون العاشقان شابين ، يستطيعان أن يتحبا
مفترقين ، بالرسائل ، بتبادل العواطف . ولعل مر ذلك أنهما يشعران
بدفق الشباب في عروقهما وبنزوات الحياة تصطبغ بين أضلاعهما . . .
أو ربما كان لهما صبر أكبر على تحمل البعد . . . وأما في مثل سني فالحب
أضحى عادة . . . عادة لرجل مقعد . . . بلسماً للروح التي لا تصفق إلا
بجناح واحد وبالتالي لا تقوى على التحليق بعيداً مع الأمانى العذاب . . .
لم يعد للقلب ذلك الوجد اللاهب . . . وإنما أنانية بغيضة . . .
هذا ومن ناحية أخرى فاني أدرك أن لم يعد لدى الوقت

الكافي لتبديده ...

وقالت وهي تأخذ يده : آه ... إياها الكهل ! ..

واعاد : -- اجل ! اجل ! اني كهل . وكل شيء في يصرخ بذلك شعري . طباعي المتحولة . الكآبة التي تدهمني .. يا الهي . هذا شيء لم افطن اليه قبل الآن : الكآبة . فلو قيل لي وانا في الثلاثين انه سيأتي وقت احس الكآبة دون سبب واضح معقول . لما صدقت ذلك ... وهذا بدل على ان قلبي ... قد اخذ يكتهل ...

واجابته بثقة عميقة : -- امّا قلبي فما يزال في شرخ شبابه . لم يتغير . بلى .. لقد جدد شبابه .. فقد بلغ العشرين .. غير انه لم يتجاوز السادسة عشر ...

واستمرافي مثل هذا الحديث فترة طويلة امام النافذة المفتوحة وقد امتزجت انفاسهما بانفاس الماء .. وكانا دانيين كما لم يكونا قبل ذلك قط ... وثار فيهما الحب .. في ساعة الشفق تلك .. كما تثار العواطف لدى ولادة النهار ...

ودخل خادم واعان : - المائدة معدة يا سيدتي الكونتس .

فسألته : - أأحظرت ابنتي ؟

-- الآنسة في غرفة المائدة .

وجلس الثلاثة الى المائدة . كانت النوافذ مغلقة . وثرثاران

بست شمعات كل واحدة كانتا تذران نورهما فوق آيت التي بدا
وجهها الجميل في اطار مذهب من نور المصابيح المتزج باعنان شعرها
الاصهب .. وكان برنان لا يفتأ يتأملها باسماء ... وقال : - ما اجملها
في السواد يا الله ...

واستدار الى الكونتس وهو لا ينفك يتأمل الفتاة كما لو كان
يشكرها لما اتاحت له من متعة النظر الى ابنتها ..

وكان القمر قد ارتفع فوق اشجار الحديقة عندما عادوا الى
الردهة . وكانت كثلة الاشجار المعتمة تبدو كجزيرة في قلب الريف
الشبيه بالبحر المغطى بنقاب من ضباب بهيد يطفو فوق السهول ...
قالت آيت : - هيا نقيم بنزهة يا امه ...

ووافقت الكونتس ..

- سأخذ جوليو .

- لا بأس .

وخرجوا . وسارت الفتاة في المقدمة تلهو مع الكلب . وعندما
دنوا من الخيلة سمعوا البقرات تنفخ كأنها احسست دنو عدو فاستفاقت
مذعورة . وكان القمر تحت الاشجار البعيدة ، يذرذر اشعة ناعمة تسيل
حتى الارض فتبل الاوراق وتبرقع الارض بنقط منيرة لامعة . وكانت

آنيت وجوليو يمدوان كأن قلباهما تشابهها بانفراغ والتشوة بهذا الليل
الهادي الساجي ...

كانت الفتاة تمر ، في البقع المنيرة بين الاشجار ، كأنها طيف في
رؤيا جميلة ، وكان الرسام يستوعب ذلك المشهد دهشاً بقوامها القاتم
ووجهها الصبيح . وتناول يد الكونتس عندما ابتعدت الفتاة وراح
يضغطها .. واذا ما عبرا بقعة كثيفة الظلام تلمس شفقتها فكان رؤبة
آنيت تثير فيه الشوق القديم الكامن ...

وبلغا اطراف المرج ... وظهرت لهم اشجار الحقول بعيدة
قائمة لا تكاد تميز . وكان الافق منيراً عبر ستائر الضباب الشفاف وفي
اعالي السماء سبحت غيوم رقيقة طويلة كأنها خيوط الفضة ... وكان
هدوء الليل يعم الكائنات ويسمع في صمته العميق الغور مئات الاصوات
التي تنم عن الحياة المستكنة في اظلام ذلك الليل ... اصوات اشبه في
دعتها وهدوئها بالصمت العميق البعيد الغور ...

وقالت الكونتس وكانت هي والرسام منفردين :
— لماذا تنقضي مثل هذه اللحظات سريعة هكذا ؟ الا يمكن
للمرء ان يوقف عجلة الزمن ولو لوقت وجيز .. فليس لدينا الوقت
لتذوق اطايب هذه اللحظات العابرة على الاقل .. لقد انتهى كل شيء
ولثم اوليفيه يدها وقال : آه .. لا احب الخوض في الفاسفة

هذا المساء .. لنا الساعة التي نحن فيها . وتمت :

— انت لا تحبني كما احبك .

— آه .. مثلاً ...

وقاطعته : كلاً .. فانت تحب في كما كنت تردد قبل العشاء
امرأة تشبع رغب قلبك امرأة لم تسبب لك اي ارهاق ، امرأة القت
في حياتك بعض السعادة .. وانا ادرك هذا تمام الادراك . اني لمرتاحة
الضمير . واني لسعيدة لاني لم اقصر يوماً في واجبي تجاهك لقد
احببت وما زلت تحب في كل ماتجده جذاباً ، اهتمامي بك ، اعجابي
بأعمالك ، وصرف هي لارضائك ، اشتياقي اليك واستسلامي الكامل
بين ذراعيك .. ولكن ليس شخصي الذي تحب اتفهم ! آه . اني
لاحس ذلك كما يحس المرء تياراً من الهواء البارد يلفحه . انت تحب
في الف شيء : جمالي الآخذ بالذواء ، اخلاصي لك ، مرحي ، رأي
المجتمع بي ، رأيي بك الذي احتفظت به ضئيلة في سويداء قلبي ..
ولكن ليس انا ! ليس شخصي فحسب ، الذي احببته وتحبه ! اتفهم !
وضحك ضحكة قصيرة ودية :

— كلاً ! انا لا افهم جيداً ما تمنين ! فانت توجهين لي طائفة

من لوم غير منتظرة .

— آه يا الهي ! لقد شئت ان افهمك كيف احبك . اني ابحت

دون ان اهتدي الى شي . عند ما افكر فيك ، وكثيراً ما افعل ،
احس في اعماق دمي ، وفي صميم روحي ، رغبة لاتقاوم في امتلاكك
وميلاً لا يكبح لاعطائك من نفسي اكثر مما اعطيتك وددت لو
صنعت بنفسي في سبيلك ، لأنه ، في الحب ، ليس اعذب من ان يهب
المرء كل شي ، الروح ، والجسد ، والفكر وكل ما يملك ، وان
يكون دائماً على اهبة المخاطرة ليهب اكثر مما وهب . اني احبك حتى
لا أحب الالم في سبيلك . . احبك حتى لا أحب قلقي ، واضطراب
فكري ، وغيرتي ، والشقاء الذي يدهمني اذا ما رايتك فأتراً نحوى . . .
احب فيك الشخص الذي اكتشفته بنفسي ، احب شخصك الخاص
بي ، شخصك الذي لا يتبدل ، شخصك الذي لا يهرم ، شخصك الذي
لا اقوى على الانصراف عن حبه ، اذ اني عند ما انظر اليه ، لا ترى
عيناي اللاه . . انه لمن الصعب ان يقول المرء مثل هذه الاشياء . .
فليس ثمة كلمات تقوى على التعبير عن مثل هذا الشعور . . .

وكان اوليفيه يردد بصوت خفيض مرات متتالية : - يا عزيزتي
يا عزيزتي . . . آني . . .

وعاد جوليو لاهشاً بعد ان عجز عن ادراك حجل وثب امامه .
وكانت آنيت في اعقابه لاهثة لشدة ما ركضت .
- لم اعد اقوى على العدو . لقد تعبت . وانت ياسيدي الرسام

وتأبطت ذراع اوليفيه الطليقة . وعادوا ادراجهم . كانوا
يسرون وهو بينهما . . تحت الاشجار الباسقة القائمة . . . ولاذوا
جميعاً بالصمت . كان يسير وقد سيطرتا عليه بسحر انوثتهما الطاغية
المنتقلة الى جسمه بعلامسته لجسميهما . ولم يرفع نظاره اليهما فقد اكتفى
بان يجدهما ملتصقتين به . . كانتا تقودانه ، وتسيران به وهو سائر
امامهما ، مأخوذ بهما ، بالتي الى يمينه كما بالتي الى يساره دون ان يدرك
ايتها الى يمينه وايتها الى يساره ، ايتها كانت الام وايتها الابنة ،
واستسلم متطوعاً الى هذا الاحساس المتداخل المختلط . بل لقد سمى
ليميزهما في قلبه ، كما يعجز عن تمييز احدهما عن الاخرى في فكره
او ليست امرأة واحدة هذه الام وهذه الابنة المتشابهتان ؟ وهذه
الفتاة ؟ الا يبدو انها وجدت فوق الارض خصيصاً لتحيي موات
جبه لأمها ؟

وعندما فتح عينه لدى دخوله القصر خيل اليه انه عبر خلال
احلى سوبعات عمرة اطلاقاً . . انه تعرض لاغرب الاحاسيس واشدها
استمعصاءً على الادراك . . وانه نعم بادق واعذب ما نعم به رجل دب
فوق سطح السكر . . . كل ذلك نتيجة انطلاقه مع شذى الاغراء
العابق من تينك المرآتين . . .

قال عندما وجد نفسه بينهما تحت نور الصباح : - يا لالمساء
الرائع !

وهتفت آيت : - لا اشعر برغبة في النوم . فمن عادتي ان
اقضي الليل متنزهة عندما يكون الجو جميلاً .

ورنت الكونتس الى الساعة : - انها الحادية عشر والنصف
يجب ان تأوي الى فراشك يا ولدي .

واقترحوا ومضى كل نحو غرفته . وكان اول من استسلم للرقاد
الفتاة التي لم تكن تحس ميلاً اليه .

وفي الغد حضرت الوصيصة كالمادة تحمل الشاي لسيدتها
فوجدتها ما تزال بين اليقظة والنوم . قالت لها :

- ان طالعة سيدتي قد تحسنت . - اتعتقدين ؟

- آه . نعم . ان وجه سيدتي اشد صفاءً .

ودون ان تنظر الى مرآتها وثقت مما قالته الخادم . كان قلبها
نشطاً وهو لم يعد يجب عالياً . لقد عادت اليها الحياة . ولم تكن دماؤها
تجري سريعة حارة في عروقها كما كانت ذلك المساء انما كانت تشيع
في جسمها راحة فآرة واثقة سعيدة .

وعندما انصرفت الخادم نهضت الى مرآتها ورأت ان ليلة
واحدة قد اعادتها سنوات الى الوراء . وابتسمت بمفكرة : « خلال

بضعة أيام ساصبح على ما يرام . لقد سرت بخطى واسعة .
غير انها اقامت امام طاولة الزينة فترة طويلة حيث استوت ،
فوق غطاء من الموسلين مطرز بالدانتلا ، في صفوف مستقيمة ، امام
مرآة جميلة من بلور انيق ، طائفة على تلك الادوات الصغيرة اللطيفة
ذوات المقابض العاجية وهي تحمل الاحرف الاولى من اسمها متوجة
بشعار العائلة .

وعند ما فرغت من زينتها هبطت اخيراً وهي على مثل اليقين
ان نظراته الاولى اليها ستكون مرضية . وسالت أحد الخدم :
— ابن السيد برتان .

— ان السيد برتان في الحديقة يلعب الانسة التنس .
وسمعتها من بعيد بعد ان الاصابات .

ورأت آتيت تلعب وقد رفعت ثوبها الاسود حتى كشف
عن جزء من ساقها وكانت تندفع لتتلقى الكرة وهي طائرة ، فتتحرف
ذات اليمين وذات اليسار وتعدو هنا وهناك وعيناها لامعتان وخداها
محران ، تعب لاهثة ، فقد ارهقها ملاعبها بأسلوبه المتقن .

امّا اوليفيه فكان مرتدياً سروالاً قصيراً من الفلانلا وقميصاً
ابيض وقد غطى رأسه بقبعة عريضة الحافة ناصعة اللون ، وكان ينظر
الكرة ببرود مقدراً بدقة موقعها فيتلافها ويقذفها دون ان يتكلف

عناء في سبيل ذلك فهو يجيد هذه اللعبة اعادة محترف كشائه في كل
هو اياته .

ولمحت آتيت امها . فهتفت : - صباح الخير يا ام-اه . لحظة
واحدة وننتهي .

لقد اضاعت هذه اللحظة من عدم الانتباه الشوط عليها .
فقد مرقت الكرة بالقرب منها ، سريعة منخفضة فست الارض
وخرجت من الدائرة . فصرخ برتان : (لقد ربحت) وفوجئت الفتاة
واحتجت بانه استغل عدم انتباهها . بينما انطلق جوليو يعدو وراء
الكرة التي سقطت بعيداً كما يعدو وراء حجل سقط في الادغال .
وادركها فالتقطها بفمه بلطف وعاد . بصيصاً بذيله .

وهنا حبي الرسام الكونتس ، ولكنه لشدة انشغاله باللعب
واهتمامه بكسب الشوط لم يمر وجهها المبالغ في زينته كبير اهتمام
ثم سأل : - اسمحين لي ان ايتها الكونتس ، اني اخاف ان ياخذني
برد فاصاب برشح .

- اجل . اجل .

واقاعدت كومة من الشوفان المحصرود لتتيح للاعبين ان
يكملوا شوطها .

كانت تعاسة خفيفة تعصر قلبها وهي تنظر اليهما .

كانت ابنتها شديدة الاهتمام باللعب نشيطة تطلق صرخات لدى
خسارتها او انتصارها فكانت تطارد الكرة ملوحة بمضربها وهي اشد
ما تكون نشاطاً وجمالاً وبهاء .

كان برتاف يخاطب الكونتس صارخاً من بعد : انها جميلة
هكذا طرية كقلب الصباح .

نعم لقد كانت جميلة انها تستطيع العدو فتحمر وجنتاها وتغلي
دمائها وتنطق خصلات شعرها مع النسيم انها تستطيع ان تعمل كل ما
تريد لان كل شيء يضاف عليها جمالا ورونقا .

وعاد الى اللعاب بحماسة وكانت الكونتس لا تفقأ تنظر اليهما
عزينة مفكره ان اوليفيه لا شك يفضل لعبة الكرة تلك بما فيه من
سرور صبياني واندفاع ونشاط على الجلوس اليها والانصراف الى سماعها .
عند ما قرع الجرس معلنا ساعة الافطار شعرت كأن رنينه قد
انقذها من افكارها ، كأنه ازاح عن صدرها حملاً ثقيلاً وقالت له لدى
عودتهم الى القصر وهي تستند الى ذراعه : - عساك مسروراً فأجاب
وفي صوته رنة شباب مستعاد :

لقد تسليت كما لو كنت طفلاً انه لمن اشد دواعي الغبطة ان
يجد المرء نفسه ، او يظن ، انه استعاد شبابه . اجل اجل عند ما تموت
الرغبة لدى المرء بالركض والوثب فمعنى ذلك انه انتهى .

وعند ما فرغوا من تناول فطورهم عرضت عليهما الكونتس
ان يرافقاها الى المقبرة التي لم تكن قد قصبتها منذ قدوم اوليفيه
فتوجه ثلاثتهم عبر الغابة حتى بلغوها فر كمت المراتان فوق القبر
وراحتا تصليان بحرارة وقد عصقت الكونتس مندليا بهينيه خشية
ان تذرfa الدموع فتشوه الاصابع التي طلت بها وجهها ، كانت تصلي
والا لم يحرق فؤادها فتصاعد صلاتها الى السماء التي بدت مغلفة امام
رجائها . انها تعبد الله هذا الاله الذي القى الى الارض كل هذه
المخلوقات المسكينة لسبب واحد هو بذل المطف لهم كما ذكره .
ولم تسعفها الكلمات لتطلب منه كل ما تريد فهي تشعر شعوراً مبها انها
بحاجة الى مساعدته والاستعانة به لانها تنتظر احداثا واطواراً ستعود
عليها بالمرحوق .

واما انيت فكانت مغمضة العينين منساقة مع احلامها بعد
انتهائها من تردد بعض المصطلحات الدينية اذ انها لم تشأ ان تنهض
قبل امها .

وكان برآن ينظر اليها وخيل اليه ان امامه لوحة خلافة اسف
كثيراً لانه لم يخرجها بالالوان . واثناء العودة راحوا يتكلمون عن
الحياة البشرية مرددين افكاراً مرة شاعرية وفلسفية منه ذلك النوع
الذي يساعد على نسج حديث بين رجال ونساء صهرتهم الالام فامتزجت

مشاعرهم وتوحدت في حيز الحزن ولم تكن انيت قد بلغت من المضج
درجة تسمح لها بالخوض في مثل هذه الاحاديث فكانت لدى كل
خطوة تبعد عنها لتجني من جانب الطريق ازهاراً برية .

وادركت اوليفيه رغبة بالاحتفاظ بها قريبة منه فقد آلمه ان
يجدها تتركها في كل لحظة وقد احزنه عدم اكترائها بحديثه كما كترائها
بالوان الازهار انها ما تزال صغيرة ليس لها ما يحدوها الى الانصات لمثل
حديث الموت والحياة غير ان رغبته بالاحتفاظ بها دائية كانت اقوي من
ان تقاوم . فراح يتحدث لاجتذابها احاديث اشد مرها موجهها اليها
الاسئلة محاولاً ايقاظ حب الاستطلاع النسوي في نفسها غير ان ذلك
لم يجده نفعاً واغتم فرصة اقترابها منه فقبض على ذراعها وضغطها كي
لا تستطيع فكاً فاضطربت في يده ضاحكة باذلة كل جهدها في
الانفلات وبغريزة المستضعف امام عناد المرأة شاء ان يستثير انتباهها
فقال .

— الاقولي اي نوع من الازهار تفضلين كيما انظم لك منها
عقداً . فترددت مأخوذة :

— عقداً وكيف ذلك ؟

— من حجارة كريمة بلون الزهر المفضل من عقيق اذا
كنت تفضلين الشقيق او من لازورد اذا كنت تفضلين الترنجان

او من زمرد اذا كانت خضرة الوراق هي التي تسحرك . واستنار
وجه آيت بفرح طاغ كما تستنير وجوه النساء اذا ما وعدن بالهدايا
والهبات وقالت ان ما افضل هو الترنجان انه غاية في اللطافة .

— فليكن فما ان نصل باريس حتى اشترى لك العقد الموعود .
وهكذا اقامت بقربه متعلقة به وقد اطربها تفكيرها في الحلية
وتخيلها لها وسألته .

— او يستغرق عمل ذلك طويلاً .

فضحك وقد ادرك انه استحوذ على افكارها .

— لست ادرى سنحت الصائع ما وسعنا ذلك .

وعبرت خاطرة في رأسها فجأة : ولكنني لن استطيع لبس الحلية
فانا كما ترى في حداد .

فتأبط ذراعها وجذبها : حسنًا تحتفظين بها حتى ينتهى حدادك
وتستطيعين خلال ذلك التمتع بها على انفراد .

وكان في المساء بينهما وقد احاطتا به احاطة الشهب بالقمر
ناظرتين اليه باعينيها الزرقاء المتشابهة ذات النقط السوداء فكان يحذنها
كلا بدورها . ولم تعد صورتا البنت والام تحتلطان في خاطره كالسابق
فان النور الساطع بكفى للتمييز بين زهرة بدأ يعتربها الذبول وزهرة لما
تفتتح جيداً لندى الصباح . والرغبة الوحيدة التي كانت تشور بين حناياه

هي تقبيل الواحدة والاخرى ود لو يقبل الابنة ليستعيد تلك الطراوة
التي كان قد عرفها فوق خديها في ايامها الخوالي ، ود لو يقبل الام
لانه مازال يحبها .

وعادت آيت تجتني الازهار . وراح يمتع انظاره بها دون ان
يستدعيها كما فعل سابقاً راح ينظر اليها كما ينظر المرء الى الصباح
المنبج ، وكما يصغي الى نغم عذب متطاير . فهي تحيي فيه صور الماضي
ماضيه مع امها ، ذكرى صباه وحبه . لقد حطمت الايام واعادت
اليالي القهقري فرجعت بقلبه سنوات عشرين الى الوراء لقد مزجت
يومه بغده وذكرياته بآماله . وراح يتسائل باحثاً في اعماق ذاكرته
اكانت امها لدى اكتمال فتنها تتمتع بمثل هذا السحر الطاغى وهذا
السناء الجري الذي لا يقاوم . كلا كانت اقل رواء واكثر تهدياً .
فهي ابنة المدينة ثم سيدة المجتمع لم تملأ رثتها قط بهواء الحقول الطلق
لم تتمرغ ابداً في حشائش المروج الندية انها جميلة بين الجدران المظلمة
بالسجف وليس تحت الشمس الساطعة في الريف الطليق الفسيح .

وانصرفت الكونتس الى كتابة بعض الرسائل بينما ذهبت
ابنتها الى غرفتها فخرج الرسام يمشى قليلاً في الحديقة وقد اشعل سيكاً
والقى يديه وراء ظهره . كان مضطرباً ولكنه سعيد ، سعيد ؟ ومما ؟
من كل شيء الهواء نقي والحياة رضية وهو يحس في نفسه خفة

كنخفة الاطفال رغبة ، في الانطلاق ومطاردة الفراش المتواثب فوق
الحماة . وكان يتمم ببعض الاغاني الشائعة مردداً بين الفينة والاخرى
قول الشاعر كونود : دعيني اتعب في محراب عينيك . وقد ادرك في هذا
القول معنى عميقاً حنوناً لم يدركه قبل الان .

وتساءل فجأة كيف استطاع ان يحقق في نفسه هذا التطور
السريع فقد كان امس في باريس ضجراً مستاءً تأثر الاعصاب وهو
اليوم هادي قانع كان ارادة علوية قد غيرت جوهر نفسه وقال لنفسه
ان الاله الصالح الذي فعل ذلك كان بمقدوره اعادة شبابي كما اعاد لي
مرحي وصفاء نفسي .

وبعد المشاء لم يخرجوا كما فعلوا امس فامضوا السهرة في
الردهة . وقالت الكونتس فجأة : - اعتقد ان لا بد لنا من السفر عاجلاً
فصرخ اوليفيه :

- لم يأن لك الحديث في مثل ذلك ! فما كنت راغبة في مغادره
رونسير عند ما لم اكن انا فيها وما ان جئت حتى رحلت تفكيرين في
السفر . فاجابته :

- ولكن يا صديقي العزيز ليس بمقدورنا الافاقة الى
مالا نهاية له نحن الثلاثة .

— أنا لم أقصد القول الى مالا نهاية انما عنيت بضعة ايام اخرى .
فكم من المرات اقلت لديكم الاسابيع الطوال ؟ .

— صحيح ولكن في ظروف اخرى فقد كان البيت مفتوح
الابواب لجميع الناس .

وتدخلت آنيث قائلة بصوت لطيف :

— ولكن يا اماء بضعة ايام اخرى يومين او ثلاثة . انه يعلمني
احب النفس وانا اتقدم سريعا وبدر كني الحزن اذا ما خسرت .
و كانت الكونتس قد قررت في ذلك الصباح بالذات تمديد
تلك الاقامة السحرية حتى الاحد القادم وها هي الآن تنقض قرارها
دون مبرر معقول . ان هذا اليوم الذي ظننته يوما مفعما بالسرور قد
ترك في اعماق نفسها شعورا مريرا لم تستطع معه ان تقاوم رغبته في
ابعاد جيبها عن ابنتها . وعند ما خلت الى نفسها وقابلت الموقف
جيذا خرجت بنتيجة هي انها قد تسرعت وان ليس ثمة من داع لمثل
هذا الاضطراب .

وشمرت بحركة تحت نافذتها ولما نظرت وجدت اوليفيه يتنزه
تحت القصر فتسائلت لقد اخبرني انه سيأوي الى فراشه لاريب في
انه غير راغب في مرافقتي في زهرته هذه وهمت باغلاق النافذة لكي
لا تراه وتناديه ولكنه رفع عينيه اليها وناداه : — اراك تحملين تحت

النجوم فاجابته وانت تفعل ذلك كما ارى — انما انا ادخن فقط .
ولم تستطع مقارمة رغبتها في سؤاله : — وكيف لم تخطرنى بانك
ستخرج تنزه .

— الواقع اني وددت تدخين سيكار فحسب وها اني عائد .
— اذاً عم مساء يا صديقي

— عمي مساء ايها الكونتس ورجعت فاقعدت كرسيتها
المنخفض وبكت وقضت ليلتها تلك وقد جفهاها النوم محمومة يقض
مضجها كابوس مرعب . ولدى استيقاظها فتحت نوافذ غرفتها
بنفسها ودون ان تقرع الجرس لوصيفتها راحت تنأمل نفسها بالمرآة
كانت تقاطيع وجهها مسترخية وجفونها مقورمة ولونها منخطفاً فالحزن
الذي حط عليها كان ساحقاً ان بها رغبة للعودة الى سريرها والاعلان
عن مرضها والاعتكاف في غرفتها حتى المساء .

غير ان فكرة السفر دهمتها فجأة فلم تستطع مجابهتها انها ترغب
السفر ولو باول قطار عليها ان تغادر هذه البقعة ذات الشمس الساطعة
شمس الحقول التي تكشف للانظار كل آثار الاحزان المنطبعة
فوق الوجه واما في باريس فهي دائماً في ظل فالعرف معتمة والستائر
كثيفة لا تسمح بدخول النور الا بمقدار . وستعود الى الظهور في باريس
جميلة وقد يزيد هذا الشحوب فتنة في النور الضئيل اللطيف وعبرت

صورة وجه ابنتها في تخيلتها بخديها الناضرين وشعرها المفقّر الى العناية
انها ريانة متدفقة النشاط فياضة الشباب خاصة عند ما تلعب التنس .
وادركت سبب اضطرابها المجهول الذي اعتصر روحها ايما اعتصار
ومع ذلك فهي لا تحس غيرة من ابنتها وكل ما تريده هو الا تظهر
بالقرب منها في وضع النهار .

وقرعت الجرس وقبل ان تناول الشاي اقلت او امرها
بالاستعداد للرحيل فطيرت برقيات وحتى عشاءهم طلبته برقيةً واوقفت
حساب البيت الريفي ووزعت تعليماتها الاخيرة ورتبت كل شيء في اقل
من ساعة . كانت فريسة لقاق وفراغ صبر متزايدين ساحقين .
وعندما هبطت من غرفتها احاط بها اوليفيه وآيت وراحا دهشين
يسألانها عن سبب قرارها السريع . وادركا ان اينس لديها سبب وجيه
يبرر ما فعلت فتمتا غاضبتين مظهرين عدم رضاها لهذا الفراق المفاجيء
واستمرتا على مثل هذه الحال حتى افتراقهما في ساحة المحطة في باريس .
ومدت الكونتس يدها مودعة الرسام قائلة :

— آريدان تأتي غداً لتناول الطعام لدينا ؟ فاجابها مستاءً :

— بكل تأكيد سيد سآتي . كما تريدون ولكن ما فعلتيه لم يكن

لطيفاً فقد كنا سعداء هناك نحن الثلاثة .

الكتاب الثالث

- ٣ -

وما وجدت الكونتس نفسها في العربة التي اقلتها من المحطة مع ابنتها حتى ادر كها هدوء مفاجي* كذلك الهدوء الذي يعم الكون بعد عاصفة هوجاء . كانت تنفس بسهولة اكثر ، متعرفة على البيوت التي تمر بها فان بها لشوقاً الى باريس .. بل الى هدوءها واستكانة اعصابها احست انها قد انقذت نفسها . ولكن من اي شيء ؟ انها اطمئنت . ولكن ممّا ؟ ... وانها احست الراحة ولكن ما الذي كان يشقيها ؟ وسارت الى غرفتها توّاً . وشعرت وهي تلجها انها أصبحت في مأمن .

وهبطت في ساعة الغداء . فاستقبلها زوجها الذي كان قد عاد منذ فترة . فعانقها بشوق وابتسم قائلاً :
— كنت واثقاً ان صديقنا برنان يوفق الى جابكنا معه . وهكذا

فأنا لم أكن غيباً ساعة عرضت عليه القيام بهذه المهمة .
فاجابت آتيت بصوت مفعم هزءاً دون ان تضحك :
— لقد لاقى في سبيل ذلك عناء كبيراً . فإني كانت شديده
التردد . »

ولم تقل السكونتس شيئاً . ولاذت بالصمت شبه حائقة .
وقصدت بعد الغداء بعض محال الازياء فهي بحاجة الى اثواب
جديدة وانها انجد متعة عظيمة في زيارة دور الازياء واختيار الثياب
الانيقة ، والاستسلام الى ايدى العاملات الانيقات ليختبرن لها ما يلائمها
من حديث الازياء .

ولدى عودتها وجدت بطاقة من الدوقة تعامها انها مرت فها
وجدتها وانها ستعود في المساء .

ووصل برتان في المساء للعشاء وهتف لدى وقوع انظاره عليها
— انك رائعة هذه المساء .

فتمشت فيها موجة سعادة حاره لدى سماعها قولته .
وطلب الكونت الى برتان ان يلاعبه البليار بعد العشاء فانتقلوا .
الى الغرفة الخاصة حيث تناولوا قهوتهم .

وكانا ما يزا لان منهما مكن باللعب عندما اعلن قدوم الدوقة .
كما حضر كوريل وزوجته . وبعد اداء واجب التعزية وذرف الدموع

وتبادل عبارات الترفيه ، انصرف الجميع الى احاديث عادية متنوعة .
ووصل ميزادبو كذلك حريصا ان يكون اول القادمين لتعزية آل
غيروا وقد عرف بقدمهم . ودخل فقدم لهم « احر عبارات تعازيه »
وتناول اوليفيه ذراع الصبية وقادها حتى اوقفها تحت صورة
امها متيحاً للحضور تأمل الشبه الغريب بينهما وهي مرتدية السواد كما
بدت امها في الصورة . وقد ادهش الجميع هذا الشبه الغريب وراح كل
ييدي ملاحظاته باعجاب . حتى ان الكونتس تضايقت غاية التضايق
من ذلك ، وعظم لديها مثل هذا الامر ، فصاحت بهم : اصمتوا ! لقد
فهمنا ان ابنتي تشبهني .

وكان برتان يتحدث اليها عندما اعلنوا عن قدوم المركيز
دي فارندال . وما رآه برتان داخلا حتى اغتم فرصة انصراف الجميع
اليه وانزاق عبر باب قريب واختفى وهو يتمتم : هيا بنا . فهنا هو ذا
الحيوان الضخم يصل .

وبحثت الكونتس عن حبيبها بعد ان تلقت تعازي القادم
الجديد فما وجدته . فسألت :

— ماذا ؟ ارحل رسامنا الكبير ؟

فاجاب زوجها : -- اعتقد انه رحل . فقد شاهدته ينسل على
الطريقة الانكليزية .

فمجبت لتصرفه ، وادركها حزن ، غير أنها ما لبثت ان
انصرفت تحدث الدوقة .

ولم تطل السهرة بالجمع بل سرعان ما انصرفوا .
وعندما وجدت الكونتس نفسها مستيقية في سريرها عاودها
كل اضطرابها ، وقلقها ، كما كانت في الريف تماماً . وربما ازداد
شموورها بتقدمها بالسن وضوحاً بعد عودتها الى باريس .
لقد ادركت ، هذا المساء ، وللمرة الاولى ، انه اصبح في صالونها
من يتربع في المقام الاول فيتلقى الاعجاب دونها ، وتغدق عليه النعوت
التي حرمت منها هي ... انها ابتها ... لقد ادركت ذلك جيداً ...
ادركت ان ابتها قد استوت على عرش الجمال والفتنة الذي خلعت عنه
هي ... خلعها السن . والسن هو الذي اجلس فقاتها مكانها كذلك
فلم يغب عن فكرها ان كل العيون اتجهت الى فقاتها معجبة ، متمتعة
بالصبا الريان والشباب الغض وان كل الالسن قد دارت في حلوقها
معبرة عن اعجابها ، واقتنائها بحال الصبية ذات العشرين ... امّا هي
هي ... فقد هبطت عليها غمامة النسيان ... فعاشت ساعاتها تلك في
الظل ... بعيدة عن نور المديح والثناء والاعجاب ... فشق ذلك
عليها ايما مشقة ... فقد اعتادت على سماع تلك الموسيقى التي تخلب لب
النساء في كل زمان ومكان ... الثناء ...

وجاء برثان لزيارتها في اليوم التالي ودخل قائلاً بمرح :
— ها انذا . دائماً انا ... ولا احد سواي ... أنت
مشغولة بامر ما ؟ ..

— كلاً . ولماذا ؟
— وآنت ؟
— ولا آنت

— او تستطيعان اذا الحضور الى منزلي حوالي الرابعة ؟
— اجل .. ولكن باي خصوص ؟

— اني ارسم لوحتي « الاحلام » التي حدثتك عنها وبودي لو
تسمحين لآنت بالوقوف امامي فترة قصيرة . ان ذلك يؤدي لي بدأ
مشكورة . وان ساعة واحدة تكفيني اليوم . او تربدين ؟
وترددت الكونتس ضجرة دون سبب معلوم . ومع ذلك
اجابت :

— لا بأس يا صديقي . سنكون لديك الساعة الرابعة .
— اشكرك انك عنوان الرقة والدمانة .
وبعد ذلك خرجت الكونتس ماشية لتكمل بعض مشترياتهما
ولدى عبورها امام كنيسة سانت اوغسطان ادر كتبها رغبة ملحة في
دخولها لتصلي قليلاً . فدفعت الباب ودخلت .

انها متدبنة شأن معظم الباريسيات . انها تؤمن بالله دون اي شك . انها لا تفهم وجود هذا الكون دون خالق ابدعه . وليكنها تحلظ ، كما يفعل معظم الناس ، بين القدره الخالقة وبين الماده المخلوقة التي ندر كها بالحواس ، فهي لا تستطيع تخيل الله في غير الصورة التي صورها الدين له اي انها تعطيه شخصاً مادياً يفكر ويحب ويبغض ويغضب ويصفح ويحب التمجيد والتقديس . كانت تعتقد بذلك اعتقاداً مبهماً دون ان تعنى بالتفكير عما يكون عليه مثل هذا الخالق الغريب لو صح ما زعمت .

غير انها تعتقد بوجوده اعتقاداً تاماً لا تشوبه شائبة ما وهي تخافه خوفاً مبهماً كذلك .

ولقد كانت رئيسة لجمعية دينية عديدة ، وهي لا تذكر انها اهتمت الذهاب الى الكنيسة احياناً واحداً كما انها لم تغض عن التصديق على الفقراء قط

وكثيراً ما كانت تصلي مدفوعة بواجبها كفعل الجندي القائم بالحراسة امام باب الجنرال . . . وربما صلت احياناً اذ يكون قلبها حزينا او عندما كانت تخشى هجران اوليفيه . غير انها لم تبسح يوماً بسر ائرها امام السماء فهي تعامل الله بنفس الاسلوب الخبيث الذي تعامل به زوجها . وهي تطلب منه عونها دون ان تعنى باعلامه السبب .

وهاهي الآن وقد دخلت هذه الكنيسة صدفة قد ثارت
فيها رغبة اكيدة في الصلاة . من اجل نفسها وليس من اجل الاخرين
فهي بحاجة الى مساعدة من مكان ما . وليس امامها سوى الله ..
فلقناده كما ينادي المرء الطبيب ساعة اشتداد العلة .. واستمرت في
ركوعها فترة طويلة والهدوء الخيم على المعبد يجلببها .. وتنبهت من
استغراقها فتناولت ساعتها ونظرت اليها فادركت ان الرابعة باتت
قريبة فنهضت عجلي واثقة من ان اوليفيه لا بد مقيم بانتظارها الان .
ووجدناه في مرسمه يضع الخطوط الاولى للوحته « الاحلام »
وهو يريد مطابقة لما شاهده في حديقة مونسو عندما كان يتنزه مع
آنيث : فتاة فقيرة تحلم وفوق ركبتيها كتاب مفتوح . وتردد كثيراً
بين تصويرها جميلة او قبيحة . فاذا اخرجها قبيحة استطاع ان يضيئ
عليها الوف المعاني . واما اذا كانت جميلة فتأتي افدر على الاغراء واثارة
الفطنة واستدرار الاعجاب .

غير ان الرغبة في اتخاذ صدقته الصغيرة نموذجاً للوحته جعله
يقرر فستكون « الحاملة » جميلة وستصبح قادرة على تحقيق الحلم
الشاعري الذي يشع من عينيها فاما لو كانت جميلة فلا ريب ان حاملها
محكوم عليه بالاضمحلال .

وما ان دخلت المرأتان حتى استقبلهما اوليفيه فاركاً يديه قال .

— حسناً يا آنسة ناني سنشتغل اذاً .

وظهرت الكونتس مهمومة . وجلست فوق المقعد وراحت
تراتب اوليفيه وقد وضع في النور كرسيّاً من القش الاخضر ثم فتح
مكتبته ليختار منها كتاباً وسألها بعد تردد :

— ماذا تقرأ ابنتك ؟

— الكتاب الذي تريده اعطها احد كتب فيكتور هيكو .

— اسطورة القرون ؟

لا بأس وتابع موجهها كلامه الى آنت : اسمعي يا صغيرتي
اجلسي فوق هذا الكرسي وخذي ديوان الشعر هذا افتحي الصفحة ..
الصفحة ٣٢٦ حيث تجدين قطعة عنوانها البؤساء . استوعبيها كما
يستوعب الشارب الخمر الجيد هكذا وثيداً كلمة كلمة واركبي لنفسك
الانطلاق مع الشاعر حتى يبلغ بك التأثير مبلغه ثم اطبقي الكتاب
وارفعي عينيك وفكري واحلمي ... واكون انا خلال ذلك قد
اعدت ادوات العمل .

وذهب الى زاوية بعد الفراشي وفرع على قطعة خشبيه من
اناييب صغيرة خيوطاً من الالوان كان يستدير من وقت لآخر ويتأمل
الفتاة المستغرقة في القراءة . وكانت قد انتهت من دراسة القطعة
وراحت تنظر امامها فدنا منها فابصر في عينيها دمعين لامعين انفلتتا

وسالنا فوق خديها فانتفض احدى تلك الانتفاضات التي تخرج
الرجل عن طوره وتتم موجهها للكونتس :

— يا الهي كم هي جميلة ! ولكنه بهت امام وجه الكونتس
الشاحب المغضن .

كانت عيناها الكبيرتان مليئتين بنوع من الرعب وهي تنأملها
فدنا منها وقد استبد به القلق وسألها :

— اريد ان اكلمك . ونهضت وقالت لا نيت بسرعة :
— انتظري دقيقة يا ولدي لي كلمة اقولها للسيد برتان ثم سارت
سريعة الى الصالون الصغير المجاور . وتبعها والافكار تضج في رأسه
وهو لا يفقه لموقفها معنى وما ان انفردت به حتى تناولت راحتيه وقالت
بلهجة بالغة الاضطراب :

— ارجوك يا اوليفيه ان لا تصور ابنتي . فتمتم مضطرباً :
— ولكن لماذا ؟ فاجابت بصوت سريع النبرات .

— لماذا ؟ لماذا ؟ انه يسأل ؟ اذن فانت لا تشعر بشيء . آه اما انا
فقد حدثت بذلك انا وحدي التي اكتشفت الامر هذه اللحظة ...
لا استطيع ان اصرح لك بشيء الان ... لا شيء ... اذهب وعد
بابنتي قل لها اني اشعر بالمرحاض واطلب لنا عربة ثم تعال بعد ساعة
لزيارتي وساقابلك على انفراد !

— ولكن ما بك ؟

وبدت له تسكاد تسقط تحت إحدى ثورات الأعصاب .
— دعني لا أريد أن أقول شيئاً هنا هيا وجي ، بفتاتي وادعو
لنا عربة .

وصدع بأمرها فعاد إلى المرسى فوجد آنيث ما تزال منصرفة
إلى القراءة وقد غمرت قلبها موجة من التعاسة من جراء القصة
الشاعرية المحزنة ، فقال لها أوليفيه :

— إن أمك ليست على ما يرام فقد شعرت بالهم مفاجئ هيا إليها
وساجبئوها بشيء من الأثير ثم خرج وعاد بزجاجة من غرفته .
ووجدتهما قد تعانقتا باكيين فانتظر بعض الوقت وقد دهمه
ثأر قوي لدى رؤية دموعها ممزجة وتكلم أخيراً . . .
— ألا تشعرين بتقديم فاجبات الكونتس نعم قليلاً ليس في الأمر
خطر اطلبت لنا عربة ؟

— نعم وستكون هنا بعد لحظات — شكراً يا صديقي ليس
في شيء ولعل الحزن الذي تعرضت له منذ مدة هو الذي سبب ذلك .
وأعلن الخادم أن العربة معدة .

وامتدنت الكونتس إلى صديقتها شاحبة متسارعة النبض
حتى الباب .

وعندما انفرد بنفسه تساءل . . ولكن ما بها وما هذه النوبة
وراح يفتش عن الحقيقة دون الوصول الى شيء واخيراً استنار فكره . . .
اعلمها تصورت اني اغازل ابنتها ولكن ابعد ذلك ؛ انه لامر فظيع
واحتدم غيظاً ولم يرضه ان تجرؤ السكونتس على اتهامه بمثل هذه التهمة
الحقيرة بمثل هذا الفعل الدنيء وقرر ان سيكون جوابه حاسماً
وسيعلم ثورته .

وخرج مبكراً ليلتحق بها وقد فرغ صبره للاطلاع على
حقيقة الامر وكان طوال الطريق يهيمه الاقوال والعبارات التي
ستشكل دفاعه عن نفسه .

ووجدوها فوق كرسيها الطويل ووجهها متألم بالغ الألم . فقال
لها بنبرة جافة :

— حسناً ياسيدي العزيزة هلا تكرمتي بشرح الدور الغريب
الذي مثلته منذ ساعة . فاجابت بصوت محطم . . .
— ماذا ؛ اما فهمت حتى الآن ؟

— كلا ولك ان تثقي

— حسناً يا اوليفيه ابحث جيداً في قلبك

— في قلبي ؟

— اجل في اعماق قلبك .

- انا لا افهم هلاً افصححت .
 - ابحت جيداً في اعماق قلبك فقد تجد فيه شيئاً بشكل
 خطراً عليك وعلي .
 - اكرر لك اني لا افهم شيئاً . لقد حدثت ان ثمة شيئاً
 في خيالك اما ضميري فلم اعثر فيه على اي شيء .
 - انا لم اعن ضميرك انما عنيت قلبك .
 - انا لم اتعلم حل الالغاز ارجوك ان تتحدثني بوضوح .
 ورفعت يديها بهدوء وتناولت راحتي الرسام ثم راحت تقول
 وكان كل كلمة تمزق احشاءها تمزيقاً .
 - حذار يا صديقي انك توشك ان تصرع بسهام عيني آنيث .
 وجذب راحتيه بشدة وراح يقرعها ويلومها باندفاع البري
 الذي يمحو وصمة منجلة الصقت به . وتركته يتكلم طويلاً مخنقة
 بكل هدوئها واثقة من كل ما ذهبت اليه ثم عادت تقول ...
 - وليكني لا اشك فيك يا صديقي . انك تجهل العاصفة التي
 توشك ان تهب في اعماقك كما كنت اجهل ذلك انا في هذا الصباح
 انك تخاطبني كما لو كنت اتهمك باغراء آنيث . كلا ، كلا فانا اعرف
 كم انت نبيل كم انت اهل للاحترام والثقة . وليكني ارجوك بل
 اتضرع اليك ان تنظر في اعماق قلبك وتقول لي هل هذا الشعور

الذي بدأ بعلاج في صدرك بالرغم منك لا يحمل لابنتي شيئاً
غير الصداقة .

وغضب من قولها فقد اثارته اكثر فاكتر ثم راح يؤكد
لها نبل عاطفته مكرراً على مسامعها الجمل التي اعدّها وهو قادم اليها .
وانظرتة حتى فرغ ثم راحت تقول دون غضب او اضطراب
ولكن بشحوب مخيف . . .

— انا اعرف يا اوليفيه صدق ما تقول ولقد فكرت كما تفكر
وانا واثقة من اني لست مخدوعة ، اصغ الي وفكر بها اقول وتفهم
جيداً ما ارمي اليه . . ان ابنتي تشبهني كثيراً انها صورة واضحة تمثلي
يوم كنت شابة ، يوم بدأت تحبني ولهذا السبب ستجد نفسك هائماً بها .
وصرخ بعنف . . اذن انت تجرئين على صفعي بمثل هذه التهمة
مستندة على استنتاج سخيف . . هو يحبني ، ابنتي تشبهني ، اذن
سيحبها .

ولاحظ وجه الكونتس يتغضن اكثر فاكتر فتابع بصوت
اكثر لطفاً . .

— ولكن يا عزيزتي آني اذا كانت هذه الفتاة تعجبني فلاها
صورة عنك . فانت انت وحدك التي احب عندما انظر اليها .
— صحيح وهذا بالضبط ما جعلني اتألم . اخاف بشدة ان

شعورك لم يتبلور بعد ولا بد له ان يفعل بعد وقت ما .

- آني أو كد لك انك جننت .

- أريد أدلة - أجل -

- كم رجوتك ان تأتي الى رونسير منذ ثلاث سنوات فلم

تستجب لي قط . غير انك لم تتردد عندما عرفت ان آيت فيها .

- آه ؟ مثلاً ! انت تلوميني لاني حضرت كي لا أتركك

وحبك وقد عرفت انك مريضة بعد وفاة امك .

- فليكن فلن أعسك بذلك ولكن ما رأيك بهذا . ان

رغبتك في مقابلة آيت بالغة لديك شأواً بعيداً حتى انك لم تستطع

تخصية يوم دون ان تراها فدعوتنا لزيارتك مبرراً ذلك بانك تريد
تصويرها .

- ولماذا لم تفترضي ان دعوتي لكما صادرة عن رغبتني في

رؤيتك انت ؟

- انك تناقض نفسك بنفسك محاولاً اقناعي ولكنك ان

تخدعني اسمع ايضاً لماذا غادرت البيت فجأة اول امس عندما حضر

السيد فاراندال الا تعرفه ؟

فتردد وقد اخذ على حين غرة واشتد اضطرابه وقد جرده

اتهمها هذا من سلاحه .

— لست ادري بالضبط ... كنت تعباً ... ومن ثم
فلا كن صريحاً ان هذا الاحق يشير اعصابي .
— ومتى كان ذلك ؟ — دائماً
— معذرة فقد سمعتك تمتدحه . كان بمجيبك في الماضي كن
صريحاً كل الصراحة يا اوليفيه .

وفكر لحظات كأنه يفدش عن الكلمات وقال ..
— نعم من المعقول ان يحملني حيي لك على ان احب كل انسابك
ولا أبدي رأيي بهذا الابه ولم يكن يشير في اي اهتمام لو اقتصرت
معرفتي به على لقاء بين وقت وآخر ولا غرو ان اغضب اذ وجدته
بكثير التردد عليكم .

— ولكن بيت ابنتي لن يكون بيتي . الا يكفي ذلك ؟ انا
اعرف نبل قلبك . واني لواقعة من انك ستفكر طويلاً بكل ما قلته
لك . وعندما تقتل الموضوع تفكيراً مستجد انني على حق . انني
ارشدتك الى خطر داهم فاعطيتك الوقت الكافي لتجنبه فحذار
حذار . لتتكم بموضوع آخر تريد ؟

فلم يمانع وبدأ شديد الاستياء وهو لا يعرف تماماً فيما يفكر
وقد كان في الواقع بحاجة الى التفكير وبعد ربع ساعة من احاديث عادية
نهض وانصرف ...

وبلغ اوليفيه بيته بخطى وثيدة ، وقد بلغ منه الاضطراب كل مبلغ كما لو كان اطلع على سر عائلتي مشين . وحاول سبر اغوار قلبه وتحقق من ميوله التي جاءت يد غريبة فقامت صفحاتها واقلت الى النور بسطورها ... انه لا يعتقد ، في الواقع ، ان مازهدت اليه الكونتس حقيقة او شبه حقيقة فهو لا يعرف في نفسه حبا لا نيت . فالكونتس وقد اعمتها غيرتها العاصفة ، لم تستطع الا الاشارة الى خطر لم يحدث بعد ولكنه ممكن الحدوث . ولكن ... يمكن ان يصبح هذا الحدس يقينا غداً او بعد غد او في غضون شهر ؟ ! هذا هو السؤال الدقيق الذي حاول برتان ان يجده له الجواب الشافي . ومما لارب فيه ان هذه الفتاة تثير في أعماق برتان حنواً وحسداً غريزيين .. غير ان هذه العواطف الغريزية من الشدة والتداخل في نفس الرجل حتى يصعب تمييز الخطير منها عما لا ينطوي على اي خطر ... ان ما يجذبه الى هذه الفتاة لا يعدو كونه احد تلك الميول الغامضة البريئة التي تشكل جزءاً

من مجموع ميول المرء نحو الخير والحق والجمال . ان ما فيها من ريق
الشباب ونفحة الصبا ليجذب عينيه كفتان ورجل . وشبهها العظيم
بامها في صباها يوقظ في قلبه حبه القديم الذي غفا او كاد يغفو ، بفعل
السن ، في اعماق الاوعية . انها يقظة حب ؟ اجل ! هذه هي الحقيقة
كل الحقيقة ! واستنار عقله عند ما خطرت فيه هذه الخاطرة . لقد
استيقظ بعد سنوات طوال و كل ما فعلته هذه الصبية يختصر
في انها نفخت فيه ناراً او شكت ان تجبو تحت الرماد .. رماد الزمن
انه يحب الام ولا شك . غير ان حبه لها قد تعاضم لدى وقوع عينيه على
هذه النسخة الجديدة منها .. هذه الفتاة التي تمثلها اصدق تمثيل يوم عاقتها
قلبه ونخلص ما خلاص اليه بهذا التحليل الفلسفي :

« لا يحب المرء الا مرة واحدة . اما القلب فلا يعدم فترات
يخفق فيها لمخلوق آخر غير الحبيب ، لانه ما ان يلتقي شخصان حتى
يحدث بينهما مدّ وجزر قد تنجم عنه الصداقة ، او حب الامتلاك ،
او احدى تلك العواطف العابرة الموقته ، اما الحب الحقيقي فلا يحدث
من جراء ذلك ابداً . اما الحب الحقيقي هذا فلا يولد الا اذا كان
الشخصان قد خلق احدهما الآخر فيشعر الواحد ازاء الآخر بجواذب
لا تحصى : روحية ومادية ... فالحبيبة ليست السيدة فلانة ، وليس

الحبيب السيد فلان ، انها امرأة وانه رجل ، مخلوقان لا اسم لهما ، قد
خرجا من « الطبيعة » ليسمى كل منهما الى اللقاء بالآخر والاتحاد به
والفناء فيه فان الطبيعة تخلق في الشخص المحبوب شيئا محريا يجذب
من المحبوب عذيه وقلبه وشفتيه وافكاره وكل ما فيه من حواس
وخواطر . فاذا احب رجل امرأة فانما يحب فيها مجموعة الصفات البشرية
التي تشكل الجاذب الذي يبعد بنا عن كل شخص آخر ويدنينا من
الحبيب دون سواه .

وكانت الكونتس بالنسبة اليه ذلك الشخص الجذاب ، المحبوب
غير ان ابنتها تشبهها جسديا ، فليس ما يمنع ان يعمل هذا الجاذب فيه
عمله ، فيميل اليها بقلبه ولكن دون ان يندفع في ذلك المزالق الخطر...
لقد احب امرأة حتى العبادة ! ثم جاءت امرأة ثانية ، من لحم حبيبته
ودمها ، بشبه غريب بينهما . افيستطيع ان يقف ازاء الثانية دون ان
يفقد عليها طرفا من وجده القديم وحبه الخلابي المستيقظ . وماذا في
مثل هذا العمل ؟ واين الخطر فيه ؟ فالامر لا يتعدى متعه النظر في
هذا (الماضي المنبعث) . غير ان غريزته لم تخنه ، ولم تفضل الطريق .
فهو لم يحمل للفتاة مطلقا اى ميل غريزي ! ومع ذلك فما الكونتس
تهمه بغيرته من المراكز . اصحیح هذا ؟ وعاد يتفحص ضميره ذاك
التفحص الصارم فخرج هذه المرة بهذه النتيجة : لا ريب في انه يحمل

غيرة من المراكز . ولكن الا نشعر بالغيرة من اي رجل يغازل اية
امرأة امام ناظرينا او لا نحس شيئا مثل هذا حتى في المسارح او قراءة
الروايات ؟ فكل من يملك امرأة يبدو لنا مزاحما . فما هو الا ذكر
متغلب مكتفٍ فحسد الذكور الآخرين له امر طبيعي . ولندع هذا
التحليل الفيزيولوجي . فقد خالص الى انه يحمل للفتاة حبا مستوحيا من
حبها لا منها . افليس طبيعيا ان يغار عليها . اليس طبيعيا ان يحمل
لزوجها المستقبل شيئا من الكره الحيواني ؟ .

وادرسته غصة مريرة اذ فكر ان علاقته بالام سيشوبها
الكثير من الشك والقلق فان ايه كلمة يتلفظ بها او حركة ياتي بها قد
تحمل في عين الام معانيا كثيرة . وقصد مسكنه ، واقام مسدة يدخن
ويلوك مثل هذه الافكار . وعبثا حاول العمل فكان يده وعينه قد
نسيتا الرسم كما لو لم يكن قد اشتغل به قط . واحس ضجرا ومللا
فكان الساعات لا تمشي ولا تتقدم فيما سيشغل وقته حتى يا زف وقت
الغداء فيقصد النادي . وينهض يزرع الرسم بخطى قصيرة حائرة . ثم
عاد يجلس زاعما انه يستطيع قطع الوقت بالمطالعة ، وكان كتاب
(اساطير القرون) ما زال فوق المقعد فتناوله وقرأ صفحتين من
الشعر دون ان يفقه للكلمات معنى . ولم يجد افضل من اخذ حمام
ساخن يهدى اعصابه ويقتل الوقت به . وبعد الفراغ منه قصد النادي

فتلقاه رفاقه باذرع ممدودة والاسئلة تزدحم فوق شفاههم . فقد مضت
مدة طويلة لم يظهر فيها بينهم . فاجاب باقتضاب :
— اني عائد من الريف .

وكان الغداء مثله في سائر الايام . كثير الضجيج ، محتمد الجدل
بين الرفاق . وراح يرتان يكثر من الكلام للترفيه عن نفسه والابتعاد
بفكره عن الموضوع الذي يرهقه . ووجد الرفاق غربا فقد اعتادوا
منه الاتزان والاقبال من الكلام .

وما ان فرغ من تناول قهونه وشوط البليسا حتى انصرف
متجهاً نحو (الايودروم) ثم غير رأيه واتجه نحو الملعب الجديد ودون
اي مبرر استدار عائداً ووجد نفسه يسير في شارع (مالرب) ويدنو من
مسكن الكونتس غيروا . . . « ستجد زيارتي غريبة ولا ريب هذا
المساء » غير انه عاد وفكر ان ليس من المستغرب عودته لاستطلاع
احوالها مرة ثانية . ووجدها وحيدة مع آنت في الصالون الصغير وقد
انصرفتا الى حياكة اعطية الفقراء .

وقالت ببساطة عندما رآته واخلاً .

— اهذا انت يا صديقي .

— اجل ان افكاري مشغولة عليك وهما قد جثت

لأراك فكيف انت .

لأبأس اشكرك وسألته بعد لحظات بلهجة معنوية : وانت .
فراح يضحك بانطلاق مجييا : انا على احسن حال ان مخاوفك
لم يكن لها اي مبرر .

فانقطعت عن حياكتها ونظرت اليه نظرة حادة فيها رجاء
وفيهما شكوك .

فقال : اني اروي لك الواقع .

— حسنا

قالتها بابتسامة مغتصبة وجاس للمرة الاولى شعر بانزجاج
يدهمه في هذا البيت كأن شللاً قد اصاب تفكيره كما حدث معه تماماً
عند ما حاول ان يشتغل في رسمه .

وقالت الكونتس لابنتها .. تابعي عمك يا بنيتي فهذا لا يزعجه
وسأل : وماذا تعمل ؟

— انها تحيك صوفاً .

وبعد فترة صمت نهضت آتيت الى البيانو فتبعها بناظريه دون
ان يقصد كما اعتاد ان يفعل . واحس بامها تراقبها فانتفض واستدار برأسه
كانه لمح شيئاً في زاوية الصالون . وتناولت الكونتس علبة صغيرة
مذهبة وكان قد اهداها اليها وفتحها وقدمت له لفافة ..

دخن يا صديقي فانا احب ان اراك تدخن عند ما نكون
سوية .

واطاعها وبدأت آتيت العزف وكانت المقطوعة قدمة خفيفة
وعذبة من تلك القطع التي ارحيت الى الفنان في مساء جميل مقمر من
امسية الربيع وسأل اوليفيه لمن هذه المقطوعة فاجابت الكونتس انها
(لشومان) ليست مشهورة ولكنها جميلة .

وكان بوده ان يتأمل آتيت وهي تعزف ولكنه لم يجزؤ فهو
يدرك ان انظار الام المراقبة لا تفارقه . وعند ما انتهت آتيت من
العزف نهضت الكونتس واخذت مكانها وراحت تعزف قطعة حزينة
منغفيرة كأنها نداء مفجع متواصل .

ولم يصغ اوليفيه للعزف لانه كان مشغولا بتأمل آتيت التي
عادت وجلست قبالة .

كان ينظر اليها دون ان يفكر ويتشوق المحروم من شيء قد
اعتاده وقالت الكونتس أ أعجبتك المقطوعة .

فهتف وكأنه يستيقظ . . رائعة مذهشة ولمن هي .

— اولا تعرف — كلا —

— كيف ؟ انت لا تعرف لمن هذه المقطوعة .

— أو كد لك انى لا اعرف .

— أنها (لشوبرت) فقال بالمهجة اقتناع عميقة ..
— هذا لا يدهشني فهي رائعة انك تحسنين صنعا باعاداتها .
وعادت الكونتس تعزف بينما انصرف هو الى تأمل آيت
دون اهمال الاصغاء الى القطعة . متمتعا بالذتين في آن واحد
وانصرف مبكراً فقد شعر بهذا الشلل الذي اصاب فكره
ولسانه في آن واحد .

وما وجد نفسه في الشارع حتى ادركته رغبة في التطواف
دونما هدف معين فسار ويداه وراء ظهره وراح يستعيد ذكريات
زهرته مع آيت في الحديقة فقصد تلك الحديقة والقى بنفسه فوق احد
المقاعد وراح يعب النسيم المعطر باربيع الازهار كما لو كان مرهقا عاشقا
ونفض فجأة وقد فرغ صبره من سيطرة هذه الذكريات عليه
وهو يتمم ..

— انه لا رنجل وتصرف صبياني هذا الذي بدر مني .
وعاد الى بيته بالغ الاضطراب وجفاه النوم كأن الحمى تنهض
جسده . وكانت ليلته مخيفة فهو لا يفتأ يتقلب في فراشه ملتصقا بالنوم
ولكنه بدا صعب المنال فنهض واشعل النور وتناول كتاباً قرأ فيه
صفحات دون ان يدرك لها معنى فاستبدله بكتاب آخر (لبلزاك)
المؤلف المفضل لديه ولم تكن النتيجة خيراً فعاد يستبدله بكتاب آخر

(لفيكتور هيكو) ثم بثالث (للأمريتين) ولكن دون جدوى وعاد
يضطجع في سريره وكانت الساعة تدق الثالثة وهو يتم لنفسه ..
يالي من كهل مفتون .

ولم يقصد الكونتس في غده وقد قرر بحزم ان لا يزورها
قبل يومين . كان قلقا مضطربا لا يقوى على العمل يحمل معه كتابه
انى ذهب سواء في نزحاته او زيارته او في بيته فان انشغاله بهاتين
المرأتين يكاد يحطمه .

ولما كان قد عزم على عدم زيارتهما لم يجد تعزيتة الا بالتفكير بهما
وكان يستخلص من تفكيره الطويل .. أأحمل لآنيث غير الانعطاف
والحنو ثم يعود بفتش في اعماق قلبه باحثا منقبها دون ان يعثر على شيء
فيخاطب نفسه قائلا .. كلا انا لا احب هذه الصغيرة اني ضحية الشبه
بينها وبين امها .

وعاد يستعيد ذكرياته في رونسير حقا لقد كان سعيدا الى
قربها واذ كان يتتبع تلك الذكريات قفز الى ذاكرته وعده لها بالهدية
فور عودتهم الى باريس . وتبخرت كل قراراته بمقاطعتهم ودون ان
يقاوم وجد نفسه مرتديا فيبعته متجها نحو منزلها مفكرا بالسرور الذي
سيجلبه لها . واخبره الخادم ان السيدة قد خرجت وليس في البيت
سوى الآنسة فقال اولقيه اخطرها اني جئت لزيارتها . وعبر الى

الصالحون بخطى خفيفة كأنه يتمشى لم يحس به أحد وسرعان ما ظهرت
آيت ..

— عم مساءً يا اسماعيلي .

قالها بشيء من الوقار فراح يضحك وهو يضبط يدها وجلس
بالقرب منها ..

— احزري ما الذي جاء بي ؟ فاجابت بعد تمكير لحظات
— لست ادري .

— لاصطحبكما الى الصائغ لاختاري الحلية الزرقاء التي وعدتك
بها في رو نسير .

وشع وجه الفتاة بسعادة طاغية وقالت ولكن امي قد خرجت
ولن تلبث ان تعود ستمتظرها اليس كذلك ؟

— اجل اذا كانت لن تناخر طويلا .

— اتعني انك تضجربو جودي انك تعاملني كما لو كنت ما
ازال طفله .

— كلا ليس كما تعتقدن .

واحس رغبة في ملاطفتها والظفر باعجامها كما لو كان شابا يتصدى
لفتاته اول مرة مستخدما كل مواهبه لخلق لبها والسيطرة على عواطفها
ووجد الاقوال والتعابير طيبة متلاحقة فراح يحدثها بطلاقة بينما كانت
هي تجيبه بشيء من الخبث وبكل ما فيها من نعومة ورقة وكان يخاطبها

بصيفة الجمع فانطلقت تضحك وتقول لماذا لا تخاطبني بصيفة المفرد
اتحسب نفسك امام امي ؟ فتخرج خداه وتتمتم .

— كثيراً ما وجهت الي أمك هذه الملاحظة . وفتح باب فهمت
القناة هذه امي فاضطرب اوليفيه كما لو كان قد ضبط مرتكباً امرأ إداً
وراح يفسر لها وجوده ثم قال لدي عربة فيها بنا ووصلوا محل الجوهرى
في لحظات وجلست الكونتس وابنتها ثم راح الجوهرى يعرض عليهما
انواع الحلي ونشر امامهم قطع اللازورد ليختاروا منها اربعاً وطال بالمرأتين
تقليبها ثم تناولتاها بعناية وفحصتاها باتتياه صبور وبعد ان اختارتا اربعاً
منها كان عليهما انتقاء ثلاث قطع من الزمرد لصنع الاوراق ثم حبة
صغيرة من الماس لتثبت في الوسط كأنها نقطة ندى وقال اوليفيه
مستطراً لسروره مخاطباً الكونتس . . آريدن ان تجلي لي السرور
باختبارك خاتمين ؟ .

— لي انا ؟ .

— اجل واحد لك وآخر لا نيت اسمحي لي ان اقدم لك هذه
الهدية الصغيرة تذكاراً لليومين الذين قضيناها في رونسير . ورفضت
فالح ونسب جدل بينهما انتهى بعد لا في بانتصاره واشترى لهما الخاتمين
وبعد فراغها من هذه المهمة المحبة نهض اوليفيه مفعماً سعادة وقال
سأترك لكما عربتي وسأطلق ماشياً اشغل هامة غير ان آيت رجعت

امها ان تعودا ماشيتين في ذلك الطقس الجميل فقبلت الكونتس
وشكرت برتآن وانطلقت في الشارع مع ابنتها وسارتا صامتتين بعض
الوقت وقد سيطر عليهما الفرح بالهدايا التي قدمت لهما ثم راحتا يتحدثان
عن الحلي التي شاهدتها وقالت الكونتس . اشعر بنفسي تعباً فلنأخذ
عربة يا ولدي .

فسألتهما أينت مضطربة .. ماذا بك يا امه .
— لا شيء* انت تعرفين انه منذ موت جدتك كثيراً ما اشعر
يتعب مفاجي* .



ان للأفكار الثابتة التي تسيطر على العقول فعل الامراض المستعصية التي تغزو الاجسام . فاذا ما حلت في نفس ما حرمتها لذة تذوق الحياة وابتدت عنها حرية التفكير تفكيراً سليماً منطقياً . وهذا ما كانت عليه الكونتس ، فهي ابن حلت واني اقامت لا تنفك تفكر كما فكرت اذ عادت مع ابتها بعد ان غادرها اوليفيه : ابعقل الا يقارن اوليفيه بينها وبفاضل اذ يرى الواحدة الى جانب الاخرى ؟
انه لابد فاعل ولو رغماً عنه . وهي تقرأ في عينيه دائماً مثل هذه المقارنة والمفاضلة ... وهكذا راحت تعذبها فكرة غريبة : لابد لها من الاختفاء .. عليها الا تظهر بالقرب من ابتها ابداً ...
انها تتالم الماء متواصلاً ممزقاً .. وحتى عند ما تكون في بيتها مع ضيوفها ، وتجسد ان اعينهم تبحث عن ابتها دون انقطاع .. ونبتت في ذهنها فكرة ملحة لا ترحم : يجب ابعاد آنت عن البيت ! عليها اخراجها منه باي ثمن .. كما يسعى المرء لابعاد ضيف ثقيل وقع مبرم

وراحت تعمل لتحقيق فكرتها الهائلة تلك بدقة ودراية علمها تتوصل الى الاحتفاظ ، رغم كل شيء ، بالرجل الذي تحب .

ولم يكن حدادها الجديد ليسمع لها بالتعجيل بإبرام زواج آنيث من المريكز ، فكانت تخشى ، خلال فترة الانتظار تلك ان يجد جديد بعرق تنفيذ الفكرة . ولذا راحت بدراية واتقان تعمل جاهدة لانتارة العطف في قوادب بنتها على المريكز .

وكانت خطتها محكمة الوضع . فهي تريد الاحتفاظ بالرجلين اوليفيه لها والمريكز لابنتها . ولذا عمدت الى اجتذاب الواحد والاخر دون ان تجعلها يلتقيان لديها .

ولما كان اوليفيه في هذه الايام منصرفا الى عمله فهو لا يخرج الا مساء لقضاء السهرة بين صحبه ، كانت كثيرأ ما تدعو المريكز للعداء . فكان هذا الاخير يأتي دائما يحمل اخبارا عن المجتمع الباريسي فينثرها امام المرأتين بحديثه اللبق . وقد توصل الى اجتذاب اذني آنيث لما يقول . وانتهى بهما الامر الى نشوء صداقة ، او صحبة ، بينهما نتجت عن ذوقين متشابهين وميول واحدة كحب الخيول والاعجاب بالاناقة والحياة الاجتماعية الباريسية الرفيعة .

وما ان ينصرف من زيارتهم حتى يبدأ الأب والام في اطرائه

وامتداحه بأسلوب خفي . قائلين عنه كل قول محمود لفهم قائلها ان
عليها ان تقول كلمتها في الزواج منه .

ولم يطل بها الامر . فسرعان ما ادركت مقاصدهما .
وخلصت الى التفكير ان فكرة الزواج من هذا الشاب الجميل الانيق
فكرة صائبة ، فهو ، فضلاً عما يقدم لها من متع عديدة ، يستطيع ان
تخرج بصحبته كل صباح راكبين جوادين كريمين ...

ووجدنا نفسيهما خطيبين ذات صباح ... وتم ذلك ببساطة
متناهية فتصافحا وتبادلا ابتسامة ... ثم راحا يتحدثان عن هذا الزواج
كما لو كان شيئاً مقررأ مفروغاً منه منذ امد طويل . وبدأ المراكز تقديم
هداياهم . وبدأت الدوقة تعامل آنيث كما لو كانت ابنتها الحقيقية .

لقد تم كل ذلك وابرم ونفذ في ساعات النهار الهادئة وكان
نتيجة طبيعيه لتلك العلاقة الحميمة بين آل غيروا والدوقة ، اما المراكز
فكان كثير المشاغل ، عديد الواجبات ، فلم يكن كل ذلك يتيج له
الحجي لقضاء السهرات الا نادراً .

واما الامسية فكانت لاوليقيه . فهو يأتي بشكل منتظم
لتناول العشاء لدى اصدقائه مرة كل اسبوع . وكثيراً ما يحضر دون
سابق انذار فيطلب كأساً من الشاي بين العاشرة ومنتصف الليل .
وما ان يدخل حتى تروح الكوئنتس تفحصه محاولة ادراك ما

يعتلج في صدره ، ونهتئى دائماً الى التفكير : انه لا يقبل الا بحبها اذا
ما رآها الى قربي . . .

وهو ايضا كان يقدم الهدايا . فما ينقضي اسبوع دون ان
يحمل اليها شيئين احدهما للام والآخر للفتاة . فكانت الكونتس اذا
تفتح العلب التي تحتوي عادة ادوات زينة ، لاتملك نفسها من الا ككتاب .
لقد مرّ الرسام ، في الماضي ، بمثل هذه الحال ، فكان كثيراً
ما يدخل حاملاً بيده هديته ، ثم انقطع عن ذلك مدة ، وها هو يعود
اليها ، ترى امن اجلها يفعل ذلك ؟ لم تكن لتشك في حقيقة الامر ابداً
انه لا يفعل ذلك من اجلها هي ! وكان يبدو تعباً ، نحيلاً ، فلم تشك في
انه يتألم . وراحت تقارن مواقفه بمواقف المكين الذي سحر آيت
قد حرك عوامل حبها هو الآخر . غير ان حالهما لم تكن واحدة .
فالسيد دى فارندال كان هائماً . اما اوليفيه فهو مغرم فقط . هذا ما
كانت تظنه عندما تجد اوليفيه في اوقات عذابه وشقائه ، فما ان يعود
الى نفسه حتى تفكر انها قد تكون مخدوعة .

وكثيراً ما شعرت ان عليها ان تطلب منه عندما يكونان على
انفراد ، ان يفتح لها قلبه ، فيصرح لها بكل شيء ، دون ان يخفي عنها
اقل خلجة ، فخير الف مرة ان تبكي حبها وهي واثقة من زواله من
ان تعيش في مثل هذه الريبة القاتلة وهي تظن ان حباً آخر يعظم وينمو

في فؤاد من تحب ...

هذا الفؤاد الذي يفوق تعلقها به تعلقها بحياتها . هذا الفؤاد
الذي رعته ، وادفأته ، وحركت نبضاته بحبها وحنوها خلال اثني
عشر عاماً ، والذي زعمت لنفسها أنها امتلكته امتلاكاً ابدياً .. هذا
الفؤاد .. تجده بين ليلة وضحاها ، وقد فرّ من انامها خصوصاً
لقدر مخنوم !!

فما جدوى الحب ، الحب الاعظم الذي حملته لاوليفيه ، الحب
الذي جعلها تنهيه طائفة مختارة كل ما تملك دون اي تحفظ ، ما جدوى
هذا الحب اذا كانت رؤية وجه آخر كافية لاذنبه وتبخره حتى ليغدو
وجه الحبيب بين يوم وليلة غريباً بعيداً ..

غريب ! اعقل ان يصبح اوليفيه غريباً عنها هي آني اولكنها
ما زالت تخاطبه بنفس اللهجة ، وبذات التعابير ... غير انه لا يفرب
عن بالها ان تمة اشياء تعترض بينهما فتفصل روحيهما وتباعد بين قلوبهما .
وما تراها هذه الاشياء ؟ اشياء لا توصف ، ولا تنقطع ، ولا تقاوم ..
انها لا شيء .. وهذا اللاشيء مع ذلك يشكل حاجزاً يبدو متكافئاً
يوماً بعد يوم ...

انه يبتعد عنها ، يبتعد عنها يوماً فيوماً ، وكل نظرة يلقها على
آنيت تزيد شقة البعد اتساعاً . وهو لم يكن يدرك تمام الادراك التفاعل

الحادث في قلبه ، او انه لم يشأ ادراك ذلك فلم يكن صريحاً مع نفسه
حياتها وحيال آتيت .

واقصر همه في الايام الاخيرة على السهرات التي يقضيها بين
هاتين المرأتين وقد انصرفتا عن المجتمع ، بسبب حدادهما ، فخلصتا اليه .
وكان يلتقي لديهما بالوجوه المعتادة : ميزاديو وآل كوربيل حتى ليخيل
اليه انه معهما وحده في هذه الدنيا . ولم يكن يلتقي بالدوقة والمركيز
فهما قلما يحضران ليلا فقد خصصا النهار لحضورهما . وخيل الى برنان
انه نسي وجودهما او ان موعد الزواج قد ارجي الى اجل غير مسمى .
ولم تكن انيت لتتحدث امامه عن خطيبها ابداً ، او كانت
تفعل ذلك مدفوعة بشعور غريزي ام بشيء من ذلك الحدس النسائي
الذي يجعل القلب يتفتح على عوالم مجهولة من العقل ؟

ومرّت الاسابيع نلو الاسابيع دون ان يطرأ اي تغيير على
هذه الحياة الرتيبة حتى جاء الخريف . وجاء معه افتتاح المجلس النيابي
وما جر ذلك من تقلبات في الجو السياسي . ويوم افتتاح البرلمان
دعى الكونت دي غيروا الدوقة والمركيز وانيت بعد الغداء لحضور
حفلة الافتتاح . ولم تشأ الكونتس مرافقتهم رغبة منها في الانفراد في
بيتها باحزائها المتزايدة يوماً اثر يوم .

وبعد ان فرغوا من تناول الطعام خرجوا الى الصالون الكبير

لارتشاف القهوة . وراح الكونت يتحدث عن حفلة الافتتاح وما
قد يجر ذلك من نشاط في الحياة السياسية العامة التي تشكل بالنسبة
اليه متعة كبرى . وكانت القهوة قد قدمت ونشرت في جو الصالون
اريجها العطر عندما قرع الباب ودخل اوايفيه برتان .

وتردد في الدخول وقد ادهشه ما وقعت عليه انظاره ، وقد
داخله شعور الرجل الذي يدخل بيته فيجد نفسه امام خيانه زوجية
سافرة !.. وشعر بالغضب يكاد يخمد انفاسه ... واحس ، في هذه
اللحظة ، انه يحب آنيث ... وكل ما اخفي عنه ، وكل ما اخفاه هو
عن نفسه ، برز امامه الى النور واضحا بينا عندما شاهد المركيز
جالساً قرب آنيث كخطيب قرب خطيبته .. ودخل وقد اعتراه
اضطراب عنيف هز كيانه هزاً .. ولم يسأل عن سبب اخفاء امر هذا
الزواج عنه ، لم يسأله لانه ادرك ذلك دون حاجة الى سؤال . والتقت
عيناه القاسيتان بعيني الكونتس فتضرجت وجنقاها .. لقد تفاهما .

وصمت الجميع بعد جلوسه كأن حضوره شل تفكيرهم . ثم
انتقلت الدوقة الى قربه راحت تجاذبه اطراف الحديث فكان يجيبها
باقتضاب وبنبرة بدت غريبة حائقة .

وكان لا يفتأ يحيل انظاره في هؤلاء القوم الذين عادوا يتحدثون

وهو يردد بينه وبين نفسه : « لقد خدعوني . سيدفعون ثمن ذلك غالياً » .

والتفت الكونت الى الساعة وهتف : آه لقد آن وقت الذهاب .
ثم استدار الى الرسام وقال له : اتنا ذاهبون لحضور حفلة
افتتاح المجلس النيابي . ان زوجتي باقية في البيت . فاذا شئت مرافقتنا
كان ذلك من دواعي غبطتنا .

فاجاب اوليفيه بحفاف : كلا شكراً . ان مجاسمكم لا يغريني .
ودنت منه آتيت وقالت بلهجة مرحة : — ولكن تعال معنا
يا استاذي مما لا ريب فيه انك ستسلينا اكثر مما سيفعل هؤلاء
النواب المحترمون .

— كلا . حقاً ؟ ولكنكم تعرفون كيف تتسلون من دوني .
وادركت انه غاضب ومستاء فالتحت عليه بدافع من اللياقة .
ولكن .. تعال يا سيدي الرسام ، فانت تعرف ان ليس لي عنك غناء .
وانفلتت من بين شفتيه كلمات لم يستطع لها امساكاً او تخفيفاً
من حديثها :

— بخ ! انك تستطيعين الاستغناء عني مثلك مثل بقية الناس .
وتساءلت بشيء من الاندهاش : — آه . لقد عاد يحاطبني
بصيغة الجمع .

وانفجرت شفاته عن ابتسامة مفتضبة من تلك الابتسامات
التي تنم عن آلام مبرحة تعتمل في نفسه المعذبة .

وعاد يقول بشيء من الهدوء : - عليّ ان اعتاد مخاطبتك
باحترام ...

- ولماذا ؟

- لانك ستزوجين قريباً . وقد لا يروق لزوجك ، كائناً
من كان ، ان يسمع لهجة رفع الكلفة هذه .
وتدخلت الكونتس قائلة :

- لم يحن بعد الوقت لمثل هذا القول . غير اني لا اعتقد
ان زوج آنت سيكون من الخشونة بحيث يسيؤه ان يسمع هذه
اللهجة العائلية من صديق قديم .
وصاح الكونت :

- هيا . هيا . ستأخر ..

وتبعه الذين سيرا فقهونه . فودعوا الرسام والكونتس وخرجوا .
ها هما على انفراد . هو وهي . واقفان وراء الباب المغلق .
قالت برقة اجلس يا صديقي .

فاجاب بعنف : كلا شكراً . اني ذاهب انا الآخر .
وتمتمت ضارعة : آه .. ولكن .. لماذا !

— لأن هذا الوقت ليس لي على ما يبدو . اني اعتذر اليك

لجبي في غير ساعتى

— ما بك يا اوليفيه ؟

— لا شي . انما انا آسف لازعاجكم في ساعات صفوكم .

وتناولت يده : — ماذا تقصد ؟ انها ساعة انصرفهم اذ انهم
سيحصرون حفلة افتتاح الندوة النسيابية . وانا لن ارافقهم . فانت ،
عجيتك في هذه الساعة ، كأنك الهمت ذلك الهاماً ... فانا كما ترى
وحيدة ...

ولاك بعض الكلمات : — ملهياً ... اجل ملهياً ...

وتناولت راحتيه الاثنتين ونظرت في اعماق عينيه وتمتمت
بصوت خفيض :

— اعترف امامي انك تحبها .

وسحب راحتيه من كفها وقد افلت سيطرته على اعصابه :
— انك مجنونة بفكرناك هذه .

وقبضت ذراعه وضغطت بكفها فوق زنده وقالت باهجة
كلها ضراعة ورجاء :

— اوليفيه ! اعترف ! اعترف يا اوليفيه * كم اود ان اسمع
الحقيقة من فك اني واثقة . واثقة ولكن احب ان اسمعك تقول

ذلك .. أنت لا تدرك مبلغ العذاب الذي يمزق حياتي .
وهز كتفيه وقال : - ماذا تريد مني عمله اذا كنت قد
فقدت كل ادراكك واصبت بحس من جنون ؟
وجرته نحو الصالون البعيد حيث لا يسمعون احد . وجرته
من سترته وهي تشبث به حتى بلغت به مقعداً مستديراً فالقت به
فوقه وجلست بقربه :

- اوليفيه ! يا صديقي الوحيد ! ارجوك . انضرع اليك . قل
انك تحبها . انا اعرف انك تحبها ، احس هذا الحب في كل ما تقول
في كل ما تفعل . اكاد اموت .. ولكن اريد ان اسمع ذلك من فمك .
وراح يتخبط محاولاً التخلص من بين ذراعيها . فتداعت فوق
الارض على ركبتيها ، وجثت تحت قدميه وراحت بصوت مخنوق
تقول : - آه يا صديقي . يا صديقي الوحيد ، احبها حقاً ! ؟
وصرخ محاولاً انهاضها : - كلا .. كلا .. اقسم لك ان كلا ..
ومدت راحتها الى فمه والصقت بها لتسكته وتمت : - آه ..
لا تكذب ! الشد ما تؤلني ...

وتركت رأسها تسقط فوق ركبتي هذا الرجل وراحت في
نשיج مر ..
ولم ير الا عنقها ، كتلة من شعر تخلله عدد كبير من الشعر

الايض ... وعبرت بكيانه هزء عئفة من الشفة .. وموجة هائلة
من الالم .

وقبض باصابعه على شعرها الكشيف ورفع اليه وجهها الشاحب
بعينها الشاختين والدموع تجري منها مدراراً ... والقي بشفتيه
على عينيها الدامعتين .. يقبل الواحدة تلو الاخرى مردداً :

— آني .. يا عزيزتي .. يا عزيزتي آني ...

وحاولت ان تبسم ، بصوت طفل مخنوق بالالم قالت : — آه
يا صديقي قل انك ما تزال تحبني .. ولو قليلاً ...

وعاد يقبلها : اجل ! اني احبك يا عزيزتي آني ..

ونهضت وعادت تجلس الى قربه وتأخذ يديه بكفيها ، وبصوت
مشبع بالحنو راحت تقول :

— ها قد مضى زمن طويل ونحن متحابان .. ابعل ان ينهي
كل شيء بيننا بمثل هذه السرعة !

وسألها وهو يجذبها الى صدره : — ولماذا تريد ان ينهي كل
شيء هكذا سريعاً ؟

— لاني قد اكنهت . ولأن آئت تشبني يوم كنت في
ريق الشباب . يوم عرفني واحببتني .

وكان عليه هذه المرة ان يمد يده ليسكت فيها المتألم قائلاً :

— مرة أخرى ! أرجوك . لا تسكمني في هذا الموضوع . اقسم
لك أنك واهمة ...

ورددت : — على أن تظل تحبني ولو قليلاً . أنا ..
واعاد : — أجل أني احبك .
واقاما مدة طويلة لا يندثان ، ايديهما متعانقة ونفساهما مفعمتان
شعوراً طاغياً مريراً ...
واخيراً قطعت جبل الصمت قائلة : — آه لن يكون ما تبقى
لي من حياتي سعيداً ..

— ساجتهد في اغداق السعادة على الايام الباقية .
وكان ظل قائم يفعم الجو ، كظل سماء غائمة بعد انقضاء ساعة
الشفق . وتكاثف هذا الظل حتى غلف الكون في مساء الخريف ذاك .
وتعالت دقات ساعة . . . فقالت : لقد طال بنا المكوث هنا .
وقد آن لهم ان يعودوا . فعليك ان تذهب فنحن لسنا في حالة طبيعية
لما نحن فيه من اضطراب .

ونفض . وكما كان يفعل في الماضي ، طبع على ثغرها نصف
المفتوح قبلة حارة ثم عبرا الصالونين متعانقي الاذرع كما لو كانا زوجين
— وداعاً يا صديقي — وداعاً يا صديقتي .

واغلق الباب خلفه .

وهبط السلم وسار في شارع المادلين . وراح يمشي دون وجهة معينة . واحس ساقيه تحذلانه . وقلبه خافقا حاراً كأن في صدره جهرة متقدمة لاهبة . واستمر في سيره وقتاً طويلاً جداً . ثلاث ساعات او اربع ... وأخيراً لم يعد له من القوة ما يساعده على نقل قدميه فعاد الى بيته ليفكر :

انه يحب هذه الفتاة . . . الى لقد احبها منذ نزهتهما في حديقة مونسو . . . يوم ادرك ان صوتها يحمل اليه اربع حب لم تكن قد خبت جذوته تماماً في فؤاده .

وما تراه فاعلاً ؟ وما تراه يستطيع فعله ؟ فما ان تزوج حتى يجتنب لقاءها . هذا كل شيء . وبانتظار ذلك سيتابع زيارته للمنزل كي لا يجلب الشكوك اذا فعل غير ما اعتاده . وسيستمر في اخفائه سره عن كل مخلوق .

وتعشى وحده كما لم يفعل من قبل ، وامر خادمه ان يشعل له المدفأة لأن الليل كان مثلجاً كما امر ان تشعل الثريا الكبرى في ممرمه لانه كان يخشى الظلام ! يا للشعور الغريب الخفيف ! باللام النفسية والجسمية التي اجتاحتها !

وراح يستعرض شريط حياته : ان كل ما يراه في بيته يذكره بحياته كلها كفنان وكرجل . هذه اللوحات التي تذكره بنجاحه في

مضمار الفن .. وهذه الاشياء التي تذكره بحبه امرأة واحدة طوال حياته .. تلك الحياة القصيرة المليئة بالفراغ ...

غير ان حبا آخر تسرب الى سويداء قلبه رغماً عنه . واستوطن ثمة ولم يعد بمقدوره اقتلاع جذوره . حب . آخر ؟ ! كلاً انه حبه الاول حبه للمرأة الوحيدة . ولكن جاء محمولا فوق وجه جديد فتى ...

انه يحبها ! لم يعد مجال للنكران او للدفاع .. يحبها ؟ وهي ؟ تحبه ؟ لاريب في انها ابعدا ما تكون عن مثل هذه الفِكر . هي ؟ ولكنها ستزوج قريباً . وادرك ان لا حول له ولا قوة .. فهو مقيد مسير ، مشدود بسلاسل غلاظ كتلك الكلاب المربوطة الى بيوتها . وحاول ان يفرق آلامه بذكريات حبه الماضي . باويقات اللذة والانطلاق يوم كانت حبيبته شابه حسناء .. وجه امها الفتى . الواقع ان الام قد اختفت الى الابد تاركة مكانها لابنتها ... اختفت من قلبه لتحل فيه آتيت بشعرها اللامع وابتسامتها الهازنه ومحياها الساحر ... لقد امتلكنه هذه الفتاة كما تملك الامواج سفينة غارقة !

وشاء ان يتخلص من هذه التخيلات المريرة فقصده غرفته وفتح درجاً رقدت فيه كل رسائل عشيقته اليه كما يرقد الجسد في نعشه .. ومد اصابعه خلال الرسائل المصفرة التي تنطوي على قصة حب . قصة حياة قلبين ..

وحاول ان يقرأ بعضها فاستخرج من اعماق الجرار قبضة من
اقدم الرسائل وراح يقلبها والذكريات تتوالت من بين طياتها مزدهمة
متدافعة فتحرك اعماق شعوره فهذه الرسالة تصف له فيها كيف
بكت تحت قدميه يوماً لان الغيرة قد ادركتها وهذه اخرى تصور
خلاجات قلبها وقد فتحت له على مصراعيه يقرأ فيه عواطف حبها كما
في كتاب مفتوح . وغيرها وغيرها كثير وكلها تصف مرحلة من
مراحل ذلك الحب الذي عمر طويلاً . . . ووجد ، لشدة دهشته ، ان
كل هذا الحب القديم قد اختمر في اعماق قلبه مكتسباً حيوية جديدة
كانت نفساً جديداً حاراً قد جرى فيه ، وخلال كل ذلك يبرز وجه
آيت ، واضحاً صريحاً . . . لقد احب الام ، فاستعبده حبه ، وها هو
يجد نفسه امام حب الابنة مستعبداً بل رقيقاً قناً . . . وحاول ان يدرك
كيف ولماذا سيطرت عليه الصغيرة مثل هذه السيطرة ؟ كيف قبض
لها امتلاك ناصية عواطفه بائسامة بريئة وبخطرات خصلات شعرها
المتطاير . . . آه ان ابتسامات هذه البنية وخصلات شعرها الشقراء
لقد دفعه الى الجثو على ركبتيه وتعفير جبهته في الرغام . . .

انه لما يذق على الافهام كيف ان وجه امرأة يفعل فينا فعل السم
الزعاف ؟ سما كأننا نعب منه باعيننا . . . فاذا بنا نثمل ، بل نجف ، وربما
اندفعنا في سكرنا وجنونا حتى الموت . . .

وكان اوليقية قد عاد يزرع غرقته ، وكان الليل قد تقدم ،
وناره قد خبا اوارها ، فاوى الى سريرته واستمر في افكاره المؤلمة تلك
حتى انبثاق الصباح ...

ونهض مبكراً دون ان يعرف لذلك دافعا ، فما تراه فاعلاماً ؟
كان متردداً ، مضطرباً ، كريشة في مهب ريح زعزع . وراح يفكر
بطريقة يروح فيها عن نفسه ويهدى نائراً اعصابه ، وتذكر ان رفاقه
في النادي يجتمعون في مثل هذا اليوم من كل اسبوع ليقصدوا المسبح
حيث يتناولون غداءهم بعد الاستحمام . وسرعان ما ارتدى ثيابه وخرج
آملاً ان السباحة قد تخفف من تورع اعصابه وتقلل من ثورة نفسه .
وما ان وضع قدمه خارجاً حتى احس برداً شديداً ينفذ حتى
عظامه ، هذا البرد الذي يأتي ليطرده ما قد يكون تبقى من اثار الصيف
في الطبيعة ، وعلى طول الشارع كانت الاوراق المصفرة ، تنتثر فوق
الارضفة كأنها مطر غدير مدرار . وكان هذا السيل من موات
الاوراق قد كسا الارصفه بطبقة صفراء كثيفة تحش تحت الاقدام
خشيشاً ثم تحملها هبات الريح فتسير بها كأنها موجة طاغية من فناء
واضمحلال ...

كان هذا اليوم من تلك الايام التي تحدد نهاية فصل وبداية

فصل آخر . . من تلك الايام التي تحمل معانياً فريدة في كتابتها
وانثارتها لكوا من الاحزان . . .

وبلغ الحمام فاسرع يخلع ثيابه ويرتدي لباس الاستحمام ثم قاده
خادم زنجي متين البنيان الى غرفة الاستحمام حيث تهب نفحات ساخنة
من انجرة المياه الحارة المتدفقة . واول من التقى به من صحبه كان
الكونت دي لاندا فبادره هذا الاخير قائلاً : - اسمعت صباحاً يا برتآن
وتصافحاً . ثم تابع لاندا : - ان الطقس بارد . والاستحمام طيب
- اجل . انه رائع .

- الم ترَ روكديان ؟ انه هناك . ها هو آت :
وكان روكديان يتجه نحوهما وقد لمح الرسام .
وجلسوا حول مائدة رخامية وراحوا يتحدثون كأَنهم
في صالون

وفي كل لحظة كان يصل احد الرفاق فيجيئي الثلاثة او يدنو
ليصافحهم .

وهتف روكديان فجأة : - انظر . هو ذا دي فاراندال .
وكان المر كيز يتقدم ويداه الى خاصرنيه ، سائراً بثقة رجل
لايزعجه شيء .

وتتم لاندا : - انه لاعب سيف ماهر ! هذا غلام !

وعاد رو كديان يقول : أصبح انه سيتزوج ابنة اصدقائك .
فاجاب برتان : - اظن ذلك .

ولكن هذا السؤال ، في مثل هذا الموقف ، وامام هذا
الرجل ، قد ولد في قلب اوليفيه انقباضاً شديداً ونورة وياساً . فقد
برزت امامه الحقيقة السافرة القبيحة المنتظرة . حتى لقد راح يقاوم في
نفسه رغبة حيوانية في ان يثب على المراكيز . ثم نهض قائلاً : - اني
احسن تمهلاً وسأخذ حامي سريعا .

ومر بهم خادم مغربي فناداه برتان :

— أأست مشغولاً يا احمد ؟

— كلا ايها السيد برتان

فنهض وتبعه متحاشياً الاستنظام بفارندال الذي كان يقوم بجولة
حول باحة الحمام .

ولم يبق في غرفة الاستحمام اكثر من ربع ساعة . ووجد نفسه
مرة اخرى في الشارع تحت الاوراق الصفراء المتطايرة . وفكر
برتان : ماذا سيحدث لي ؟ ما تراني فاعلا ؟ الى اين اقصد ؟ . وعاد
ادراجه الى البيت دون ان يخرج بنتيجة ما . ولفت نظاره كشك لبيع
الصحف ، فابتاع سبع جرائد او ثمانية آملاً ان يجد فيها ما يشغله عن
نفسه ساعات .

وقال لخادمه : سأتغدى هنا .

وصعد الى مرصمه .

وا- سكتة ادرك لدى جلوسه انه ان يستطيع بقاءً فهو يحس في جسده سعيراً هائلاً كأنه حيوان مسعور .

ولم تقوَ الصحف على الترويح عنه دقيقة واحدة فكان ما يقرأه لا يتجاوز انظاره لينفذ الى عقله . وكان يطالع مقالاً دون ان يحاول فهمه . ووجد نفسه ينتفض بعنف لدى وقوع عينه على كلمة (غيروا) وكان المقال يتحدث عن حفلة افتتاح الندوة النيابية حيث القى النائب غيروا خطبة .

و كأن هذه الانتفاضة قد ايقظت عقلة الغافي فقرأ ان الموسيقي الكبير موتروزي سيقدم في نهاية كانون الاول حفلة موسيقية رائعة اذ انه قد غادر باريس منذ ستة اعوام لاقى خلالها في معظم عواصم اوروبا وامير كانباجا منقطع النظير . فضلاً عن انه سيكون مصحوباً بالمغنية الشهيرة السويدية هيلسون والتي لم تكن باريس قد سمعت شذوها منذ خمسة اعوام .

والتمعت في عقل اوليفيه فكرة : يجب ان يوفر لآيت منعة حضور هذا الحفل الفريد . واجفل اذ تذكر ان الحداد قد يشكل حاجزاً صعباً اقتحامه في سبيل تحقيق فكرته . وبالرغم من ذلك لم

يدركة يأس . ثمة طريقة واحدة وهي ان يحجز مقصورة فوق المسرح مباشرة حيث لا يتاح لاحد رؤيتهم بوضوح . واذا لم تشاء الكونتس الحضور فسيصحب آيت و اباهما والدوقة . وفي هذه الحالة لا بد للمركيز من الحضور .

وادركه التردد وفكر طويلاً ..

مما لا ريب فيه ان الزواج قد قرر بل ربما حدد مواعده . فلم يغب عنه تسرع الكونتس في ذلك . فهي تبغي اعطاء ابنتها لفارنڊال باسرع وقت ، مستطاع . وهو ، برنان ، لن يستطيع شيئاً . هو لا يستطيع منع او تعديل ، او ارجاء ، ذلك الحدث الخيف ...

ولما كان لا بد مما ليس منه بد ، اليس من الافضل ان يكبت عواطفه ، ويخفي آلامه ؟

سيدعو المركيز اذاً . اوليس من الافضل ، وهو لا يستطيع شيئاً في سبيل الحيلولة دون الزواج ، ان يحتفظ لنفسه بصداقة الزوج العتيذ كما يتاج له باب ينفذ منه الى البيت ، بيت حبيبة آيت !

وما ان تناول فطوره حتى اسرع الى الاوبرا ليستوثق من موعد الحفلة وليحجز منذ الآن احدى المقصورات الخفية . وقد فعل . ثم اسرع الى بيت آل غيروا .

وسرعان ما استقبلته الكونتس وكانت ما تزال تحت تأثير
فيض عواطفها مساء اليوم السابق .

وبادرت قائلة : - انه لطيف منك حضورك اليوم .

فقال : - اني احمل اليك شيئاً ما .

- وما هو ؟

- بطاقة لحفلة المغنية هياسون والعاظف العالمي مونتروزي .

- آه يا صديقي ، انه لأمر محزن انسيت حدادي .

- ان حدادك قد عمر أربعة اشهر .

- أو كد لك انه ليس بمقدوري . . .

- وآنت ؟ فكري ان مناسبة كهذه لا تسنح كل يوم .

- وبصحة من ستذهب آنت ؟

- مع ابيها والدوقة التي سأدعوها . وأميل الى دعوة الماركيز

كذلك .

ورنت اليه باعماق عينها بينما داخلها رغبة عنيفة في عناقها كادت

ان تنقل الى شفقتها . ورددت وهي لا تكاد تعي ما سمعت اذناها :

- الماركيز ؟

- اجل .

ووافقت فوراً على كل هذه الترتيبات .

وعاد يقول باللهجة عدم اكتر اثار .
 — هل حددتم موعد الزواج ؟
 — كلاً . يا الله . بل اجل . تقريباً . ولدبنا من الاسباب ما
 يجعلنا نمجل موعده . انذ كر متى كنا قررناه قبل وفاة والدتي ؟
 — اجل . ولكن الى اي تاريخ ؟
 — اول كانون . واني لا اعتذر منك اذ اتنا لم نخطر بك بذلك
 قبل الآن .
 ودخلت آنيث . واحس قلبه يذب بين حناياه . وحدها
 بنظرة تقطر مرارة . تمثل تلك النظرة التي تعبر عن حب مزقته سياط
 الغيرة وانحنى فيه . وقال لها :
 — اني احمل اليك شيئاً . .
 — اراك عدت الى لهجتك الجدية معي . .
 فاجاب بصوت ذي نبرة عطف ابوي :
 — اسمعي يا صغيرتي . لقد احاطتني امك علماً بالحدث المنتظر
 الذي تهينون . وأؤكد لك ان مخاطبتى لك بمثل هذه اللهجة امر
 مفروغ منه بعد زواجك . فلا اعتد عليه منذ الآن .
 فهزت كففيها بحركة استياء . بينما لزمت الكونتس الصمت
 وسألته آنيث : وماذا تحمل ؟

فاخبرها بالاحتمال وبالدعوة التي عزم عليها . فاستطارت في رحا
وقد استخفها الطرب للدرجة ان وثبت بحقة الاطفال الى كتفه
وطبعت على وجنتيه قبلمين .
وشعر اعصابه تكاد تحذله تحت وطأة قبل هذا الشجر الندي ذي
الارج الفواح ...

وانقضت الكونتنس وقالت :
— اتعلمين ان اباك ينتظرك .
— اجل . وها اني ذاهبة .
وانطلقت وهي تلقي الى الرسام قبلاً من اطراف اصابعها ...
وما اختفت حتى سأل اوليفيه :
— هل سيسافران .
— اجل . ولثلاثة اشهر .
وتعم رغما عنه : — حسنا بفعلان .
— وسنعود نحن الى حياتنا الاولى ...
فعاد يتمم : — اظن ذلك .
ت وليس معني ذلك ان تهمني بانتظار ذلك .
— كلاً يا صديقتي .

ان تصرفه امس عندما بكث بين يديه ، ومجيئه لدعوة المراكيز
هذا اليوم ، اعاد للكونتنس شيئاً من الامل الداوي ...

ولم يطل بها الامر كثيراً ، فقد عادت تقرأ على وجه عشيقها
آلامه المبرحة ، بكثير من الغيرة المرة . . وهي لا تستطيع التبعامي عن
شيء . فذلك اوضح من ان تنغاضى عنه عين . وكل ما وقعت عينها
على آنيته ادركت انها لن تستطيع شيئاً في سبيل وقف ذلك التيسار
الجارف العنيف . . .

وبداً كل شيء يخط عليها ليسحق شبابها سحقا . كرسنين
وهذا السواد الغارقة فيه . لا شك في ان فتنها الطاغية التي كانت كافية
لتسوق اليها الظفر بحبيها دائماً قد ادر كها الاضمحلال . . .
وها هي تلمس ان كل الاشياء المحببة التي تضي على الحياة
معاني الجدة والاستمرار والرواء ، ان كل هذه الاشياء تفر منها فراراً
لسبب واحد . هو ان الهرم او شك ان ينقلها الى زوايا النسيان والاهمال
لقد انتهت كل شيء بالنسبة اليها . . . وبالرغم من كل ذلك فهي ما تزال
تسهر في قلبها عواطف شابة خضلة العود او امرأة فنية وثابة الى الحياة
لم يهرم فيها سوى جسمها . بشرتها التعيسة تغضنت . وهذا الغطاء
الحري الذي كان يغلف عظامها ها قد تحلق كما يتخلق غطاء الاناث
فوق الخشب . امّا قلبها . . قلبها فازال خفاقاً نشيطاً متدفقا حباً وحنواً
وحرارة . . .

ولكثر ما عذبت هذه الافكار نفسها .. انقلبت الى الم جسماني
حقيقي ينخر جسدها ويهد كيانه هدأ مروعاً . . .

لم يكن يتردد في باريس سوى اسمين : ايماء هلسن وموتروزي
ويقدر ما كان المرء يدنو من الاوبرا بقدر ما كان هذان الاسمان
يصكان مسامعه . بينما كانت اعلانات ضخمة تحمل اسم الفنانين منشورة
على اعمدة الاوبرا وفي زاوية كل شارع .

وكنت تشاهد على جانبي الشارع المفضي الى الاوبرا ذات البناء
الضخم الحرس الجمهوري فوق جيادهم ينظمون حركة السير والوف
العربات قد تقاطرت من جميع نواحي باريس تطل منها ، خلال النوافذ
المفتوحة ، رؤوس غارقة بفاخر الثياب . ثم كانت كل عربة تتوقف
امام المدخل الرئيسي ليهبط ركبها ثم يتلعبهم الدهليز الواسع المفضي
الى الصالات الفساح .

وعلى طول الدرج الفخم كان سيل لا ينقطع من سيدات غارات
في الفراء ورجال في ثياب السهرة السوداء ..

وفي اللوج الواقع فوق المسرح كانت تجلس الدوقة وآيت

والكونت والمركيز وبرتان وقد لحق بهم ميزاديو . وكانت الضجة
تعلو من وراء الستار المسدل ، ضجة عميقة مبهمة تم عن اشخاص في
نشاط دائب . وكانت الانظار متجهة الى ذلك الستار كأنها تحاول
اختراقه والنفاذ الى ما وراءه .

ان الستار سيرفع عن رواية (فوستا)

وراح ميزاديو يحدّثهم عن الحلقة التي اقيمت قبل ذلك في
(التياتر ليريك) وما لاقت من نجاح منقطع النظير .

وكانت آيت تصفي اليه بنهم صدياني بينا ترشق خطيبهما ،
ذلك الذي سيدصبح زوجها ، بين الفينة والاخرى بنظرة تقطر حنواً ...
انها تحبه الآن ، تحبه كما تحب القلوب الساذجة ، تحبه لانها تجد فيه
كل آمال غدها المأمول ...

ان اولى نشوات الحياة ، ورغبتها العنيفة في ان تنال السعادة
كانتا محرّكان قلبها بالحنو والانتظار .. انتظار ولوج باب الحياة السري
امّا اوليفيه فكان واقفاً في المقصورة ينظر كل ما يجري ، ويدرك
كل هذه البواعث . لقد هبط درجات سلم الحب المكبوت وقد بلغ
بهبوطه الى ذلك الاتون الذي يصهر القلب البشري كما تصهر نار حامية
لحمًا يشوى فوقها . كان ينظر الى الخطيبين نظرة فيها غيرة مريرة
وفيها ضراعة متخاذلة ...

وقرع المسرع ثلاثاً .. وارتفع الستار عن الفرقة الموسيقية ،
 وبعد فترة قصيرة من صمت عميق رفع العازفون اقواسهم وتماوجت
 في الجو انغام بالغة الروعه نفذت من السامعين حتى الاعماق ...
 وجلس اوليفيه في طرف اللوج ، وقد عضه اللالم والحزن كما
 لو كانت جراح قلبه قد نكأتها هذه الالخان البالغة حد الروعة والجمال
 وكان الجمهور يصغي الى العزف الفريد بانتباه صارم ، وتذوق
 صادق . وراح اوليفيه يصغي كما يصغي الجميع وكان لكثرة ما استمع
 الي هذه الاوبرا قد حفظها عن ظهر قلب ومع ذلك انطلق يصيح
 باسماعه واجداً فيها كل مرة متعة جديدة . لقد قرأ هذه المسرحية
 الشعرية قبل اليوم ، وتذوق فيها فن (غوته) وتلك الافكار التي حاول
 وضعها في قلب بطلة (فوستا) .. ولم يكن قد تأثر بها قبل الآن ...
 امّا هذه المرة فخيّل اليه ان الاقوال والانغام تمس من قلبه وترأسديد
 الحساسية .. ذلك انه تصور نفسه ، هذا المساء ، انه هو الآخر (فوستا)
 كانت آتيت منحنية قليلاً على مسند المقصورة منصرفة بكل قوتها
 وكانت تتمّات اعجاب قد بدأت تنفّلت من شفاه السامعين ذلك ان
 صوت موتروزي كان ابلغ وقمّاً منه في جميع الاوقات ...
 وانغمض برّتان عينيه . فمنذ شهرين اصبح لا يرى شيئاً ولا
 يسمع بشي الا ويقارن حالاً بين احساسات الاشخاص واحساساته

ويجد دائماً شبيهاً غريباً بين عذاب الآخرين وعذابه الذي يصل إلى بناره
منذ عرف قلبه هذا الحب الغريب ... حب شخص مزدوج ..
الأم والابنة .

وها هو الآن يصغي بجماع نفسه إلى صدى تضرع فوستا وقد
برزت فكرة الموت في أعماق نفسه . تلك الفكرة التي تقوى دون سواها
على وضع حد نهائي لكل ما ينتابه من آلام ممزقة ، وكل ما يحسه من
بؤس في حبه الشقي .

وتطلع صوب آتيت هيكلمها الدقيق فوجدها مستندة إلى مقعدها
ومن ورائها خطيبها يتأملها كذلك . وادرك أنه شاخ ، وأنهى ! فما
تراه ينتظر ؟ ما تراه يأمل ؟ أما بقي له حق في أن يترجى شيئاً .. لقد
قلبت له الحياة ظهر المجن ، فالقت به من حلق .. كأنه موظف أحيل
فجأة على التقاعد فلم يعد له ما يعمل .. يا للعذاب المريع !

وعصف التصفيق يهز جدران الصالة الكبرى . لقد انتهى
موتروزي ، وكان انتصاره رائعاً . وبرزت من وراء الستار المغنية
(لا باريير) ولم يكن أوليفيه قد سمعها من قبل ، فاستفاق من استرساله
مع أحلامه المريرة وصفت أذنه جملة يقولها فوستا (لا بليت) : أريد
كنزاً يضم كل أطايب الحياة ومسراتها ، أريد الشباب ! واعاد أوليفيه
هذه العبارة بين أسنانه . وانشدها بالمرح في أعماق نفسه ، وكانت

عيناه عالقان بعنق أنيت الأبيض الاتع ، فادر كته كل معاني تلك
العبارة المرة المربعة .

وهبط الستار وعاد فارفع وقد ضجبت الصالة بالتصفيق ،
 لبتاح لقائد الفرقة تحية الجمهور ، وكانت آيت والدوقة تصفقان بحرارة
 وقد استمرتا بعد انتهاء كل المصفيين ، وكان حر كتهما هذه قد لغت
 انظار مونتروزي الذي حياهما تحية خاصة . قالت آيت :
 — لقد رأنا — فبهتت الدوقة :

— ياله من فنان عظيم !
وراحوا يتحدثون عنه ، لاريب في ان نجاحه يفوق مواهبه .
ولكن مما لاريب فيه انه قد لاقى في كل العواصم نجاحا
— لم يسبق له مثيل حتى لقد كانت النساء يشعرن بقلوبهن
تنفطر لدى وقوع انظارهن عليه . وعقبت الدوقة .
— ومن ناحية ثانية .. كيف يمكن مقاومة سحر صوته
الطاغى .

وحق اوليقيه ، ولم يدرك كيف يمكن الاعجاب بمثل هذا
العرض المردد لنموذج من البشر لا يتغير . فإني الفن . والعبقريه في اعاده
مشهد واحد سنين عديدة ؟
واجابته الدوقه :- لا ريب في انك تحس حسداً منه . انكم انتم

الرسامين تحقدون على الممثلين لأنهم يفوقونكم نجاحاً . ثم استدارت
نحو آيت وقالت :

— الا قولي ، انت التي ستدخلين الحياة قريباً ، ان لك عينين
بريثتين ونظرة ما تزال طاهرة ، قولي الم يعجبك هذا الفنان ؟
فاجابت آيت بصوت مقتنع : - وكيف لا . اني اجده عظيماً
جسداً .

وقرعت ضربات الثلاث معلنة بدء الفصل الثاني :
وكان دور هيلسن رائعاً حقاً : فان صوتها قد تحسن كثيراً
واكتسبت ، لطول المران ، نغومة رائعة جعلتها تستحق تلك الشهرة
الطائرة التي لا تعاد لها الا شهرة بسمارك ودي ليسبس من عظماء الاحياء
وانطلق فوستا اليها وخاطبها بعبارات عابقة بالاغراء :
الا تسمحين لي ابتها الانسة الجميلة
ان اقدم لك ذراعي ، لا سير في الطريق
وما ان اجابته مرغريت الجميلة الشقراء الرشيقة ، والتي تقوم
بدورها هيلسن : ،

كلا يا سيدي ، فانا لست آنسة ولست جميلة
ولست بحاجة الى يد تقدم الي .

ما انت اجابته بهذا القول حتى عاد التصفيق بكاد يقوض
اركان الصلاة ...

ولما هبط الستار كان الهة اف يعلو والتصفيق يزايد حتى ان
آنيث انطلقت تصفق بحرارة جمعت برنان يكاد يجذبها ليمنعها عن
متابعة التصفيق . كان قلبه مفعماً بالم جديد . فلاذ بالصمت خلال فترة
الاستراحة . وكان الفصل الثالث والاخير .

وظل برنان حتى نهاية التمثيل لاثنأ بالصمت المطبق ، وقد
انشبت تلك الافكار برائتها في سويداء فؤاده .

وما هدأت ضجة الاستحسان والاعجاب حتى قدم ذراعه للدوقة
بينما تناول المراكز ذراع آنيث وهبط الجميع السلم بين امواج من رجال
ونساء . وصعد الكونت والدوقة والمراكز وآنيث الى عربتهم بعد ان
ودعوا برنان الذي بقي هو وميزاديو في باحة الاوبرا
وشعر فجأة نحو ميزاديو بمثل ما يشعر الغريب اذا التقى باحد
ابناء وطنه . فهذا هو الرجل الوحيد الذي يستطيع ان يحدثه عنها .
وتناول ذراعه وقال : - الطقس جميل . فما رأيك بنزهة قبل النوم .
- لا بأس .

وانطلقا نحو المادايين . كان الف موضوع في رأس ميزاديو .
فراح يحدث صديقه بها بطلاقة واندفاع .

وكان ميزاديو ما يزال في انطلاقه بالحديث عن التمثيلية والحفلة
الموسيقية عندما سأله برتان :

— لقد كانت آيت رائعة هذا المساء ؟

— اجل كانت بالغة حد الفتنة .

وتابع الرسام كي لا يتيح لرفيقه استعادة الحديث المقطوع :

— انها اجمل مما كانت عليه امها .

فاجابه ميزاديو بلهجة غير ازادية : — أجل . أجل . أجل .

وتابع برتان : — سيكون لها بعد زواجها صالون كأحسن

صالونات باريس .

وكانت هذه الملاحظة كافية لاجتذاب انتباه ميزاديو الرجل

الاجتماعي ومراقب الفنون الجميلة : فاندفع يصف لرفيقه مركز المراكز

دي فارندال في المجتمع الباريسي .

واصغى اليه برتان وهو يتخيل آيت في صالون مشعشع الانوار

بين حشد من رجال معجبين ونساء جميلات وهذه الرؤيا ايضا اوقدت

في قلبه جذوة الغيرة .

وكانا قد بلغا شارع مالرب ومرتاً بييت غيروا ورفع الرسام

عينيه فرأى النوافذ تبعث منها الاضواء وادركه شك في ان الدوقه

وابن اخيها يتناولان العشاء لدى آل غيروا . وعصف في اعماقه غضب

جعلته يغلي كالمرجل . . . ولما بلغا بيت برتان . قال برتان : ادخل .
— كلاً شكراً . الوقت متأخر . اريد ان آوي الى فراشي .
— تعال نقضي نصف ساعة اخرى في الثثرة .
— كلاً . الواقع ان الليل قد تقدم .

كانت فكرة بقاءه وحيداً بعد هذه الصدمات العاطفية التي منى
بها تريمه وتبعث فيه قشعريرة . انه يريد احداً يبعد الوحشة عنه . وعاد
يقول لرقيقه :

— اصعد . اريد ان اقدم لك لوحة . تعال انتخب ما يعجبك .
وادرك ميزاديو ان الفرصة سانحة للظفر باحدى لوحات
الفنان الكبير فلم يشأ ان يضع السانحة . وهو بصفته مراقب الفنون
الجميلة ، قد اقتنى مجموعة بدبعة لا بأس بان تضاف اليها احدى لوحات
برتان .

— حسناً اني اتبعك .
وقدم لهما الخادم الذي استيقظ شيئاً من شراب ثم جاء برتان .
بلوحات عدة عرضها على ميزاديو على يختار ما يعجبه منها . وبعد مفاصلة
طويلة اختار اخيراً لوحة تمثل فتيات صغيرات يرقصن فوق الحبل وشاء
ان ينصرف حال حصوله على الهدية . وقال برتان
— سأرسلها اليك

— كلاً أفضل ان احصل عليها هذا المساء لا تمتع بها قبل ان ارقد
ولم يقو شي على امساكه . وها هو الرسام يجسد نفسه من
جديد جيس هذا البيت العابق بذكرياته المريرة .

ودخل خادمه في الصباح يحمل اليه الشاي وبعض الصحف
اليومية فوجده ما زال في مقعده . فسأل :

— لعل سيدي على خير ما يرام ؟

— لا شي . انها وعكة بسيطة .

— الا يعني سيدي شيئاً ؟

— كلاً . كيف الطقس ؟

— انه ممطر يا سيدي .

— حسناً هذا يكفى .

فوضع الرجل الشاي والصحف على الطاولة الصغيرة وخرج .

وتناول اوليفيه صحيفة (الفيفارو) . وكان في رأس الصفحة

الاولى مقال بعنوان « الرسم المصري »

ولم يكن المقال سوى مدح وتقريظ لثلاثة اواربعة من الرسامين

المحدثين الذي لم تكن لهم سوى موهبة تشبه موهبة (الدهانين) ومع

ذلك زعموا انهم يتحدثون في عالم الرسم ثورة جديدة .

وكذلك الرسامين الكبار ، غضب اوليفيه ، لدى قراءتها

مثل هذا المديح ويصدق على هؤلاء القادمين الجدد الذين يزعمون
خلق مدرسة جديدة لعصر جديد .

وتضاعف غضبه عندما لمح في مكان آخر من المقال جملة كان
وقعها عليه كوقع النبل في غلس الظلام :

« لقد غدا فن أوليفية برنان فناً قديماً لا يوافق الذوق

العصري ... »

كان دائماً رماً بالنقد ، شديد السرور بالتقريط ، غير انه شعر
هذه المرة ، في اعماق ضميره ، بوخذ مريع لهذا التحدي السافر . فقد
اعتاد ، ايام مجده ، ان يلقى حرق البخور امامه بغبطة فائقة تنسيه بعض
الغمزات التي توجه اليه . اما اليوم ، فها طبقة جديدة من الفنانين تبرز
الى الوجود ، وها الثناء ينهمر عليها انهماكاً ، اما هو ، الفنان الشيخ فلم
يعد من يذكركه الا ليعرض بمبقرته وفنه ...

لقد وجد نفسه في فيلق من سمغار الفنانين المحدثين الذين لا
يعترفون له بسبقه وبعلو كعبه . وهذا ما جعله يتعذب عذاباً اليماً لم
يكن ليحسه لو هاجموه هجوماً سافراً .

لم تكن الطعنات ابداً لتشنخ كبرياه كفنان كما تفعل الآن .
وعاد يقرأ المقال ويستوعب كل كلمة فيه واستخلص منه ان الكاتب
حاول القاءه مع غيره من كبار الفنانين في سلة المهملات ... ونهض

وهو يقضم شفثيه غيظاً ويردد :

« أصبح ان فن اوليفيه برنان لم يعد من ذوق العصر ؟
ان هذا الشيء مؤلم حقاً . اقللا يكفيه اخفاقه في حبه كرجل ،
حتى يأتي من ينعي اليه فنه ، فكره ، عصارة روحه ... لقد اسقط
في بده . . .

وبقي حتى الساعة الثانية في كرسيه ، وقد مند نحو المدفأة
سافيه ، وقد فقد كل قوة فلا يستطيع حراكاً ...
وتحركت فيه الرغبة في الترويح عن نفسه ، رغبة في ضغط ايد
مخلصة ، والنظر في عيون موالية ، وسماع كلمات مشفقة ، وهددة
صوت حنون . فنهض وذهب ، كما اعتاد ان يفعل ، قاصداً الكونتس .
ودخل فوجد آنيث واقفة وقد ادارت الى الباب ظهرها
وراحت تكتب بسرعة عنواناً على ظرف ، وكانت فوق طاولة ، بالقرب
منها جريدة « الفيغارو » . ووقع نظر برنان على الصحيفة في نفس الوقت
فتسمر في مكانه لا يتقدم . واستدارت اليه ، منشغلة ، مضطربة الفكر
وقالت معذرة :

— عم « ساء يا سيدي الرسام . انك تعذرني فاني سأتركك .
ان الخياطة بحاجة الي في الطابق الاعلى . انت تدرك اهمية الخياطة ليلة
العرس . سأرسل اليك بامي ، التي تستطيع ان تحادثك كفتان واذا

ما احتجت اليها ناديتها الي . وانطلقت راكضة ...

ان هذا الانطلاق المفاجئ ، دون كلمة وداد او نظرة حنو منها .. هي التي يحبها ... يحبها بجنون . هذا العمل تركته بالغ الاضطراب ... وعادت عينة تقع من جديد على « الفغارو » وفكر : لقد قرأته ! انهم يهزؤون بي ، انهم يستهينون بفي ! لم اعد بالنسبة اليها شيئاً مذكوراً !

وتقدم خطوتين نحو الصحيفة كما يتقدم الرء نحو رجل يريد صفعه ثم عاد يقول لنفسه : لعلها لم تقرأه . انها شديدة الانشغال هذا اليوم . ولا بد ان يتحدثوا بالموضوع هذا المساء بعد العشاء وستحس غبة في قراءة المقال .

وبحركة آلية ، دون اي تفكير ، تناول الصحيفة واغلقها وطواها واخفاها في جيبه بخذر كخذر السارق .

ودخلت الكونتس وما رأت مصفر الوجه لاهت الانفاس حتى ادركت انه يتألم ألماً بالغا .

وتقدمت نحوه ، تقدمت بكل نفسها الممزقة هي الاخرى وبكل جسدها المعضب ايضاً . والقت يديها على كتفيه ونظرت في اعماق عينيه وقالت : آه كم انت تعيس !

ولم ينكر هذه المرة وتمتم والعبرات تحتق صوته :

— أجل . أجل . أجل .

وشعرت به يكاد ينتحت . فسارت به الى زاوية الصالون
الاشد اظلاما واجامته وجاست فككنا فوق كرسيين متقاربين
وراء ستار من حرير قديم . جلسا وراء هذا الجدار الحريري المطرز
بالوشى في ظلال يوم ممطر من ابام الشتاء .

وعادت تقول نائرة الاعصاب موجهة اليه اللوم :

— يا اوليفيه المسكين ! كم تنال !

والقى برأسه الابيض فوق كتف حبيبته :

— اكثر مما تستطيعين التصور .

فتمتت حزينة : — آه . اعرف ذلك . لقد ادركت كل شي

لقد رافقت عاطفتك تنبت وتنمو ثم تكبر .

فاجاب ، وكانها توجه اليه اتهاما : — ليس ذلك ذنبي يا آني !

— اعرف جيداً . انا لا الومك انت .

وبلطف دنت بوجهها من وجهه وطبعت قبلة على احدى عينيه

فوجدت فيها دمة مرة .

وانفضت كأنها تذوقت قطرة يأس محرقة وراحت تردد

مرات متتامة : — آه يا صديقي المسكين . يا صديقي المسكين .

ثم اضافت بعد لحظة صمت : - انه ذنب قلوبنا الذين لم يهرما...
أني احس ايضاً في قلبي حرارة وشباباً...
وحاولت ان تسكّم فلم تفلح لأن العبرات كانت تخنقها .
وكانت تصغي الى اختلاج صدره فوق صدرها...
ثم عاودتها انانية الحب التي كانت منذ امد طويل تهش صدرها
نهشاً وبلهجة جارحة ناجمة عن الم هائل :
- يا الهي . كم تحبها !

واعترف مرة اخرى : - اجل . ان حبي لهم لمظيم !
وفكرت لحظة ثم قالت : - انك لم تحبني انا مثل هذا الحب ابداً !
ولم ينكر لأنه كان يجتاز احدى تلك الساعات التي لا يحق
فيها المرء شيئاً من الحقيقة وتتم :

- كلاً . فقد كنت آنذاك صغير السن .
ودهشت : - صغير السن ؟ وكيف ذلك ؟
- لأن الحياة كانت هينة لينة . ففي مثل سننا يحب المرء حبه
العنيف الميؤس .

وسألته : - ايشبه ما تحسه نحوها ما كنت تشعر به نحوي ؟
- نعم . ولا . ومع ذلك فيكاد الامر لا يختلف . لقد احببتك
كما يستطيع رجل ان يحب امرأه . اما هي فاجبها كما احببتك لاني احبك

فيها ! غير ان حبي لها قوي عنيف لا يقاوم . انه جارف مخرب . انه
اقوى من الموت . انها قد امتلكتني كما تملك النار بيتاً يحترق ...
وشعرت بشفتها تجف تحت وهج الغيرة الالهية .. وقالت
بصوت معزٍ :

— يا صديقي المسكين .. لن تمر ايام فلائيل حتى تزوج
وتمضي في سبيلها المخطوط . ولا ريب في انك ستشفى سريعاً اذ انك
لن تراها بعد ذلك ابداً ...

وهز رأسه وقال : — آه . اني رجل مضيع ... مضيع
— ولكن لا . لا . ستمرا شهر ثلاثة دون ان تراها . الا يكفي
ذلك لتنساها . الم تكفك ثلاثة اشهر لتحبها اكثر مما احببتني خلال
اثني عشر عاماً !

وحينئذ تضرع اليها وهو يكاد يذوب وجداً : آني لا تهجريني
انت الاخرى !

— وما استطيع ان اعمل في سبيلك .

— لا اتركيني وحيداً .

— سأزورك قدر ما تشاء .

— كلا احفظني بي لديك قدر ما تستطيعين .

— التكون قريباً منها .

— وقريباً منك .

— يجب ألاّ تقع انظارك عليها قبل زواجها .

— آه ! يا آني .

— او اقل ما يمكن .

— او استطيع البقاء هنا هذا المساء ؟

كلاً . ليس على مثل الحال التي انت فيها . يجب ان تروح
عن نفسك . اذهب الى النادي . اقصد المسرح . . اذهب انى تشاء
شرط الا تبقى هنا .

— ارجوك .

— كلاً يا اوليفيه . هذا مستحيل . ومن ثم سيتعشى عندنا
اناس وجودم يسيؤوك .

— الدوقة ؟ و . . ؟

— اجل .

— الم امض سهرة امس معهم ؟

— دعنا من ذلك . ان نفسك على حال غير حسنة هذا اليوم ؟

— اعدك ان اكون هادئاً .

— كلاً هذا مستحيل .

— اذن انا ذاهب .

— ما الذى يعجل رحيلك هكذا ؟

— اني بحاجة الى المشي .

— اصببت . امش كثيرأ ، حتى يرهقك التعب فتنام جيدأ .

ونهض : — وداعأ يا آني .

— وداعأ يا صديقي العزيز . سأمر بك غداً صباحأ . تريد

ان ارتكب حماقة كبيرة كما كنت افعل في الماضي اذ اتغدى هناظهرأ

ثم آتيك لا تغدى معك في الواحدة والزبع ؟

— اجل . كم آتني ذلك . انك صديقتي .

— ذلك اني احبك .

— وانا كذلك احبك .

— آه . دعنا من هذا .

— وداعأ يا آني .

— وداعأ يا صديقي العزيز . الى الغد .

— وداعأ .

وقبل يديها الواحدة تلو الاخرى . ثم قبل عنقها واخيرأ زاوية

شفتيها . ورافقته حتى الباب وقبل ان يخرج تناولها بين يديه وجذبها

الى صدره بكل قوة واطبق بشفتيه فوق جبينها وراح يغدق عليها القبل

كانه يعب كل ما تبقى من حبه الماضي ..

وانطلق سريعاً .. دون ان يلوي على شيء ...
وما وجدت نفسها وحيدة حتى القت بحسدها فوق مقعد
وراحت تنشج . ولو لم تأت آيت فجأة تستدعيها لبقيت هكذا حتى
هبوط الليل .

ولبتاح للكونتس تحفيف دموعها المنسكبة اجابت ابنتها :
— عليّ انا كتب رسالة قصيرة يا ولدي . سأتابعك بعد لحظة
وحتى المساء انصرفت لاعداد (جهاز) ابنتها .
وكانت الدوقة وابن اخيها على مائدة آل غيروا ذلك المساء .
وما كادوا يجلسون الى المائدة حتى ادخل رئيس الخدم ثلاث
اضمامات كبيرة من ازاهير جميلة .

وتساءلت الدوقة مندهشة : — يا الهي . ما هذا ؟
وهتفت آيت : يا الهي كم هي جميلة ! فمن ترى ارسلها الينا ؟
فاجابت امها : — انه اوليفيه برتان ولا ريب .
فمنذ ذهابه ما انفكت تفكر فيه فقد بدا لها شديد الانقباض
واضح التعاسة ، ولمست شدة آلامه ، وبالعجز حزنه . وادركت انها
تحبه كثيراً .. حباً حانياً ، كاملاً حتى لقد سحق قلبها باحساسه المؤلم
ووجدوا في كل اضمامة بطاقة من الرسام تحمل لواحدة اسم
الدوقة والثانية اسم الكونتس والثالثة اسم آيت وقد كتبت بالقلم
الرصاص .

وسألت الدوقة : أترأى صديقكم برتان ؟ لقد لاحظت
امس ان هيئته متغيرة جداً .

فاجابت الكونتس : اجل . ان افكاري مشغولة عليه بالرغم انه
لا يشكو .

واجاب زوجها : انه مثلنا نمشي الى الشيخوخة . واغلب ظني
ان العازبين يسقطون فجأة . ان سقطاتهم اسرع من سقطات سوام
انه قد تغير في الواقع كثيراً .

وتهدت الكونتس قائلة : اجل . اجل .

واقطع فارنديل عن الهمس في اذن خطيبته وقال لقد نشرت صحيفة
الفيغارو مقالاً قبيحاً بحق برتان .

ان كل هجوم او انتقاص من قيمته الفنية ، كان كافياً
لاخراج الكونتس عن طورها . قالت :

— ان الرجال العظام امثال برتان قلما يهتمون بمثل هذه

الصفائر ...

وعقب غيروا دهشاً : مقال يسيء الى برتان ؟ ولكن لم

اقرأه في اي صفحة ؟

وشرح الماركيز : — في الصفحة الاولى . في اعلاها . تحت

هذا العنوان « الرسم المصري »

وانقطعت دهشة النائب : حقاً انالم اقرأه لانه يبحث
في الرسم .

وابتسم الجميع . فهم يعرفون حق المعرفة ان كل ما يخرج عن
نطاق السياسة والزراعة قلما يشير في النائب المحترم اي اهتمام .

ثم تشعب الحديث حتى نهاية العشاء . وانتقلوا الى الصالون
لتناول القهوة . وكانت الكولتس غائبة الانتباه فهي تفكر بما عسى
برنان ان يفعل . اين هو الآن ؟ اين تناول عشاءه ؟ اين ينتقل في هذه
اللحظة بفؤاده الدامي الجراح ؟ ودهمها ندم كوى جسدها كياً
لسماحها له بالذهاب دون ان تحاول امساكه . وتخيّلته يطوف في
الشوارع حزيناً شريداً وحيداً هارباً من احزانه .

ولم تنبث بكلمه حتى ذهاب الدوقة وابن اخيها . ثم اوت
الى سريرها وسيط الامم لاتنفك تثنخ قلبها فتمزقه شر ممزق . ولم
تجد الى الرقاد سبيلاً مفكرة فيه مفتوحة العينين .

وكان وقت طويل قد انقضي عندما خيل اليها ان جرس الباب
يقرع . وانتفضت بشده وجلست في سريرها واجفة . وعاد جرس
الباب يدق في قلب الليل .

وقفزت خارج السرير وبكل قوتها راحت تضغط الزر الكهربائي
الذي يوقظ وصيفتها . وحملت شمعة مشعلة واسرعت الى الممشى .

ونادت عبر الباب : — من تراه هناك ؟

فاجابها صوت مجهول : — اني احمل رسالة .

— رسالة ؟ ومن ؟ من طيب . — اي طيب ؟

— لست ادري . بسبب حادث .

ودون تردد فتحت الباب . ووجدت نفسها امام سائق عربية

ذى قبعة من مشمع . وقدم اليها رسالة يحملها بيده وقرأت عليها :

« عاجل جداً . حضرة الكونت دي غيروا .

كان الخط مجهولاً . وقالت للرجل : ادخل يا صديقي .

اجلس . وانتظر قليلاً .

ووقفت امام غرفة زوجها ووجيب قلبها يملو دون ان تجرؤ على

قرع بابه . واخيراً قرعت الخشب بأسفل الشمعدان ولم يسمع الصوت

اذ كان غارقاً في سباته . وفرغ صبرها فراحت تضرب الباب بقدمها

واجابها بصوت كله نعاس : من هناك . كم الساعة الآن ؟

— انا . اني احمل اليك رسالة عاجلة جداً . بخصوص حادث

وعاد يقول من خلف الباب : تربثي . اني انهض . سأتيك ولم تمض

دقيقة حتي خرج بردائه المنزلي . وفي نفس الوقت خف خادمان كان

رنين الجرس قد ابقظهما . وكانا مذعورين وقد شاهدا في غرفة

المائدة رجلاً غريباً ينتظر جالساً فوق كرسي .

وتناول الكونت الرسالة وراح يقلبها بين يديه وهو يتمم :

ما هذا ؟ اني لم احزر !

وقالت بعصية : ولكن ... اقرأها .

ومزق الغلاف وفتح الورقة واطلق صرخة استفهام ثم نظر الى زوجته
بهينين خائفتين . فقالت :

— يا الهي . ماهو الخبر المشؤوم ؟

وعاد يتمم وهو لا يكاد يقوى على النطق لشدة ما اعتراه من انفعال :

— آه يا المصيبة . يا المصيبة ! لقد سقط برتان تحت احدى

العربات ...

وندت عنها صرخة هائلة : — امات ! ؟

— كلاً . كلاً . انظري بنفسك .

ونزعت الرسالة من بين يديه وراحت تقرأ :

سيدي لقد حدثت مصيبة كبرى . ان صديقنا الرسام الكبير

اوليفيه برتان قد سقط تحت عجلات عربة وقد مرت عجلة فوقه

ولن نستطيع الآن ابداء الرأي فيما ينتج عن مثل هذا الحادث . فهو

قد لا يكون خطراً كما قد يكون قاصياً . ان السيد برتان يرجوك كما

يرجو سيدتي الكونتس دي غيروا ان تأتي لرؤيته الساعة .

وآمل ان سيدتي الكونتس وانت لن تنقاعسا عن تلبية هذه الرغبة

الصادرة عن صديقنا المشترك الذي قد يلفظ انفاسه قبل انبلاج الصباح .

الدكتور دي ريفيلي

وتطلعت الكونتس الى زوجها بعينين كبيرتين ثابتتي النظرة ،
مليئتين بالرعب ، وفجأة اضطربت كما لو مسها تيار كهربائي فعاودتها
شجاعتهما بمثل تلك السرعة والقوة التي تستعيد المرأة فيها شجاعتهما عندما
تدلهن الخطوب .

واستدارت الى وصيفتها وقالت : - هيا سريعاً . اريد ان
ارتدي ملابسني .

وسألتها الوصيصة : ماذا ترغب السيدة بارتدائه ؟
- اي شيء الذي تريدينه . وتابعت : - جاك كن على استعداد
خلال خمس دقائق .

ومررت بالسائق الغريب فسألته : امعك عربتك .

- نعم ياسيدي - حسناً سنأخذها .

ثم انطلقت نحو غرفتها .

وبحركات مجنونة راحت ترتدي ملابسها كما اتفق . ووقفت
لحظة أمام مرآتها فرفعت شعرها وتركته دون اية عناية .

وكانت تنظر الى وجهها الشاحب وعينيها المكسرتي الاهداب
في المرأة ، دون ان تفكر في ذلك هذه المرة .

وما اقلت بمعطفها فرق كتفها حتى وثبت الى غرفة زوجها
الذي لم يكن قد استعد تماماً فاهابت به : - عجل . فكر انه يمكن
ان يقضي في اية لحظة .

وتبعها الكونت مذعوراً وهو يتعثر لدى كل خطوة فوق
السلم المظلم وهو يسمى الى تانس الدرجات متفاديا السقوط . وقطعا
المسافة بصمت مطبق وكانت الكونتس ترتجف بشدة واسنانها
تصطك وهي تشخص الى مصابيح الغاز المغلفة بالضباب والمطر .
ووجدوا باب مسكن الرسام مفتوحا وغرفة البوابة منارة وفارغة .
واستقبلها على رأس الدرج الطبيب دي ريفيلي . وحيى الكونتس
بانحناء عريضة وصافح الكونت .

وسألته لاهثة كأن صعود الدرج قد استنفذ كل قواها : - حسناً
يادكتور ؟

- حسناً ياسيدي . آمل ان الاصابة اقل خطراً مما خيل الي
اول الامر .

وصرخت : - لن يموت ؟

- كلا . او على الاقل لا اعتقد ذلك .

- اواثق انت ؟

- كلا . اما اقصد فقط اني كبير الامل بذلك . اذ انني امام حالة

لأنه قد كونهما إصابة خارجية قد لا تتبعها اشتراكات داخلية .

-- ماذا تعني بالاشتراكات ؟

-- اعني تمزقاً داخلياً .

-- وكيف عرفت ان ليس ثمة تمزقاً .

-- افترض ذلك افتراضاً .

-- واذا كان تمزق ؟

-- سيكون الامر خطيراً ...

-- فقد تقتله ؟ ...

-- اجل . -- سريعاً ؟ -- سريعاً . في بضع دقائق او

حتى في بضع ثوان . ولكن لتطمئن سيدي فسيشفي خلال اسبوعين .
كانت تصغي بانتباه عميق لثلاث فقراتها شي من التفاصيل
وتابعت تسأل :

-- وأي تمزق يمكن ان يحدث له ؟

-- تمزق في الكبد مثلاً .

-- سيكون بالغ الخطر ...

-- اجل ... ولكن مما يدهش ان تحدث له اشتراكات الان

لندخل عليه . فان رؤيتك تفيد . لانه ينتظر بك بفراغ صبر .

ان اول ماشاهدته لدى دخولها الغرفة هو رأسه الواهي بوجهه

الشاحب فوق وسادة بيضاء . وكانت بضع شمعات ونور المدفأة ينير
الغرفة فترسم ظلالاً على الجدران . ولحت الكونتس عيني تنظر ان
اليها لدى دخولها ،

ووجدت كل شجاعتها ، وكل قوة ارادتها بل كل ما فيها من
قوى تنهار فجأة . وتمت بين شفقتها : يا الهي . ومشت نحوه والهلع
يهز كيماها هزاً .

وحاولت ان تبسم لتشجعه فكانت تكشيرتها مخيفة . وما
اصبحت بقرب السرير حتى القت يديها فوق يدي اوليفيه الممدودتين
الى قرب جسمه وعادت تتمم : - آه يا صديقي المسكين .
واجابها بصوت منخفض دون ان يحرك رأسه : . . ليس
بي شي .

وراحت تأمله وقد اصناع صوابها هذا التغير الذي اعتراه كان
بالغ الشحوب حتى الكان دماؤه قد نرفت كلها . وكان خداه منخفضين
داخل وجهه وعيناه غارقتين في محجريهما كأنهما قد سحبتا بخيط
من الداخل .

ولمخ الرعب الذي حل بصديقه فتهجد وقال .
- ها اناذا في حالة حسنة . فسأله : . . كيف حدث
ذلك ؟ وبذل جهوداً جرة ليتوصل الى الكلام وكانت انقاضات

عصبية تجتاز وجهه بين فترة وأخرى :.. لم انتبه الى ما حولي ... كنت
افكر باشياء اخرى ... باشياء كثيرة اخرى آه نعم ومرت عربة
مسرعة فدهمتني واجتازت عجلتها فوق بطني ... كانت تصفي اليه
متخيلة الحادث وقد نار فيها الرعب :.. وهل زفت منك دماء .

— كلا اني فقط مرضوض ... محطم . وعادت تسأل . وفي
اي مكان حدث ذلك .

فاجاب بصوت خفيض .. لست ادري في مكان بعيد جداً .
وقدم لها الطبيب مقعداً انحطت عليه بجسدها بينما ظل زوجها
واقفاً عند قدمي السرير مردداً بين اسنانه .. آه يا صديقي المسكين
يا صديقي المسكين ياله من حادث تعيس !

كان في الواقع يحس حزناً عميقاً لانه كان يحب اوليفيه كثيراً .
وعادت الكونتيس تقول : ولكن اين حدث ذلك فاجابها الطبيب
لا ادري ار بالاحرى لم افهم . والارجح ان ذلك حدث في ضواحي
باريس فقد اخبرني سائق العربة الذي التقطه انه حمله الى صيدلية في
تلك الضاحية ثم جاءوا به الى الساعة التاسعة .

ثم انحنى فوق اوليفيه .. اصحیح ان الحادث وقع في الضواحي
وانغض برتانه عينيه كأنه يتذكر ثم غمغم .. لست ادري .
— ولكن اين كنت ذاهباً .

— لا انذكر كنت اسير دون وجهة .

ولم تستطع الكونتس امساك زفرة ندت عنها ثم بعد شبه
اختناق اخرجت مندبلها وغطت عينيها وراحت تبكي بكاءً مرّاً .

اقد عرفت لقد حدثت ! ان شيئاً خيفاً خطأً سقط فوق
قلبها . الندم لعدم تشبهاً ببقاء او ليفيه عندها اطردھا اياه ، لالقائها
به في الشارع حيث سقط وهو سكران بحمى الحزن تحمت هذه العربة
وقال بصوته الذي غدا دون جرس . . لا تبكي ان ذلك يمزقي .

وبقوة ارادة انقطعت عن النسيج و كشفت عيني ثبتهما عليه
دون ان يختلج وجهها حيث كانت الدموع تسيل ببطء .

وتبادلا النظر وهما جامدان وايديهما متعاقبة فوق غطاء السرير
كان الواحد منهما ينظر الى الآخر كأن ليس في الغرفة سواهما
وكانت نظراتهما تنقل الى قلوبهما شعوراً اشقى من شعور البشر .

وقد بعثا بسرعة وبصمت رهيب كل ذكرياتهما ، كل حبهما
المحطم كلما شعرا به سوية ، كلما وحد ومزج حياتهما ، في تلك الفترة
الطويلة التي عاشها حبهما .

و كانت انظارهما ما تزال متبادلة واحسباً حاجة ملحة للافضاء
بالف شيء حميم حزين كان لا بد لهما من اخراجها الى النور . شعرا ان
عليهما باي ثمن ان يبعدا هذين الرجلين الواقفين في الغرفة . عليهما ايجاد

طريقة او حيلة لاتمام ذلك والمرأة هي دائماً ينبوع لا ينضب لاستنباط
الحيل . وراحت تفكر بطريقة مجدية وعيناها لا تفارقان عيني اوليفيه
كان زوجها يتحدث مع الطبيب بصوت خفيض . يدور
حديثهما عن العناية الواجب تأمينها لاوليفيه .

واستدارت وقالت للطبيب هل جئت بمن يسهر عليه .
— كلا وافضل ان ارسل ممرضة لتستطيع مراقبة حالته الصحية
— ارسل ممرضاً وممرضة فالعناية يجب ان تكون بالغة او
تستطيع ان تأتي بها الليلة بالذات اذ لا اعتقد انك ستبقى هنا حتى
الصباح ؟

— في الواقع انه يجب ان اعود فانا هنا منذ الساعة الرابعة تقريباً
— وترسل لنا الممرضين .

— ذلك امر صعب في قلب الليل وعلى كل حال سأحاول
— يجب ان نحاول .

— قد يعدان بذلك ولمكن آراهما يحضران .

— ان زوجي سيرافقك وسيأتي بهما ان طوعاً او كرهاً .

— ولكن استطيعين البقاء هنا وحيدة يا سيدتي .

— انا ؟ قالت بشبه صراح واحتجاج ثم عرضت واقع الحال بلمهجة

آمرة لم يجرؤ احد على الرد عليها .

نهضت بعد خروج الرجلين وبها لهفة الى خلو الجو . واصغت
الى الباب وهو ينطبق خلفها ثم سمعت ضجيج عجلات العربية وهي
تنطلق في الشارع ومكث الخادم والطاهة في الغرفة الثانية بانتظار
الوامر وعادت تدنو من السرير ثم تلقي يديها على طرفي الوسادة
حول الرأس الحبيب وتحولتأمل وجهه ثم سالته وقد دنت بشفتيها
من وجهه حتى احس لفتح انفاسها .. لقد القيت بنفسك تحت العربية
فاجاب محاولاً دائماً ان يتسم .. كلاً انما هي التي القت بنفسها فوق
- ليس صحيحاً انك انت الذي فعلت ذلك .

وبعد لحظات خيم فيها الصمت عادت تقول .. آه يا عزيزي
اوليفيه قل اني تركتك تذهب، اني لم اتحدث بك .

فاجابها باقتناع .. سيحدث لي ذلك اليوم او غداً .

وتبادلا نظرة اخرى محزنة ان يدركا اسرار تفكيرهما . وعاد

يقول لم اتصور اني سأعيش باللام المبرح !

تمتمت .. انك تتألم كثيراً ؟ .

- اجل

وانحنفت فوقه وغمرت جبهته وعينييه وخديه بقبل بطيئة خفيفة

رقيقة . لقد لمست باطراف شفتيها كما يقبل الاطفال امهاتهم . واستمر

ذلك طويلاً طويلاً . وقد تركت خلال هذه الفترة سيلاً من القبل

بنهر عليه فيخفف آلامه وقد بدا ذلك فوق وجهه الذي استعاد شيئاً
من هدوئه .

ثم قال .

— آني ؟ فانقطعت عن تقبيله لتصغي اليه : .. ماذا يا صديقي

— اتعديني وعداً ؟

— اني اعدك بكل ما تريد .

اذا لم امت حتى انبلاج الفجر اقسم لي ان تصحبي معك آتيت
مرة واحدة مرة واحدة فحسب كم اريد الا اللفظ انفا سي قبل ان
اراهما ... فيكرري اني غداً في مثل هذه الساعة سأكون قد اطبقت
جفني ولن يعود بامكاني ان ارى شيئاً لا انت ولا هي .

واسكنته وقلها بتمزق .

— صه صه اني اعدك باصنافها .

— او تقسمين .

— اقسم لك يا صديقي بشرط ان تسكت وان لا تقول شيئاً

انك تسبب لي الماء هائلاً وعاد يقول .

— اذا لم يكن لدينا سوى لحظات قلائل نعيشها سوياً فليس

لنا ان نضيعها . لطالما احببتك . وتنهدت قائلة .. وانا لشد ما احبك

دائماً ! . وقال ايضاً .. لم اشعر قط بالسعادة لولاك . ان الايام الاخيرة

فقط ما كانت قاسية ... وليس ذلك بسببك يا آني المسكينة ...
كم نكون الحياة تميسة وكم يكون الموت صعباً ... صه يا اوليفيه
ارجوك ...

— كم كنت اكون رجلاً سعيداً لو لم ترزقي بابنتك !

— صه ... يا الهي ! صه .

وبدا كأنه يحلم أكثر منه يتحدث .

— آه ان الذي خلق هذا الوجود وهؤلاء الناس كان اعمى

او خبيثاً ...

— اوليفيه ارجوك ... اذا كنت تحبني فاصمت ... لا

تسكلم قط .

وراح يتأملها وهي منحية فوقه شاحبة هي الاخرى وعليها

سمات الاموات ، وضمت .

وعادت تجلس فوق المقعد مقابلة سريره متناولة يده المسترخية

فوق غطاء السرير ..

والآن اني امنعك من الكلام لا تتحرك ابداً ففكر في كما

فيك . وعادا يتبادلان النظرات جامدين وقد اتصل احدهما بالآخر

بتلامسهما باليدين . وكانت تضغط بلطف اليد المحمومة التي تقبض عليها

محبة نداه بين الفينة والاخرى . وقال فجأة كأنه يستيقظ من حلم

وبانتفاضة رعب شديد .. - رسائلك؟ وسأله : ماذا؟ رسائلتي؟
- لو ادر كني الموت دون ان اتلفها * وصرخت وماذا بها
او تهتم الان بان احداً قد يجدها ويقرأها اني لا اهتم بذلك ! واجاب
اما انا فلا اريد انهمضي يا آني وافتحي الدرج الاخير في خزانتي الدرج
الكبير فهناك تجد بينها كلها * خذها واطرحها في النار ولم تتحرك فعاد
يقول ارجوك يا آني فاذا لم تصدعي بما اقول سببتي لي اضطرابا
واثرتي اعصابي فكري انما قد تقع بيد احد الناس ، كاتب العدل او
احد الخدم او بيدي زوجك ... انا لا اريد *

وهضت مترددة : كلا هذا بالغ القسوة هذا فظيع * يخيل
الي انك ستحرق قلبينا *

وعاد يرجوها وادركت ان لامندوحة عن الاستجابة لرغبته
وعادت بالرسائل فاستدار برأسه فوق الوسادة يشاهدها وعاد يقول
احرقها سريعا واخذت الرسائل بين راحتيها واحتفظت بها لحظة . ان
هذه الرسائل هي عصير روحها وسويدها قلبها وعاد اوليفيه يردد احرقها
احرقها يا آني . وبحركة واحدة من يديها الاثنتين القت حزمه
الرسائل في المدفأة فشببت فيها النار والتهمتها التهاما واستدارت
الكوندس وعلى ضوء اللهب شاهدت صديقها منحنيا محطيا فوق السرير
وسألها افعالي ؟

..اجل كلها .

وقبل ان تنتهي النار من الاتهام تلك الاوراق القت عليها نظرة
اخيرة كأنها تودع شخصاً حبيباً يغيب في باطن الارض ثم عادت الى
الجريح فرفعت رأسه بحنو واعادتها الى الوسادة . كان يلهث ووجهه
قد تغضن بالالم البالغ وبدأ كأنه لا يعرف هذه لواقفة الى قربه .
وانتظر ان يهدأ روعه قليلاً فيرفع رأسه ويفتح جفنيه ويخاطبها
وسألته وقد طال سكوته .. اتنا لم كثيراً ؟ . فلم يجب . وانحنت فوقه
ووضعت اصبعها فوق جبينه . ففتح عينيه الزائغتين ، عينيه الضائعتين
ورددت باضطراب عظيم اتنا لم ؟ اجبني اوليفيه اريد ان استبجد ...
ابذل جهداً قل لي شيئاً .

سمعته يتم : لم تاتي بها ... لقد اقسمتي لي ...
ثم اضطرب تحت اغطيته فمادت تقول : اوليفيه ! يا الهي !
اوليفيه ! ماذا بك ؟ اريد ان انادي ...

وسمعا هذه المرة واجابها ... كلا ليس بي شيء .
وبداً فعلاً كما لو كان قد استعاد قواه وخفت الامه ثم سقط
في شبه غيبوبة وقد ظنت انه يوشك ان ينام فعادت تجلس بالقرب من
السريـر وتناول يده وتنتظر ولم يعد يتحرك وذقنه فوق صدره وفمه

لصف مفتوح تتردد منه انفاسه التي تشحب في حنجرتة . فلم يكن
يتحرك فيه سوى اصابعه التي كانت بالرغم عنه تتشنج تشنجا خفيفا
فيمس ذلك الكونتس فيكاد شعرها ينتصب من الهلع لقد ادركها
الخوف، خوف مربع ورغبة جنونية في الهرب في طلب النجدة ولكنها
لم تبد حرا كما خوفا من ان تقلق راحته .

كان ضجيج العربات يأتي من الشارع فينفذ عبر الجدران
وهي تصيح بسمعها لعل احداها تتوقف امام الباب فيصل بها زوجها -
وينقذها من هذا الانفراد المائل .

وحاولت استخلاص يدها من يد اوليفيه ولكنه شد عليها
واطلق تنهدة قوية ! فابقتها له لكي لا تزعجه

كانت النار تخرج في الموقد فوق رماد الرسائل الاسود
والشمعتان قد اخذتا تنطفآن .

كل شيء كان صامتا ، كل شيء خيم عليه ظل الموت ، ما عدى
الساعة الكبيرة المعلقة فوق السلم التي كانت تدق بانتظام معلنة الساعات
وانصافها وارباعها وهي تحدد الليل الى غايته

واحست الكونتس بالهلع يعظم في نفسها كأن اشباحا تحرق

بها وافكاراً هائلة تمكر نفسها وظنت ان اصابع اوليفيه قد تجمدت في
كفيها. ايمكن ذلك ! كلا ولا رب ! من اين جاءها اذا هذا الشعور
بانها تلامس جليداً ! ونهضت وقد اضاع الخوف صوابها ونظرت الى
وجهه : كان مسترخيا لا حراك فيه ولا حاجة من حياه . لم يعد يشعر
بكل آلامه فقد غلفه النسيان الابدي ...



دار اليفطة العربية للنأليف والترجمة والنشر بـسورية

تقدم

جين اوستن

في

أشهر رواياتها

عقل وعاطفة

أو

البنور وماربام

كيف يصارع عقل المرأة حبها ، وكيف تسيطر العاطفة
ذلك الحب عند أختها

قصة قلبي فتاتين في أحاسيسهما ومشاعروهما تفصها امرأة

قصة الفتاة التي تحكم العقل في كل ما يصدر عنها

وقصة الأخت التي تستسلم لعاطفتها

فتاة تحب بعقلها فتتجنب ، وأخت تحب بعاطفتها فيخونها

الحظ وتغلب على أمرها

سلوك المحبة ، وأنها ، وأخيرا المتهاك على المال

قصة المجتمع الانكليزي في أوائل القرن التاسع عشر

يطلب من كافة المكتبات في أرجاء العالم العربي

.. وهذا كتاب آخر تصدره

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

للقصاص الفرنسي الكبير

جي ده موباسان

إن جي ده موباسان حفيد الرواة الفرنسيين

للقرون السابع عشر والثامن عشر

« أناقول فرانس »

حياة صاخبة

قطعة من الأدب العالمي الرفيع تصور نفسية الشباب في أعقد مشاكلها
وأعنف ثورات غرائزها وأدق خلجات عواطفها



تحليل غاية في الدقة، استخرجه الكاتب من أعماق نفسه
يوم كان في ريق الشباب فصور ببراعة الساحر
خلجات نفسه ونبضات قلبه وثورة غرائزه



كتاب ممتع رائع يقع في ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير

كتاب لكل شاب وشابة

يطلب من دار اليقظة ومن كافة المكتبات في أرجاء العالم العربي

... وهذه مجموعة جديدة من المؤلفات العالمية أصدرتها

دار البقعة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

قرش سوري	ليرة سورية	قرش سوري	ليرة سورية	الكتاب
٥٠	٦ مغلف	٥٠	٨ مجلد	الأم
٥٠	٣	٥٠	٤	مجموعة تشيخوف الاولى
٥٠	٣	٥٠	٤	تولستوي
٥٠	٣	٥٠	٤	نيقوتشكا
٥٠	٤	٥٠	٥	مشاكل العالم العربي
٥٠	١	٥٠	٢	أوسكار وايلد
٢٥	١	٥٠	٢	في أمريكا
٢٥	١	٥٠	٢	ليرونتوف
٢٥	١	٥٠	٢	المركيزة
٥٠	٢	٥٠	٣	مستقبل المرأة العربية
٥٠	١	٥٠	١	تربية الوليد
٥٠	١	٥٠	٢	في ظلال الوعي
٥٠	٢	٥٠	٣	الثمرات
٥٠	٤	٥٠	٥	من الأدب الألماني
٥٠	٣	٥٠	٤	قوي كالموت
٥٠	٥	٥٠	٦	الساقطون

أو ما يعادلها بالعملة الأجنبية

تطلب منشوراتنا من كافة المكتبات في أرجاء العالم العربي

✽ في كل صفحة متعة خالصة وفي كل كتاب لذة دائمة ✽

تَوَطَّئَتْ

كانت الغاية من الرواية والقصة - قبل ججي دي موباسان - الموعظة وإزجاء النصيح واغداق الدروس الاخلاقية ، لذا نجد لها قليلة الجدوى عديمة النفع ، ذلك ان المرء بطبعه يكره الامر والنهي ان ينصبا عليه كما ينفر من يتشج بمسحوح الواعظ ويعلو المنابر ليضع في مسمعيه قوله : لا تفعل هذا وافعل ذاك !

أما « موباسان » فقد اتجه الى الغاية نفسها منتهجاً - بيلا أقصر - واكثر استقامة إذ جعل شاغله تصوير جمال الحياة وقبحها جميعاً ، فخرج الخير والشر متعانقين ، في كتاباته ، غير مفتوقين ؛ لانها في حياة الناس كما خطبها بقلمه البليغ . واكتفى بان يريك القبح باسمج أشكاله دون ان يقول لك : لا تفعله ! واكتفى بتركك تعيش الجمال الخالد بابدع الوانه دون ان يدفعك السية قائلاً : دونك إياه ! هذا هو العبقرى الروائي موباسان الذي فهم الحياة كما لم يفهمها كاتب من قبل .

* * *

يعتبر الكاتب الروائي الفرنسي « ججي دي موباسان » علماً من أعلام القصة في الأدب العالمي الحديث ، فهو صاحب مدرسة مجددة طوحت بالأساليب القديمة وعصفت بالطريقة الكلاسيكية وأرغمت الرومنطيكية على الانحناء ! ولم تكن هذه المدرسة الجديدة التي ابتدعها موباسان إلا المدرسة الواقعية التي تجنح الى تصوير الانسان كما هو - لا كما يجب ان يكون ! فكان الكاتب الواقعي ذاك الرسام الصانع الذي ينقل عن الطبيعة مظاهرها وخليجاتها على علانها ، فلا يمسح

بيد الرفق على جراحاتها ليلثما ، ولا يشوه حقائقها باصبعه زائفة دخيلة وانما عليه ان يعطيك صورة صادقة عن الحياة فتراها جميلة في قبحها وقوية في ضعفها ومرة في حقيقتها ، فليس من طبعه ولا في خلقه ان يهول لك المعاييب ولا ان يعظم لك الفضائل ولا ان يجعل لك من الابطال أنصاف آلهة ، وجل قصده انه يمر بالقلم على القراطس فيقول لك ما تراه تحت ناظريك بقلم حي وفكر خالد !

« أحب السماء كعجب الطائر لها ... وأحب الغابة كعجب الذئب لها ...
وأحب الصخرة كعجب الوعل الذي اتخذها له ملعباً ... » (١)

ومعني الحب عند موباسان هو الرغبة العارمة في الامتزاج ، والفناء فيما هو محبوب . ومن ثم استوسل موباسان يمتزج بتلك الامواج الذاخرة التي تضطرب في محيط الحياة ، يعلو متونها تارة ، ويهبط الى اعماقها تارة ، لا يضيق بشيء مما يكون ، ولا ينفذ الاستقرار فيما يجري ، فقد فني في هذه الحركة الدؤوب كل فناء ! ولكن ... غفر الله للحياة ! فلشد ما تشبث بها فنبذته عنها بعيداً ! !

* * *

ولد موباسان سنة ١٨٥٠ من عائلة تمت الى العراقة بسبب قسوي وبدأ حياته المدرسية في كلية مدينته « روان » فكان تلميذاً غير مرغوب فيه ، فهو لا يأبه الانزعاجات نفسه الطليقة فلا يملك عن الاسترسال معها محيداً ، فضاقت المدرسة بقصوره وما هي الا فترة حتى الفى نفسه يخرج الى الحياة الصاخبة شبه طريد ... وانتقل الى الريف يرتع فيه ويمرح ، يجيا مع الزراع ، ويختلط بهم في حياتهم الحشنة الطلقة فيجد في ذلك انساً وسلوى .. ولكن الريف ضاق به ، فهو يأخذ منه ولا يعطيه ، فما لبث ان الفى نفسه طريد الريف ...

وقضى حقبة اخرى من حياته موظفاً في وزارة البحرية ، وكان من فضائل وظيفته القليلة ما تركته له من فراغ .. فانصرف الى الأدب ، واتصل بنغوستاف فلوير الذي كانت تربطه بعائلة موباسان اواصر متينة ، فتلقاه بذراعين ممدوتين ، وأخذ عنه اول اساليب التأليف الروائي ، وبغفلة عرف موباسان

(١) من « رسالة الى موباسان » لعمود تيمور .

كبار الروائيين اتباع المدرسة الواقعية . ولم ينقطع موباسان بين عامي ١٨٨٠ و ١٨٩١ عن نشر القصص والروايات التي امتازت بقوة أسلوبها وصدق تصويرها والمتسمة بسمة الواقعية المفرقة التي كادت ان تنقلب سبة عليه !

أحب موباسان في الحياة متعها اشكالا والوانا ، فأغرق نفسه في لجة الحسن : فهدر القدود جهد طاقته ، واعتصر الكؤوس اعتصار ظامي لا يروى له غليل ... وكان يصور كل ما أحب الصورة الصادقة التي علفت في ذهنه منه ساعة أحبه . . . لذا ترى في كتابة موباسان كل لون يخطر لك في بال ، وتجد بين ابطاله كل نموذج يمكنك ان تلتقي به في اي مجتمع وفي اي زمان . . ومن هنا تأتي القيمة الانسانية لأدبه ، بيد أنه آانس من الحياة إباء عليه وتخلصاً من بين يديه . ولم تكذب الايام ظنه فما بلغ الاربعين من عمره حتى انقصر ما بينه وبين عالم الاحياء من صلات واتخذ لنفسه سكناً بين القلم والقرطاس . . . يعمل ليل نهار دون ان يدركه تعب او يحس مللاً . . . يالها من غرائب ، فإن حبه للحياة هو الذي حرره دوام وصالحها ، وكلها هم بها صدت وكلها مال اليها بعدت . . . فلا بدع ان يحقد عليها حقداً مريراً ، حقداً يخالط ذلك الحب المكين كما يخالط السم الناقع رطب الشراب !

ورأى المجتمع تتحكم به عادات ومعتقدات عليها غلائل فاخرة من نسج الخادعة والرياء ، فجري يحطم القيود ويمزق الاغلال لا يصدده عائق عن هدفه المرموق ، فنضاً الاستار عن تلك الغرائز البشرية التي تعمل في السرائر وتجعل من الناس دميّ تبعث السخريّة والاشمئزاز .

وربع المجتمع بما جابه به من مساوئه ونزعاته الدنيئة ، واذله ما صفعه به من حقيقة علقمية الطعم ، فطبيعة في بشاعتها ولكنها متناهية في صدقها واخلاص اهدافها . . . فصاح به المجتمع بنفس واحد : مكانك ايها الفاجر السليط ! الا ان ذلك المجتمع كان في قرارة نفسه مقراً بصدق ما ذهب اليه ، معترفاً ان الحق ما قاله . . . فكأنه يستزيده ولا يحاول خنق انفاسه كما تظاھر .

ولم يقبل الحياة موباسان حتى يحقق كل غاياته واهدافه ، فما لبثت متسع

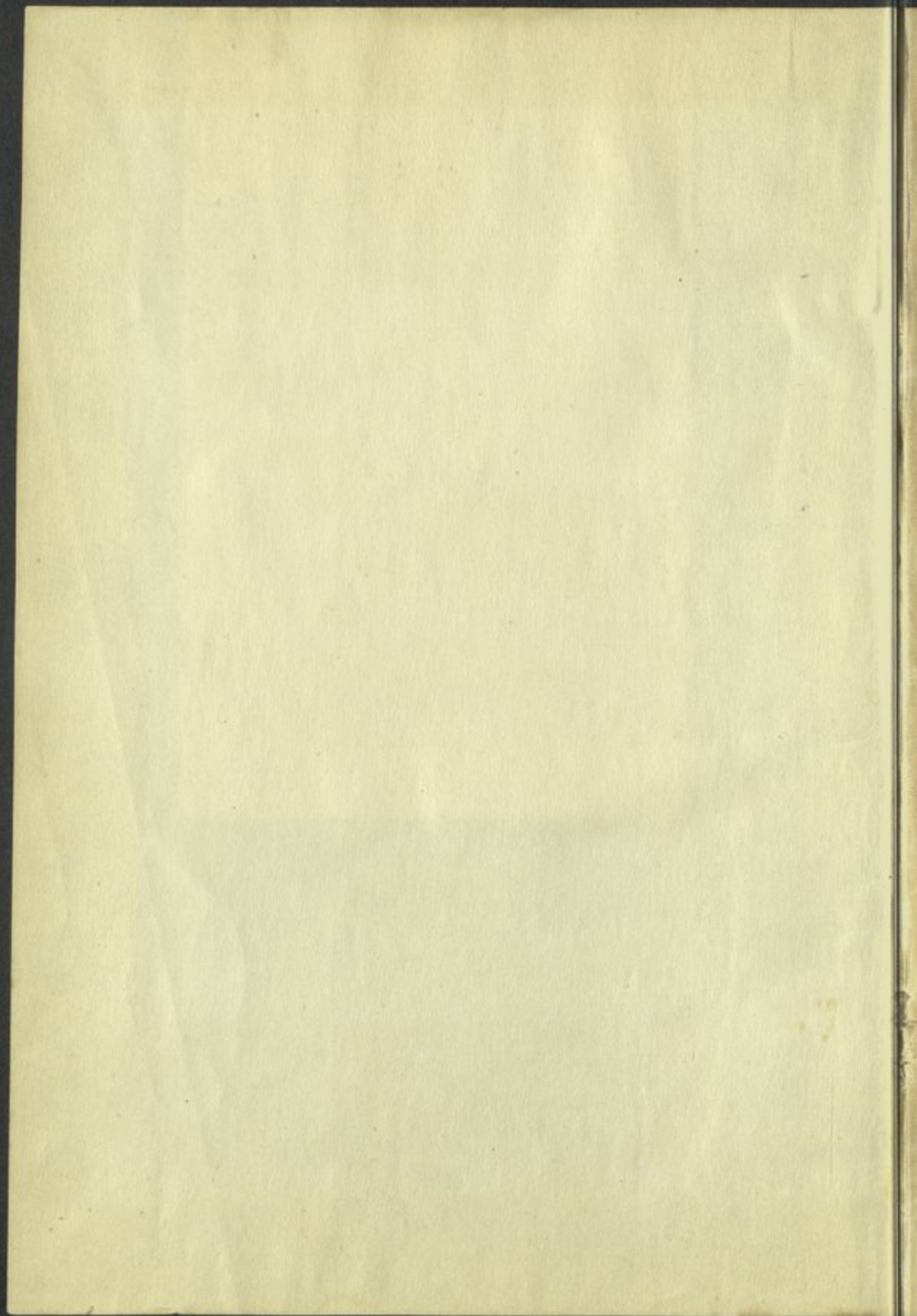
الحياة ، واستنثار الشباب أن سرت في دمه سمّاً زعافاً ، وحل يوم شعر فيه أن عقله ينزف ، وأنه موشك أن ينضب .

واصيب موباسان بالجنون ، فأقام سنوات ثلاثاً في مصحح الامراض العقلية وقضى نحبه في نهايتها سنة ١٨٩٣ بعد أن كان قد وهب المكتبة الفرنسية ثروة طائلة خليق بها أن تزهر وتفخر بهذه الهدية الكريمة . كما كان قد اهدى للادب الحديث طريقته الجديدة الواقعية اذ انه ابدع فناً يكاد ان يكون جديداً في الادب الفرنسي آنذاك هو فن القصة القصيرة التي احدثت ثورة فعلية في الادب العالمي فيها تلا ذلك من اعوام .

واذا كانت المكتبة الفرنسية قد اتخفت بهذه الروائع التي قدمها لها القصاص الكبير موباسان فإن المكتبة العربية ما زالت ظامئة الى هذا الادب الرفيع تضيفه الى ذخيرتها الخالدة ، وما هي ذي دار البيقظة العربية تسهم - على عادتها - في بناء المكتبة العربية فتقدم للقارئ العربي هذا الاثر النفيس من آثار موباسان الذي يغلو بعض النقاد فيرى فيه خير ما انتجته قريحة موباسان وافضل - ل ما خطه يراعه !

دمشق - حزيران ١٩٥٣

المعرب



DATE DUE



843:M452aA:c.1

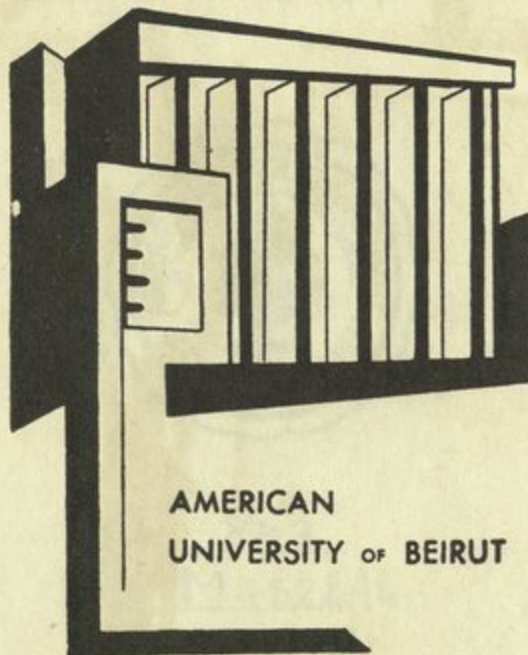
الخطو، ابراهيم

قوى كالموت

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01002119



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

